الملكة اليزابيث

محمد عمر

(١٥٥٨ ـــ ١٦٠٣م)

الدكتور احمد صالح عبوش



الملكة اليزابيث

١٥٥٨_١٦٠٣

تأليف

د.أحمد صالح عبوش

جامعة الموصل/كلية التربية

الناشر

المكتب العربي للمعارف

عنوان الكتاب : الملكة اليزابيث
اسم المؤلف : د.أحمد صالح عبوش
تصميم الغلاف : شريف الغالي

الناشر
المكتب العربي للمعارف

٢٦ شارع حسين خضر من شارع عبد العزيز فهمي
ميدان هليوبوليس - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون/ فاكس: ٢٦٤٢٣١١٠-٠١٢٨٣٣٢٢٢٧٣
بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠١٥

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١١٥٨١
الترقيم الدولي : I.S.B.N. 978-977-276-744-1

المحتويات



المقدمة

تعد الملكة اليزابيث من أشهر الملوك والحكام في أوربا خلال القرن السادس عشر، فقد استطاعت ان تصل ببلادها الى ذروة مجدها، وأعادت مركزها الطبيعي بين الدول الاوربية الاخرى امثال اسبانيا وفرنسا.

تميزت سياسة اليزابيث بالهدوء الى حدٍ بعيد رغم الاحداث الساخنة التي احاطتها من كل حدب وصوب، فرغم كثرة المؤامرات الداخلية والخارجية الرامية الى خلعها والاطاحة بملكها، إلا انها كانت تتعامل مع ما يدور من حولها ببرودة اعصاب منقطعة النظير وصلت الى درجة النقد والاستغراب حتى من اقرب المقربين اليها، فرسخت بذلك اركان المذهب البروتستانتي الجديد، وانعشت الاقتصاد الانجليزي، واصدرت القوانين التي نظمت من خلالها الحياة العامة والخاصة، وهزمت اعتى الخصوم الذين تمثلوا بالاسبان في حرب ملحمية بحرية (الارمادا) حامية الوطيس، عُدّت من اشهر المعارك البحرية في التاريخ الاوربي الحديث.

ولم تغفل اليزابيث الحياة الادبية والمسرحية فاعتنت بها ودفعتها صوب التميز والازدهار، وشحذت الهمم ورفعت الروح الوطنية بين جميع طبقات المجتمع الانجليزي، انه الهدوء السياسي الاليزابيثي أو بالاحرى انها السياسة الهادئة الاليزابيثية التي رفعت الصديق الى مقام الاقوياء الامناء، وكسرت جبروت الاعداء حتى لم يعودوا يفرقون ما بين الكدر والنقاء.

د. احمد صالح عبوش
كلية التربية/جامعة الموصل
٢٠١٤م

الفصل الأول

حياة الملكة إليزابيث ١٥٣٣-١٥٥٨

أصبح من المسلّم الى حد بعيد ادراك العديد من التحديات الكبيرة ابان حكم الملكة اليزابيث الممتدة لخمسة واربعين عاماً عاشتها في السلطة. أن الاستفاضة في دراسة الحدث تكمن في الاهتمام الشخصي للباحث بالموضوع في جوانبه الخاصة والعامة، ومن الخلافات والاحداث العنيفة والمستمرة التي من المحتمل ان يكون لها تواجد في الواقع الملموس.

الملكة إليزابيث هي ابنة الملك هنري الثامن Henry VIII (١٥٠٩-١٥٤٧)[١] والدتها آن بولين Anne Boleyn (١٥٠١-١٥٣٦)[٢] ابنة توماس بولين Thomas (١٤٧٧-١٥٣٩)[٣] ايرل والتشاير Wiltshire، وقد ولدت إليزابيث في السادس من أيلول ١٥٣٣، وقد حضر نفر عظيم المعمودية وزادوها أربعة أيام فوق المعتاد، وعندما قطع رأس أمها كان عمر إليزابيث سنتين وثمانية أشهر، وأُعلن أنها ابنة غير شرعية بحسب القانون البرلماني، لكنها لم

---

(١) نري ا ل ثامن: و لد عام ١٤٩١ و يعد ا لم لك ا ل ثا ني مي من اسرة ال تيودور بعد والده الملك هنري السابع (١٤٥٧-١٥٠٩) ابن ادموند تيودور، ومن اهم اعمال الملك هنري الثامن قيامه بفصل الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما.

(٢) آن بولين: ملكة انجلترا منذ عام ١٥٣٣ وحتى عام ١٥٣٦ بوصفها الزوجة الثانية للملك هنري الثامن. عاشت لفترة من الزمن في فرنسا، ثم عادت الى انجلترا لاجل ان تتزوج بابن عمها جيمس بتلر ايرل اورموند. لكن هذا الزواج لم يتم، وقد عملت بعد ذلك وصيفة لدى الملكة كاترين اراجون الزوجة الاولى للملك هنري الثامن. اعدمت آن بولين عام ١٥٣٦.

(٣) توماس بولين: دبلوماسي وسياسي انجليزي عمل خلال عصر ال تيودور. والد آن بولين، وجِد الملكة اليزابيث.

تبدِ أي اهتمام بهذا الشأن ولم تذكر أسم أُمها أبداً، ولم تأخذ أية خطـوة مـن شأنها إلغاء القانون الذي يمكن أن يجردها من حقوقها؛ وبطريقة غير مباشرة أظهرت إيمانها ببراءة والدتها آن من العلاقة المشبوهة مع نـوريس Norris عشيقها المزعوم، معتمدة في ذلك على ما تتمتع به عائلتها من شرف ونبل.

وأثناء حياة والدها عاشـت مـع أخيهـا ادوارد Edward (١٥٣٧-١٥٥٣) في مدينة هاتفيلد Hatfield- شرق انجلترا- تحت رعايـة مربيـة، وفي عام ١٥٣٦ خول الملك هنري البرلمان للنظـر فـي مسـألة التعاقـب الوراثي، وقد جعل هذا التخويل ماري وأختها إليزابيث في وراثـة أخيهمـا ادوارد وكان ذلك في عام ١٥٤٤، وقبل وفاة الملك هنري الثامن بأيام قليلـة أكد ما أُقر في عام ١٥٤٤ فيما يتعلق بالتعاقب الوراثي، وأن تجلـس علـى العرش بعد إليزابيث ابنة أخته الأصغر مـاري دوقـة سـوفولك Suffulk (١٤٩٦-١٥٣٣)[1]، ويكون بذلك قد تجاوز ضمناً أخته الكبرى مارغريـت ملكة اسكتلندا، وبعد وفاة الملك هنري الثامن عام ١٥٤٧ كانت إليزابيث قـد بلغت من العمر الثالثة عشر، وقد ذهبت للعيش مع الأرملة كاثرين بار Parr Catherine (١٥١٢-١٥٤٨)[2]، والتي كانت قد تزوجت قبل أسابيع ليسـت بالقليلة من حبيبها المسن اللورد الأدميرال تومـاس سـيمور T.Seymour

---

(١) ماري تيودور: الاخت الاصغر للملك هنري الثامن، وزوجة لـويس الثـاني عشـر (١٤٦٢-١٥١٥) ملك فرنسا.

(٢) كاثرين بار: آخر زوجات الملك هنري الثامن الستة، والوحيدة التي عاشـت بعـده. وكانت قد تزوجته عام ١٥٤٣.

(١٥٠٩-١٥٤٩) شقيق الحامي سومرست Somerset (١٥٠٠-١٥٥٢)[1]، الذي وُصف بأنه "شجاع ومجامل ومهيب لكنه لم يكن ذا اهمية تُذكر". وما لبث أن حدثت بعض المداعبة بين هذا الرجل الخطير وإليزابيث، ففكرت كاثرين بضرورة إبعادها عنه بعض الشيء، ومنذ ذلك الوقت أقامت إليزابيث بصورة رئيسة في هاتفيلد.

وفي أب عام ١٥٤٨ توفيت كاثرين، مما دفع اللورد سيمور للتقدم لطلب يد إليزابيث للزواج منه بأسرع وقت ممكن، هذه الأمور وغيرها من الخطط والمشاريع الطموحة جلبته إلى المقصلة في آذار ١٥٤٩، إذ أنه لم يظهر أن مداعباته مع إليزابيث قد كانت بعد موت كاثرين أي بعد أن أصبح أرملاً، لكنها استمعت إلى أقواله، وفندت اليزابيث جميع اقواله وتعليقاته غير الضرورية، وأدركت بشكل كبير بأن مثل هكذا زيجات سوف لن تكون شرعية على الإطلاق، فاوضحت أن مغازلتها لرجل كبير كافية لكي يكون بمقام والدها، وأنها غازلت بعد ذلك رجالاً شباب وعدّتهم ابناءها، وهذا ما يمنحنا صورة واضحة من الطيبة وعمق الشعور لديها هي التي ميزتها طيلة حياتها، وعندما سمعت بإعدام سيمور أشارت ببساطة: "في هذا اليوم مات رجل شديد الذكاء وقليل الحكمة"، ورغم ان القلب لم يتكلم أبداً مع صاحبته إليزابيث، الا ان الأحاسيس والمشاعر كانت قد غمرتهاالى حد بعيد، كونها كانت امرأة مثالية وذكية، وهذا ما جعلها محبوبة ومحترمة في الوقت نفسه

---

(١) سومرست: اسمه ادوارد سيمور، لُقب باللورد الحامي وكان دوقاً لسومرست. اعدم عام ١٥٥٢.

أمام جميع الرجال والنساء، والخواص والعوام، وبدا انه من الواضح ان اليزابيث عانت كثيراً من مغبة حادثة اعدام سيمور. وقد عاشت اليزابيث في قصور اشردج Ashridge وانفيلد Enfield وهانفيلد، وكانت دراستها محط أنظار المثقف والمعلم الشهير روجر أشام Ascham (١٥١٥-١٥٦٨)[1].

عندما توفى الملك ادوارد في ٦ تموز ١٥٥٣، كانت اليزابيث قد بلغت العشرين عاماً، وبما أن مشكلة ماري في ذاتها، فقد بقيت إليزابيث على الحياد الى درجة كبيرة خلال حكم الملكة جين، وبعدما ارتقت اختها ماري العرش الانجليزي سارعت اليزابيث إلى تهنئتها، وعندما دخلت الملكة ماري الى لندن ركبت اليزابيث العربة الى جانبها دليلاً على تأييدها لها، كانت حياة إليزابيث على المحك خلال السنوات الاولى من حكم الملكة ماري، وكما يقال ان حياة اليزابيث كانت معلقة بخيط، فحماقة الاستخفاف بالملكة كان يمكن أن تقربها خطوات واسعة صوب الموت، فمؤامرة وايت Wyatt -نسبة الى احد زعمائها توماس وايت- كانت تصب في صالح اليزابيث، لكن لا هذه المؤامرة أو أية مؤامرة أخرى قد اسهمت اليزابيث في تدبيرها وحياكتها، وأن تصرفها الحكيم أعطاها الحق في السنوات اللاحقة من حكمها في التعامل بقسوة تجاه ماري ستيوارت ملكة اسكتلندا.

---

(١) اشام: عالم انجليزي ومعلم بارع. عُرف باسلوبه الراقي ونظرياته التعليمية القيمة، وكان يُدرس الملكة اليزابيث مابين (١٥٤٨-١٥٥٠).

وقد طالب السفير الإسباني سيمون رينارد Renard (١٥١٣-١٥٧٣) الملكة ماري بضرورة إعدام اليزابيث[1] شرطاً أساسياً للاتفاق بين البلـدين، وطمأنته ماري بأنها ستعمل ما في وسعها من اجل ذلك. وتعد مثل هكذا نيـة في الحكم الملكي في عهد الملك هنري الثامن معادلاً للموت بشكل كبير، لكن ماري أبعد من أن تكون بسطوة أبيها، وأن المجلس الخاص قـام بمسـايرتها رغم أن بعض اللوردات أبدوا احتجاجاتهم على اتهام إليزابيث بتهمة التـآمر، لكن رغم ذلك أُرسلت الأخيرة إلى برج لنـدن، وطالـب النبيـل سوسـكس Sussex بإبعاد هذه التهمة عن إليزابيث، وإجراء مقابلة مع الملكة ماري لهذا الغرض، وهذا ما اغضب الملكة ماري كثيراً إذ قالـت: "إنهـم لا يجيـدون التصرف وكنت أتمنى لو أن والدي حي معنا لشهر واحد فقط"، رغم اعتقادها بأن الملكية المطلقة ما زالت في أفضل أيامها وحالاتها، لأجل ذلك فقد حـذر سوسكس مساعد البرج من مغبة الغدر، والعمل ضمن أوامره المدونـة، أمـا اللورد جنرال هاورد افينغهـام Howard of Effingham – خـال الملـك هنري الثامن– الذي كان له دورٌ بارزٌ فـي ايصـال مـاري الـى العـرش الانجليزي، فقد أصر بشدة على أن يهيئ طعامها في البرج عن طريق أحـد خدامه المخلصين، وان أي اقتراح برلماني يمكن ان يمنح الملكة ماري القـوة الكافية لترشيح وريث غير اليزابيث يجب أن يرفض بقـوة، وأخيـراً أعلـن القضاء الانجليزي بان هناك دليلاً يثبت إدانة إليزابيث، وبناء على ذلك وافقت

---

(١) من المحتمل ان اسبانيا الكاثوليكية بحثت عن اعدام اليزابيث البروتستانتية التـي لـم تكن تؤيد افكار اختها ماري الكاثوليكية، وخاصة وان اليزابيـث المرشـحة الاولـى لوراثة العرش الانجليزي.

الملكة ماري وبعد عناء طويل على فسح المجال لتقديم الالتماسات في قضية اليزابيث، فأُرسلت الاخيرة إلى وودستوك Woodstock[1] حيث استقرت هناك لمدة سنة كاملة تحت الإقامة الجبرية، وكان هذا منطقياً جداً، فأي وريث للعرش لا يمكن أن يتوقع اقل من ذلك، أو ان ينال حرية غير منقوصة، وفي تشرين الأول ١٥٥٥ سُمح لها بالذهاب إلى هاتفيلد تحت مراقبة البابا توماس، وخلال ما تبقى من العهد، ابتعدت عن انتهاك المحرمات، عن طريق التظاهر بالالتزام بالمذهب الكاثوليكي، ولكن أصبح من الجلي أنها اقتربت من العرش كثيراً، ومما لا شك فيه أنها تدارست جميع المشكلات مما مكنّها من التعامل مع الصعاب بشكل حكيم وملائم، وان قربها من وليام سيسل Cecil (١٥٢١-١٥٩٨)[2] جعلها تعتلي العرش الانجليزي خلفاً لاختها ماري.

وعندما أدركت الملكة ماري قرب اجلها، أخبرت السفير الإسباني كوميز سواريز Comez Suarez (١٥٢٠-١٥٧١) دوق فيريا Feria بأن يدعو إليزابيث ويخبرها بأن المجلس وافق على أن تكون وريثة لها على عرش انجلترا نيابة عنها، بعد أن رفضت مهمة اخبارها، وأخبرته بأن جميع النبلاء يقفون إلى جانبها -اي اليزابيث-.

---

(١) وودستوك: بلدة صغيرة تبعد حوالي ١٣ كيلو متر عن اكسفورد في انجلترا.

(٢) وليام سيسل: بارون بيرغهلي، يعد مؤسس سلالة سيسل التي انجبت العديد من السياسيين في التاريخ الانجليزي. شغل منصب وزيراً للخارجية للاعوام ١٥٥٠-١٥٥٣ و١٥٥٨-١٥٧٢. توفي في لندن، ودفن في كنيسة القديس مارتن عام ١٥٩٨.

الفصل الثاني

تغيير المذهب الى البروتستانتية ١٥٥٩

توفيت ماري تيودور في ١٧ تشرين الثاني ١٥٥٨ وعقد البرلمان جلسته، لإبلاغ كلا المجلسين (اللوردات والعموم) بذلك، وأخذ رئيس الأساقفة الكاثوليكي صراحة المبادرة في إعلان إليزابيث ملكة بعد وفاة أختها الملكة ماري، قائلاً: "إنها تستحق ذلك، ونحمد الله على كل حال، وليس ثمة شك في ذلك".

كان الكاثوليك ينظرون بعين عدم الارتياح لمواقف الملكة الجديدة إزاء تصرفات الاساقفة العشوائية، رغم ذلك فقد كانت مسرورة لعدم وجود ما يهدد وراثتها للعرش، لكن ليس هناك ما يمنع رفض الملكة إليزابيث لافكار وقوانين رجال الدين وعدم تقبلها لمؤسسات دينية كانت متواجدة في العهد الأخير – عهد الملكة ماري–، وكانت ترى ضرورة وضع نهاية لعمليات احراق الناس، ووضع حداً لاستبداد الأساقفة.

كانت التغييرات المذهبية قد بدأت منذ اكثر من ثلاثين عاماً تقريباً، فجميع الرجال متوسطو العمر بإمكانهم تذكر الزمن عندما صمد النسيج الاكليروسي أمام الصعاب بشكل متواصل، وكان يمكن أن يصمد لعدة لقرون أخرى، وقد مرت أربعة وعشرين سنة منذ أن حوّل قانون السيادة العليا[1]

---

(١) صدر قانون السيادة العليا في زمن الملك هنري الثامن عن طريق برلمان الاصلاح الديني او ما يعرف ببرلمان السنوات السبع ١٥٢٩-١٥٣٦، الذي جعل من الملك الرئيس الاعلى للكنيسة بدلاً من البابا.

رئاسة الكنيسة من البابا إلى الملك، وأن عدة مذاهب بروتستانتية فرضت على البلاد عن طريق الحامي سومرست مما زاد في استياء الغالبية العظمى من الانجليز، وبدا واضحاً عاجلاً أم آجلاً وقوع حرب أهلية، لكن بعيداً عن الأقلية البروتستانتية المتزمتة، يمكن أن تتواجد بصورة رئيسة في لندن الأمة المحافظة عامة، التي بامكانها إعادة تأهيل المذهب القديم (الكاثوليكي) والعودة للنظام وللفطرة السليمة بعد تجربة مرة وقصيرة من الفوضوية الثورية، وكانت هناك دعوة عارمة لإعادة الاستبداد الذي كان يمارسه الاساقفة على الجميع، وان إقرار البابا بالتنازل عن صدارته كان فقط لإرضاء ثلاثة أرباع الأمة، وان النسبة الأكبر والأكثر تأثيراً من أصحاب العقارات العظيمة مازالوا يقفون إلى جانبه.

كان ارتقاء الملكة ماري للعرش فرصة عظيمة ونادرة للكنسية القديمة، ولو كانت ماري سياسية ذات أعصاب باردة وليست متعصبة ومتزمتة، لأقنعت الجميع بإعادة المذهب القديم، ومعاقبة منتهكي الدين الرسمي للدولة فقط، اما إليزابيث فلم يكن لديها القوة الكافية، وربما كان لديها رغبة في إبطال عمل أختها ماري.

كانت الفرصة الكبيرة قد تركت جانباً، وأن أساقفة ماري أعادوا التفكير ملياً بالبيان المطول للإذلال والمهانة لكنيستهم التي طالما عانت، وكانت متعطشة للثأر والدم.

لم يسبق لانجلترا أن حُكمت من قبل رجال الدين، وكان هذا النوع من الحكم مكروهاً عند أغلب الرجال العلمانيين من الكاثوليك والأمر ذاته بالنسبة للبروتستانت، وكان هذا موضع ترحيب من جانب الملكة إليزابيث، وعلى أية

حال كان هناك نهاية للاستبداد الكهنوتي، الا أن الاساقفة لم يقطعوا الأمل بأن اليزابيث ستصون العبادة القديمة، فقبل خمس سنوات مضت كانت قد وافقت على ذلك وقطعت للملك الاسباني الكاثوليكي فيليب الثاني PhilipII (١٥٢٧-١٥٩٨)[1] وعداً بدعم المذهب الكاثوليكي في انجلترا، فلا الأمة أو حتى الكنيسة ترغبان بأن يكون هناك انحراف في المذهب أو المعتقد، وهذا ان حدث فمن الصعب تحمله، لكن في عام ١٥٥٨ لم تكن هناك خطة مرسومة بعد لاحداث انقلاب ديني في انجلترا، فما زالت فرنسا تمارس الضغوطات لمثل هكذا تغييرات كزواج الكهنة.

إن مجلس ترنت Trent كان واقعياً الى حد ما، وقبل عام ١٥٤٥ أُقر بأن المذهب الكاثوليكي احتوى على مسائل توراتية وإنجيلية ومسائل تتعلق بالتقاليد، لكن المجلس أُجل ولم يستأنف العمل به حتى عام ١٥٦٢ وكان قد أكد على ضرورة التزام المذهب الكاثوليكي داخل انجلترا، على أساس أن المذهب والنظام قد ينصهران في بودقة واحدة، لكن لا أحد يمكنه أن يتوقع ماذا سينتج من ذلك الانصهار، وإذا ما اقتنعت إليزابيث نفسها بالخطة الفرنسية، وانضمت إلى فرنسا بحماسة، فالملوك الآخرون الذين اهتموا بالحق لا لشيء سوى للتظاهر والتحايل، سيجبرون البابا لأجل إيجاد حل وسط، وأن المذهب اللوثري غير المرسخ ربما يكون المذهب المتسامح الوحيد من بين المذاهب الاخرى، فكانت المعتقدات الانجليكانية قد تبلورت بوساطة الانسجام

---

(١) فيليب الثاني: ابن الامبراطور شارل الخامس، ووالدته ايزابيلا البرتغالية. ولد فيليب في مدينة بلد الوليد، ومن اشهر حروبه حرب الارمادا مع انجلترا التي هُزم فيها عام ١٥٨٨.

وبمرافقة الإيمان في التواجد الحقيقي، وأن النسيج الكاثوليكي في انجلترا سيختفي الى حد ما.

وقد أخبرت الملكة إليزابيث السفير الإسباني دي كوادرا De Quadra (؟-١٥٦٤)[1] بموافقتها، على ان يكون اعتقادها كأي فرد كاثوليكي في المملكة، واستغرب في عام ١٥٥٩ من سعيها الجاد الى تغيير المذهب الى البروتستانتية، فأجابته بأنه لا مناص من ذلك، ولو أدرك كيف أنها تدبرت هذا الأمر، لكان منحها العذر الكافي على فعلها هذا.

لم تكن اليزابيث متدينة ولم تكن منزعجة أو مضطربة أو انها شعرت بذنب ما، حتى أنها لم تهتم أبداً بمدى قربها وبعدها من خالقها، فكانت تُفضل الدين في شكله الظاهري ولا شيء غير ذلك.

وليس هناك دليل على أنها كانت تعمل سراً لمنع تبني البروتستانتية في عام ١٥٥٩ مع ذلك فالنبلاء الكبار عارضوا الاضطهاد والتزمت من اجل الحد من سلطة البابا الذي يمكن أن يفضل ترك العبادة على ذلك كون السلطة اهم من العبادة في الفكر البابوي، لكن الملكة إليزابيث قررت استئناف قانون السيادة العليا الذي صدر في عهد والدها، إذ أن الطريق الوحيد لضمان نجاح حكمها يكمن في إضعاف المذهب الكاثوليكي، وإذا ما وضعت نفسها في أيدي الكاثوليك المعتدلين أمثال باجيت Paget، فإنها ستكون مدعومة فقط من جانب الملك الاسباني فيليب الثاني، وأنهم سيساندوها لكي تكون مطمئنة برئاسة الكنيسة الانجليزية والتي غالباً ما يدرك أي ملك انجليزي كيف يجيد ذلك

---

(١) كوادرا: كاهن ودبلوماسي اسباني. كان من بين مَنْ حضر اعمال ترنت.

العمل، و رغم ذلك يبقى هذا الأمر دون طموحها، كونها كانت ترغب في أن تصبح السيد الاوحد في البلاد من دون الاعتماد على الاخرين، وليس هناك من أحد بإمكانه أن يدافع بيقظة مستمرة على المدى البعيد، أو ان يتحمل تكاليف الخصومات العنيدة الباهضة.

ترى الملكة اليزابيث انه لمن الخطر في السياسة الخارجية انفجار ثورة دينية، وان كان هناك العديد من رجال الدولة يملكون الحكمة والتعقل للقيام بمثل هكذا إجراء، إذ سيكون هذا الخطر صعباً جداً على حياة الشعوب، فهو أشبه بكارثة السنوات الثلاثة الأخيرة من حكم الملكة ماري التي شهدتها البلاد في عهدها، وفي الكثير من المناسبات اعترفت اليزابيث بان الكاثوليك هم الجانب الأقوى، لكنها آمنت بشكل كبير بان المستقبل سيكون حليف البروتستانت، فالشباب الاقوياء كانوا قد عوّلوا عليها في زمن حكم أختها ماري، وأنهم جاهزون لفعل أي شيء من أجلها والالتفاف حولها، وبميولها الطبيعية وبثقافتها أعادت البلاد الى ايام النهضة، لكن رجعية الكالفنية كانت جوهرية وعميقة الاثر في عقول عامة الناس، فهي كأقلية ناضلت من أجل حرية الاعتقاد، وتعليم ونشر ما اعتقدوا به بين العامة والخاصة، وهذا مثّل لفترة ما سبب التحرر والانفتاح والتنوير، ولم تكن اليزابيث تحبذ الفكر الكالفني الضيق الأفق الذي كان قد ملأ بالخرافات كالذي في روما، لكن في الوقت نفسه كان هذا الفكر هاماً بالنسبة لها، وفي القواعد العامة كان الرجال الأدنى منزلة لا يقدمون ابداً صوب الارتقاء، اذاً من الذي لديه المقدرة للعمل مع الملكة؟. فالمنطقيون والوجدانيون العلمانيون مشككون، لا يمكنهم دائماً أن يكونوا المادة الاساسية للنضال؛ وفي الوقت نفسه كانوا قليلي العدد لا يمكن

التعويل عليهم، في حين أن انجلترا تحتاج لأن تدار على الأقل من الذين بإمكانهم صناعة الوجود ما بين حجارتي الرحى برفقة حماسهم، وهذا ما سيجعل اليزابيث في ارتياح تام إذا ما أعلنت الخصومة في وجه الكاثوليك، كونها ستضمن الدعم الحماسي والثابت من ثلث الأمة تقريباً، وأنها بذلك ليست في حاجة لأخذ الدعم من الأمم الأخرى والاعتماد على الاخرين ورجائهم لأجل ذلك، أما بالنسبة للثلثين الآخرين فكثيراً ما تمنت اليزابيث مصالحتهم بصفتها حاميتهم وملكتهم، وهذا الأمر يمكن أن يكون سارياً على المتعصبين من المذهب البروتستانتي، وفي ظل هذه الظروف قرر سيسل مقابلة الملكة فيما يتعلق بسياسة الابتعاد عن روما، والذي كان لديه من العمر ثمانية وثلاثون عاماً ويقدم نفسه على الدوام على أنه خادم الملكة إليزابيث المطيع، واحد الرجال الجدد ممن وثقت به أسرة تيودور منذ عهد الملك هنري الثامن، وكان في زمن الملك ادوارد قد شغل منصب وزير الخارجية. ينتمي سيسل إلى المذهب البروتستانتي، وبسقوط رب عمله سومرست كان ولفترة قصيرة قد أرسل إلى البرج لكن سرعان ما عاد ثانية إلى مركزه، وأصبح محترفاً جداً تحت سلطة نورثمبرلاند Northumberland العدو اللدود لسيده القديم سومرست، وكان قد وقع على وصية تجعل من جين جراي Jane Grey (١٥٣٦ أو ١٥٣٧-١٥٥٤)[١] ملكة على انجلترا، لكن سرعان ما عاد التاج إلى الملكة ماري، وفي عهد الاخيرة انسجم سيسل مع مبادئ ومعتقدات

---

(١) جين جراي: ابنة هنري جراي دوق سوفولك (١٥١٧-١٥٥٤)، تُعرف بملكة الايام التسعة كونها حكمت انجلترا من ١٠ تموز وحتى ١٩ منه عام ١٥٥٣. اعدمت في برج لندن عام ١٥٥٤.

المذهب القديم، ورغم ذلك لم يكن لديه أي منصب، وأصبح مستشاراً للأمور العامة، وكان أحد المفوضين الثلاثة الذين ذهبوا لجلب الكاردينال بول Cardinal Pole إلى انجلترا.

كان سيسل متمكناً في عمله، وأنه أحد أولئك الذين تتهاوى الصعاب امامهم كونه يدرك الى حد كبير كيفية استخدام قدراته، وكان فطناً بارعاً ذا عقل راجح، ومعتدل الأفكار ويمقت التعصب الذي عند الآخرين، مع ذلك بإمكانه أن يستخدم عقله لخدمة أهدافه وغاياته، وميوله الدينية الخاصة، ودوافعه الشخصية، وبطبيعة الحال كان لا يمثل أمام الملكة، التي قد تموت (قبل أوانها)؛ وهذا إن حدث فيجب أن لا يكون قبل هيمنة البروتستانت على زمام الامور، والا فان كارثة ستحل فوق رؤوسهم خاصة أن حياته ستكون في خطر دائم، لذلك استطاعوا –اي البروتستانت– أن يمسكوا بزمام الأمور من أعلاها إلى أدناها، ونصبوا انفسهم حماة للعرش الانجليزي من الكاثوليك، وأنهم إذا ما تطلب الأمر سيضعون السيوف في أيديهم، لكن في السنوات الأولى من عهد اليزابيث كان الحبل يلتف حول عنق سيسل، لذلك كان همه دفع عجلة الثورة الدينية صوب الأمام بكامل جاهزيتها.

اتخذت الملكة إليزابيث موقفاً سلبياً من روما بسبب قيام البابا بولس الرابع Paul IV بابلاغها رسمياً بضرورة ترسيخ الكاثوليكية في انجلترا، مع ذلك فليس هناك شك بان الملكة اليزابيث اخذت على عاتقها مهمة تغيير المذهب الكاثوليكي منذ الاسابيع الاولى من حكمها، إذ انها توجت نفسها طبقاً للطقوس القديمة من قبل الأسقف الكاثوليكي كارليسلي Carlisle، ان مثل هكذا امر لا يمكن ان يتوقع الا من قبل حاكم قوي، لم يكن مهيأ حتى لإقرار

تعديلات ضرورية لتكون بداية لاضطرابات شعبية أو لصلافة ووقاحة رجال الدين الخصوميين، فالتغيير الوشيك كان كافياً تماماً لإزالة الكاثوليك غير المعتدلين من المجلس وتعيين سيسل وبيكون Bacon (١٥٦١-١٦٢٦) في مكاتب السكرتارية وأمن الدولة.

إن المرشحين البروتستانت في البرلمان الجديد كانوا قد نصحوا الحكومة، بالاجتماع بأسرع ما يمكن لأجل التغيير المذهبي العظيم الذي لابد أن يكون قانونياً وحاسماً. وكان ذلك ابتداء من ٢٥ كانون الثاني وحتى ٨ أيار ١٥٥٩.

فالحكومة والعبادة ومذهب الكنيسة من أكثر العلامات البارزة التي تركتها الملكة إليزابيث على الحياة الوطنية في انجلترا، ومنطقياً كانت تتوقع بأن تسوية خلافات المذهب فوق أهمية الحكومة والعبادة، فهذه الميزة للحالة الكنسية تعكس نظام الحكومة إزاء العبادة والمجتمع في الفكر الاليزابيثي، فجميع هذه الأمور أنجزت في بداية عام ١٥٥٩، فالامور المذهبية قد تثير اهتمام رجال الدين، فالمواد التسعة والثلاثون لم تتبن حتى عام ١٥٦٣، ولم يقرها البرلمان حتى عام ١٥٧١.

لقد حُددت معالم المذهب الانجليكاني من قبل مجمع من اللاهوت البروتستانت في انجلترا عام ١٥٦٣ وذلك بمراجعة مواد العقيدة الاثنين والاربعين الصادرة عام ١٥٥٣ في عهد الملك ادوارد السادس، وتنظيمها وتعديلها في تسع وثلاثين مادة، وصيغت هذه المواد في بداية الامر باللغة اللاتينية تحت إشراف رئيس الاساقفة ماثيو باركر ومساعده كوكس Cox اسقف ايلي Ely، وصادق عليها البرلمان والمجلس الاكليروسي، ونشرت

بامر ملكي في العام نفسه، وقد اطلعت عليها الملكة اليزابيث، وترجمت الى الانجليزية مع تغييرات طفيفة على النسخة الاصلية، وفي عام ١٥٧١ صادق المجلس الاكليروسي على صيغتها النهائية، وهكذا حُددت معالم عقيدة الكنيسة الانجليكانية في انجلترا، واصبحت هذه المواد دستور ايمان واجباً على الجميع، إذ شكلت العقيدة الرسمية للكنيسة الانجليزية حتى يومنا هذا.

أكدت المادة الاولى من المواد التسعة والثلاثين على التثليث، اما المادة الرابعة فقد تناولت صلب المسيح وقيامه بين الاموات، وصعوده الى السماء فداء الخليقة وعودته في اليوم الآخر لمحاسبة الناس، ونصت المادة الخامسة على الايمان بالاقنوم الثالث (الروح القدس) المنبثق من الاب والابن.

وفي نيسان ١٥٥٩ أقرت الكنيسة قانون السيادة Act of Supremacy[١]، واتخذت الملكة لقب الحاكم الأعلى للكنيسة بدلاً من الرئيس الأعلى الذي كان قد أتخذه والدها الملك هنري الثامن، وأن العقوبات أصبحت اخف مما كانت عليه في عهد الاخير، فرفض قسم السيادة لهنري Oath of Supremacy يعد بمثابة الخيانة العظمى على خلاف قسم السيادة لإليزابيث الذي يلزم فقط الأشخاص الروحانيين أو ممن يشغلون مركزاً دنيوياً تحت التاج وأن عقوبة مخالفته ورفضه يعرض المرء لفقدان المركز الذي يشغله.

وفي العام نفسه جاءت حملة مماثلة من خلال إقرار قانون التوحيد the Act of Uniformity الذي فرض كتاب الصلاة البروتستانتي الثاني أو ما يعرف بكتاب الصلاة البروتستانتي لادوارد، مع إضافة بعض التعديلات المهمة عليه، وكان هناك شجب وتنديد في الابتهالات جاء فيها: "أسقف روما

---

(١) كان الغرض من قانون السيادة حرمان رجال الدين الكاثوليك من مناصبهم الدينية.

يمثل حكومة الطغيان، وجميع جرائمه مقيتة"، وهناك إرشادات أُعلن من خلالها تفنيد مسألة عودة المسيح في سر التناول –أحد الاسرار السبعة في الديانة المسيحية–.

اما كتاب الصلاة[1] لعام ١٥٥٩ فقد جمع المذهبين معاً بكل بساطة وذلك لإرضاء البروتستانت والكاثوليك، علماً ان جميع التعديلات التي أُدخلت على كتاب الصلاة الثاني لادوارد كانت مصممة لإرضاء الكاثوليك، والمفروضة من قبل الملكة إليزابيث.

وفي ظل هذه الظروف أُتخذ قراراً يقضي بإنشاء كنيسة وطنية في انجلترا، ومن اجل ذلك يجب أن يكون أعضاؤها من البروتستانت، وتذكر إليزابيث بأنه يجب أن يكون هناك الكثير من التضحيات العظيمة لخلق حالة من التوافق مع الكاثوليك، وكأي رجل دولة حكيم وقوي، لم تقد نفسها إلى تنازلات مُهينة، لكنها مضت بعيداً حيثما تريد أن تمضي، وفي الوقت نفسه مورست سياسة الإكراه على الكاثوليك، وذلك كافياً للتأثير على الغالبية العظمى، وكانت السنوات الاولى من عهد إليزابيث أكثر اعتدالاً من أي وقت مضى من عهدها، وطالما تمنت من أن لا يكون هناك أحد منتهكاً للحرمات وان يسير الجميع على طريق دعوتها، ووافقت على الحضور المتواضع إلى

---

(١) كتاب الصلاة: يُعد كتاب الصلاة من اهم اعمال توماس كرانمر Cranmer (١٤٨٩-١٥٥٦)، وهو من رواد الحركة البروتستانتية. اصدر كتابين للصلاة باللغة الانجليزية حلا محل كتب الصلاة الكاثوليكية اللاتينية القديمة. وقد نشر الكتاب الاول عام ١٥٤٩، والثاني عام ١٥٥٢. كان الكتاب يشمل الصلوات اليومية للصباح والمساء واساليب تطبيق الاسرار المقدسة.

الكنيسة دليلاً كافياً على التدين، ولكن الصعوبة الرئيسة تكمن في رجال الدين ممن التزامهم ضعيف وسلبي، لذا كان عليهم أن يؤدوا قسمهم في الكنيسة، وهذه من دون شك قسوة شديدة الآثر على ضمائرهم، وبذلك فإن ما يقارب الـ ١٠٠ رجل أصبحوا في عداد المطرودين، وأن ٩٤٠٠ ضحّوا برواتبهم بدلاً من تقديم الطاعة والولاء، وهناك أعداد أخرى غير معلنة، وهذا ما شكل صعوبة كبرى للأساقفة الجدد، وفي إيجاد رجال دين لكنائس الأبرشية، وليس لدينا شك بأن الغالبية العظمى من رجال الدين الأبرشيين من الكاثوليك قد تمسكوا بمصادر معيشتهم على أن يلتزموا بالتعليمات الجديدة التي اقرتها اليزابيث، ولا يشترط ان تكون التشريعات القائمة حول التغييرات المذهبية التي اقرها البرلمان متكافئة وعادلة، وهناك عددٌ معين من الكهنة المنبوذين واصلوا احتفالاتهم بالمناسك الدينية القديمة في بيوت الكاثوليك بشكل خاص وبكل جدية، وأنهم لم يعاقبوا إلا بعقوبة السجن، ومن دون شك كان هذا اضطهاداً لهم، ولكن طبقاً لأفكار ذلك الزمان كان هذا النوع من العقوبة معتدلاً جداً، وكان هذا بسبب حماسة البعض من الأساقفة، وإلى الفضوليين ممن يتلاعبون بالقانون ويبتعدون كل البعد عن أي عمل منظم تقره الحكومة.

الفصل الثالث

العلاقات الخارجية ١٥٥٩-١٥٦٣

إن أعظم الحروب نجاحاً في تاريخ انجلترا تلك التي شنت علـــى يـــد الملك ادوارد الثالث (١٣١٢-١٣٧٧) والملـــك هنـــري الخـــامس (١٣٨٦-١٤٢٢). وهذا يجعلنا لا نبالغ كثيراً في قوة انجلترا التي وصلت إليها في عهد أسرة تيودور.

إن عدد سكان مقاطعة ويلز Wales لم يصل إلى أربعة ملايين، علماً ان عدد السكان في فرنسا وصل أربعة أضعاف سكان ويلز تقريبـــاً، وكـــذلك هناك تفوق كبير في مجال الثروة، فقبل عهد الملك لـــويس الحـــادي عشـــر Louis XI (١٤٢٣-١٤٨٣) كانت فرنسا ضعيفة بسبب الخلافات الإقطاعية وهذا ما جعلها فريسة سهلة بالنسبة لجارتها الأكثر تنظيماً، لكن كان لتعـــاظم الإمبراطورية الإسبانية، ونتيجة لقيام الملوك الفرنسيين بأعمال مركزة ومكثفة لتنظيم شؤون بلادهم خاصة بعد نهاية القرن الخامس عشر، أن هبطت قـــوة انجلترا الى الدرجة الثانية، وهذا ما كانت عليه زمن الملك هنري الثامن الذي استطاع أن يعالج الأمور الى حد مقنع، أما في عهد الملـــك ادوارد والملكـــة ماري فقد هبطت المقدرة القتالية لانجلترا إلى أدنى مستوياتها، لاســـيما فـــي السنة الأخيرة من عهد ماري الذي مثل أسوء نقطة فـــي تـــاريخ الانجليـــز، وبالرغم من انهم في حالة حرب مع فرنسا، الا انه ليس هناك جيش بامكانـــه الصمود أمام مدفعية بضعة سفن فرنسية، فالديون الانجليزية قد اثقلت كاهـــل البلاد، وكان الإحباط العام ينخر في نفوس العامة والخاصة، فخسارة كاليـــه

Calais[1] –شمال فرنسا– كانت النتيجة الطبيعية لهذا الانهيار، فالفضـــائل لا تعني شيئاً أمام التحسن العظيم الذي شهده عصر الملكة إليزابيث ما لم نفهـــم إلى أي درجة هبطت البلاد عندما أرتقت هي العرش.

لم يكن بمقدور الملكة اليزابيث المحافظة على عرشها امام الانتهاكات الفرنسية من دون الاعتماد على اسبانيا في ذلك، وكان هذا في اول عهـــدها، وهذا من دون شك سيصب في مصلحة غريمتهـــا ملكـــة اســـكتلندا مـــاري ستيوارت، وكان هنري الثاني قد عُني بـــزواج الـــدوفين فرانســـيس الثـــاني Dauphin.F II (١٥٤٤-١٥٦٠)[2] من ماري ستيوارت، من أجل توحيـــد مملكتي انجلترا واسكتلندا لتكون في نهاية المطاف لصالح فرنسا، وبذلك يفقد فيليب الطريق البحري المؤدي إلى هولندا. هذا المخطط لا يمكن أن يكتب له النجاح خلال قرن ملأ بالزيجات السياسية الهائلة، من جانب آخر رأى الملك الاسباني فيليب الثاني ان تجنب الخطر الفرنسي يكمن في ان ترتمي الملكـــة إليزابيث وانجلترا بين يديه، ورغم التحذيرات استلم من سفيره فيريا Feria ما مفاده أن الملكة إليزابيث عبارة عن ملحدة زنديقة، لكن كـــان للملـــك فيليـــب شعور بالثقة في ان الملكة اليزابيث سوف لن تجازف بتغيير المذهب لأن ذلك سيكون بمثابة اهانة له، وكان هناك سؤال يدور في خلده وهو هل ستقبل بـــه

---

(١) استولى دوق جيز الفرنسي على ميناء كاليه عام ١٥٥٨ وبذلك فقدت انجلتـــرا نقطـــة الارتكاز التي ظلت محتفظة بها طوال قرنين كاملين.

(٢) فرانسيس الثاني: ابن الملك الفرنسي هنري الثاني (١٥١٩-١٥٥٩). توفي في كانون الاول ١٥٦٠ وكان قد حكم فرنسا بعد موت ابيه لمدة ١٨ شهراً. تزوج الملكة ماري ملكة اسكتلندا عام ١٥٥٨.

زوجاً إذا ما رغب هو بذلك، أو هل سيهب ذلك لأحد أصدقائه ممن يثق بهم؟. وإذا ما رفضت الاثنين معاً بشكل غير متعمد عندها سيبعد هذه الفكرة عن خاطره، فإليزابيث منذ البداية قررت ان تلعب الأوراق التي بيدها بشكل أكثر فائدة من افتراضات فيليب، فمن دون أدنى شك كانت انجلترا بحاجة الى حماية اسبانيا، ولكن هل يمكن لفيليب أن يفسر سعيه هذا؟. برأيها الجريء أوضحت أن مصالحه الخاصة من يحركه إزاء ذلك، ومن أجل ذلك فإن الملكة إليزابيث ستحل المذهب البروتستانتي محل المذهب الكاثوليكي بغض النظر عن رغباته.

كان الملك فيليب قد عرض الزواج عليها بشكل رسمي في كانون الثاني عام ١٥٥٩ عن طريق سفيره فيريا، وتكلم فيليب كما لو أنه متأكد بشكل قاطع من أن الملكة إليزابيث ترغب لهذا العرض -اي الزواج-، وبعد ان رُفض طلبه، قرر التخلي عنه شريطة أن تدعم إليزابيث المذهب الكاثوليكي في بلادها، ويجب أن لا تتوقع أن يمكث طويلاً وهو بعيدٌ عنها، كونه سيزور انجلترا بين الفينة والأخرى، وبحماقة سمح فيريا بأن تطلع إليزابيث على هذه الأمور التي أضحكتها كثيراً وأزعجتها في الوقت نفسه، فأعمارهم كانت غير متناسبة أبداً على الاقل في فكر الملكة اليزابيث، فالملك فيليب يبلغ من العمر ٣٢ عاماً، أما إليزابيث فكان عمرها ٢٥ عاماً، وإنها كانت شديدة التحسس من الرجال، مثلما كان والدها شديد التحسس من النساء، لذا لا يمكن أن تربط نفسها بهكذا زيجات سياسية لا اعتبار لها في قرارة نفسها، وبعد مناوشات كلامية قالت: "بأنها لا ترغب بالزواج، وليست تخشى فرنسا".

قبل وفاة الملكة ماري جرت محادثات سلام بين فرنسا وإسبانيا وانجلترا التي كانت قد بدأتها، فكاليه كان تقريباً المسألة الصعبة في هذه المحادثات، وأن المواطنين الانجليز لا يدركون تماماً كم ان امتلاكهم لحصن ضمن الحدود الطبيعية للبلاد الأخرى يمكن أن يكون مزعجاً الى حد بعيد، وقد شاركت إليزابيث هذا الشعور الوطني، وطالبت فيليب بإعادة كاليه، وأجابها بأنه سيفعل ذلك إذا ما منحته مايريد حتى أنه كان قد زار الجالية الفرنسية في كاليه التي كان وجودها مزعجاً بالنسبة للهولنديين إلى حد ما.

كانت الملكة إليزابيث ترغب بمحاربة اسكتلندا بطريقة غير مباشرة، وأن المساعدة التي سيقدمها فيليب ستكون غير مجدية، وفي آذار ١٥٥٩ اتضح بأن هناك محادثات سلام ستقوم بين القوى الثلاث في كاتو Cateau[١] بالقرب من كامبراي Cambray –شمال فرنسا–، والتي كان أحد بنود هذا السلام أن تعاد كاليه الى انجلترا خلال ثمان سنوات، وبذلك أفصحت إليزابيث عن شعورها الحسن إزاء ذلك، وذلك أن مواصلة القتال يعني زيادة الديون والاعباء، والاسوء من ذلك كله سيكون هناك اعتماد كامل على الملك فيليب، وكان من الممكن استرجاع كاليه بإضعاف فرنسا بشكل تدريجي، والتي يمكن أن تشكل كارثة على ميزان القوى الذي طالما عملت فيه إليزابيث مستقلة عن جيرانها العظام، وقد كان هناك ميثاق سري داخل سلام كاتو– كامبرسيس Cambresis ما بين هنري الثاني وفيليب الثاني مفاده أن يقوم كل منهما بسحق الهرطقة في بلاده وان لا يُسمح بانتشارها في البلدان المجاورة،

---

(١) وقع الصلح بين اسبانيا والبابوية من خلال سلام كاتو–كامبرسيس.

فبارتقاء إليزابيث العرش وما تبع ذلك من إصلاح ديني في اسكتلندا، انتشرت البروتستانتية بسرعة كبيرة في أنحاء واسعة من أوربا.

إن الحروب الطويلة لشارل الخامس ملك اسبانيا مع فرنسا مكنت البروتستانتية من الانتشار، أما الملك الفرنسي فرانسوا الأول فكان في مشاحنات مستمرة مع الأمراء البروتستانت داخل الإمبراطورية، التي طالما كان شارل يلاطفهم ويخطب ودهم، أما في بريطانيا والدول الاسكندنافية وشمال ألمانيا والبلاتينات Palatinate(1) وسوابيا Swabia فقد كانت البروتستانتية منتصرة، وكانت منتشرة إلى حد واسع في كل من بولندا وهنغاريا وهولندا وفرنسا، وهذا النمو السريع للبروتستانتية أوشك على أن يكون نمواً مقيداً، ففي بعض هذه البلدان قرر المذهب البروتستانتي الجديد الاستسلام، وفي البعض الآخر اختفى بصورة نهائية، فالرجال الذين بإمكانهم ان يتذكروا المواعظ الأولى لمارتن لوثر M.Luther (١٤٨٣-١٥٤٦)(٢) لم يشهدوا الازدهار البروتستانتي، فالنزعة الثورية المتجذرة في البروتستانتية أقلقت الملوك كثيرا؛ وبدرجة كبيرة كان يحدث ذلك داخل الكنيسة الكاثوليكية، فكان الملوك يمقتون انتقال السلطة الروحية إلى البابوات.

---

(١) البلاتينات: اقليمان المانيان، وهما البلاتينات الرينية (السفلى) والبلاتينات العليا.

(٢) لوثر: ولد في آيسلبن في سكسونيا عام ١٤٨٣. يُعد من اعظم المصلحين في اوربا خلال القرن السادس عشر. عاش لوثر فقيراً منذ نعومة اظافره، إذ يذكر ان امه ضربته وهو صغير من اجل بندقة حتى سال دمه. وقف ضد الكنيسة الكاثوليكية. توفي في ١٨ شباط عام ١٥٤٦، ودفن في كنيسة القصر في مدينة فتنبرغ في ٢٢ من الشهر نفسه.

وبالرغم من البنود السرية التي وقعت في سلام كاتو- كامبرسيس إلا أنه قد رفع عن كاهل انجلترا الكثير من الضغوطات والأخطار التي كانت تهددها، فلا قوات فرنسية ولا إسبانية استطاعت أن تدنس أرض انجلترا، ولبرهة من الزمن قد تكسب الاخيرة العديد من المزايا، التي من خلالها قد تضع البلاد في حالة من الدفاع وإعادة النظر في العديد من الاستعدادات القادمة، لكن هذا لا يعني ان الخطر الفرنسي قد زال أو انه سيزول، وهذا ما اعترفت به الملكة اليزابيث، فان الدوفين كان قد سمى نفسه ملكاً على انجلترا واسكتلندا وايرلندا. فهو وماري ستيوارت انتحلا السلطة الانجليزية، وإذا ما فكر الجيش الفرنسي بغزو انجلترا فان اسكتلندا ستكون ممراً سهلاً له، لاسيما وان غالبية الكاثوليك الانجليز ممن وافقوا على ارتقاء إليزابيث العرش انقلبوا ضدها لأنها سعت وراء تثبيت المذهب البروتستانتي، لكن إذا ما ذهبت ماري إلى اسكتلندا برفقة قوة فرنسية فان تمرداً سيندلع فوراً في المقاطعات الشمالية مما قد يؤدي ذلك إلى اعتقالها، ومما لا شك فيه ان قيام فيليب بانزال قواته في الجنوب لطرد الدوفين فان العلاج سيكون أسوء من المرض الذي ربما سيجرؤ على خلع الملكة إليزابيث، لذا كانت تفكر على الدوام بالاستقلال التام عن جيرانها، وبتحطيم التأثير الفرنسي على اسكتلندا.

وقد رأى عقلاء اسكتلندا ان عملية توحيد بلادهم مع انجلترا لا تتم إلا عن طريق الزواج، لكن كان لسياسة الحامي سومرست التخويفية والخاطئة ان قادت الاسكتلنديين إلى تجديد تحالفهم القديم مع فرنسا، وان ماري كانت تسعى إلى زيادة التأثير الفرنسي ولتأسيس جيش صغير دائمي لأجل تقوية سلطانها، ولخدمة مخططات هنري الثاني ضد انجلترا.

كانت مذاهب الإصلاح الديني تنتشر بين عامة الشعب، وفي عام ١٥٥٧ كان البعض من النبلاء تواقاً لامتلاك ثروة الكنيسة، فوضعوا أنفسهم على رأس الحركة البروتستانتية. وعرفوا باللوردات الكنسيين Lord of the Congregation[1].

إن الإصلاح الديني في اسكتلندا انبثق من عامة الناس على خلاف انجلترا الذي بزغ من خاصة الحكومة، لذا فان تغيير المذهب في انجلترا كان الحدث الرئيس الذي يدور في الاذهان. إن ما شجع البروتستانت في ثورتهم هو ارتقاء إليزابيث العرش وإعلان موافقتها على ذلك، ففي بيرث Perth هجموا على أملاك الكنائس واحرقوا الأديرة، ومن ناحية أخرى، فبعد سلام كاتو كامبرسيس قام هنري الثاني الوصي على العرش الفرنسي بالتنكيل بالبروتستانتية تماشياً مع الاتفاقية التي عقدت مع فيليب، وعليه ان يستعد لغزو فرنسي-اسكتلندي لأراضي انجلترا، وهذا ما دفع البروتستانتيين إلى تمرد كبير في حزيران عام ١٥٥٩. وقد احتل اللوردات الكنسيين بيرث وسترلينج Stirling وادنبره Edinbrugh، ودمرت الأديرة في جميع إنحاء الأراضي المنخفضة، وهاجم الرهبان الكنائس ومزقوا الصور التي فيها، أما الكنسية الكاثوليكية في اسكتلندا فكانت قد دمرت على يد أبناء الشعب ممن كانوا أكثر جاهزية لهذا الأمر من اولئك الذين في انجلترا.

---

(١) اللوردات الكنسيين: تحالف اسكتلندي-انجليزي، ظهر في منتصف القرن السادس عشر لاجل اصلاح الكنيسة وفق المبادئ البروتستانتية. كانوا من المعارضين لزواج الملكة ماري من الدوفين فرانسيس الثاني.

وبدا لو أن الوصي على العرش الاسكتلندي ومجموعة صغيرة من القوات المنظمة التي كانت تحت إمرة دي اوسيل d'Oysel بالتراجع والتقهقر، لكن الأخير تحصن في ليث Leith، وبدا انه قادر على قلب الموازين لصالحه. وكان من المتوقع وصول إمدادات فرنسية، مما دفع النبلاء الاسكتلنديين إلى طلب يد العون من الملكة إليزابيث لسحق التعزيزات والإمدادات الفرنسية، وأشاروا إلى ضرورة التعجيل بالإمدادات الانجليزية.

وهكذا وجدت الملكة إليزابيث نفسها أمام الصعوبات الاسكتلندية، التي كثيراً ما سببت لها القلق المضني طيلة فترة حكمها، والمشكلة تكمن في انه رغم التفاوت في الامور البسيطة الا انه كان هناك تفاوتات جوهرية على الدوام، فهناك كانت فئة بروتستانتية تبحث عن دعم انجليزي، وأخرى كاثوليكية تنتظر الدعم الفرنسي، وهناك ثلاثة من زعماء البروتستانت اهتموا فعلاً بحركة الإصلاح الديني وهم كل من جيمس ستيوارت ايرل موراي Moray (١٥٣١-١٥٧٠) وجلينكيرن Glencairn وكيركالدي Kirkaldy، إما البقية فقد كان جل همهم الحصول على أراضي كنسية ومتابعة العداءات الأسرية القديمة، وكانوا يتطلعون إلى خزائن وأموال الملكة إليزابيث، التي كانت تمنح خدمها الصغار بشكل متواصل الكثير من أموالها إلى جانب ذلك كانت الأمة الاسكتلندية حساسة إلى درجة كبيرة في وطنيتها، لذا فإنها كانت تحذر من أي تدخل خارجي ومطلقاً لم تكن لتسمح بان تطأ تربتها اقدام الجنود الاجانب، وانها ستنظر إليه بعين الشر، ولا شيء يمكن أن يتوقعه العدو من الامة الاسكتلندية غير ذلك.

كان اللوردات الكنسيين قد اعتمدوا على دعم إليزابيث لهم، واقترحوا عليها بان تتزوج جيمس هــاملتن (١٥٣٢-١٦٠٩)[١] ايــرل آران Earl of Arran ويجب عليهما أن يكونا ملكين على بريطانيا العظمــى. وآران هــو الابن الأكبر لجيمس هاملتن (١٥١٦ -١٥٧٥) دوق تشاتيلهيرولت Duke of Chatelherault، وكانت هناك أسباب عديدة تجعل من إليزابيث ترفض فكرة الزواج هذه، فقد كان آران يميل إلى فرنسا مما قد يدفع الاخيرة صوب التدخل في الشؤون الاسكتلندية، وهذا سيكون كارثياً الى حــد بعيــد، وانـــه ســـيدفع الكاثوليك الانجليز إلى القنوط، عندما تموت آمالهم في ارتقاء ماري ستيوارت العرش الانجليزي، وان هذا الزواج البروتستانتي سيثير حفيظة فيليب كثيــراً وربما سيدفعه ذلك إلى غزوا انجلترا لإحباط المحاولات الفرنسية، أما مجلس إليزابيث الخاص وحتى بيكون فقد قدما النصح لها بضرورة تــرك اســكتلندا وشأنها، وان تتزوج الارشيدوق شارل النمساوي وبذلك تكسب ود إسبانيا من اجل إقامة تحالف دفاعي مع انجلترا. كانت هذه اعتبارات وقــورة وجديـــة، فإليزابيث كانت تتمتع بقدر عظيم عند مستشاريها، وانها امتنعت عن عمل أي شيء من شأنه ان يضعف القضية المشتركة للملوك الانجليز، وشعرت مــن خلال غريزتها تلك بان البروتستانت يجلون القواعد الدينية-الملكية، ولم تشجع في يوم ما بان يصبحوا اضعف من الكاثوليك، وانها لم تكن ترغــب فــي ان تشجع الميول لما يعرف بانفجار جون نوكس Knox (١٥٠٥-١٥٧٢) الأول

---

(١) جيمس هاملتن: نبيل اسكتلندي، قاتل ضد القوات الفرنسية خــلال عمليــة الاصـــلاح الاسكتلندي. والده جيمس هاملتن وامه مارغريت دوغلاس. تُوفي عام ١٦٠٩.

ضد ألاسلوب التهكمي للمرأة الموجه صوب ماري، أو ما يعرف بنفخة البوق الاولى ضد هول النساء، وان الواعظ المتغطرس لا يمكنه ان يصلح الأمـــور بمجرد الكتابة إلى الملكة إليزابيث على اعتبار ان حالتها اســتثنائية "تنـــاقض الطبيعة" "مسامحة من خلال الله لراحة الكنيسة"، لكن إذا ما أسندت لقبها كملكة على القانون فان ستكون من دون رحمة.

فليس غريباً ان تقدم إليزابيث على سياسة الحزم والشدة، فـــاللوردات الكنسيين أكدوا بان انجلترا سوف لن تعر أي انتباه عندما سيسحقون بالسلاح الفرنسي، وان القليل من المال سيرسل إليهم من الملكة اليزابيـــث، وبالنســـبة لأمر زواجها من آران، فلم تُعط أي جواب نهائي، وما زال النظر فيه جارياً، فوجد ليكون إنساناً أضعف من والده، وأحياناً كان يرى بانه لـــيس هنـــاك أي رأي في رأسه، لذا فانه كان بالنسبة إلى إليزابيث سبيلاً للتنصـــل مـــن هـــذا الزواج.

وفي غضون ذلك وصل ما يقارب ٢٠٠٠ مقاتل فرنسي، وطالـــب اللوردات بضرورة التعجيل بالمساعدات الانجليزية، لكن إليزابيـــث أدركـــت وبشكل كبير بانهم يستطيعون ان يدافعوا عن أنفسهم إذا ما هم رغبوا في ذلك، وكانت ترغب في مساعدتهم مالياً كون ذلك امراً ضرورياً بالنسبة لهم، لكنها لم تشأ تقديم العون العسكري، فالمقاتلون كثر في الأراضي الاســـكتلندية، وان إرسال القوات الانجليزية إلى اسكتلندا لكي تناضل من اجلها ســـوف تجنـــي البغض والحقد بدلاً من تقديم الشكر والثناء لها، وإذا كانـــت أعـــداد الجـــيش الفرنسي هائلة، فإنها –أي إليزابيث– ستهاجم بأسطولها ان تطلب الامر ذلك، وإذا ما نزلت القوات الفرنسية على الأراضي الاســـكتلندية عنـــدها سترســـل

اليزابيث الجيش الانجليزي، لكن إذا كان اللوردات الكنسيون لا يقدرون على طرد حفنة من الفرنسيين في ليث، فهذا يدفع الانجليز صوب التفكير بانهم إما جبناء أو خونة، وفي النهاية قررت الملكة إليزابيث ان تترك التدخل في شؤون اسكتلندا، واكتفت بالتحالف مع الملك فيليب، ولأجل الابقاء على حظوظها في هذا المضمار، استأنفت محادثات الزواج النمساوي، لإشعار الاسكتلنديين بانها ما زالت المسيطرة. شكّل هذا الأمر إغراءً لشارل النمساوي وفكر بالذهاب إلى انجلترا، وهذا لا يعني ابداً ان اليزابيث راحت تفكر بالزواج بشكل جدي مدركة بان المسائل السياسية هي من تجعل فكرة الزواج تتنابها بين الفينة والأخرى، لكن لماذا يزور شارل انجلترا وإليزابيث لا تفكر بالزواج منه بشكل جدي، ومطلقاً لم تعجب به رجلاً، وقد سمعت اليزابيث الكثير عنه بانه رجل غير حكيم، ورأسه كبير أكبر من الذي يمتلكه فرانسيس رُسل Russell (١٥٢٧-١٥٨٥) ايرل بيدفورد The Earl of Bedford.

وجد اللوردات الاسكتلنديون في الملكة إليزابيث التصميم الكافي لاستعادة مالها بكل ما أوتيت من قوة، فعملوا على إعلان النضال وقادوه من ادنبره، وحاصروا الحامية الفرنسية في ليث، لكن هذا العمل سرعان ما انتهى، وفي غضون ثلاثة أسابيع تمكنت الحامية الفرنسية من إعادة إدنبره، وتألفت في ليث الحامية الفرنسية من ١٥٠٠٠ مقاتل، وذلك ما صعب الموقف على الملكة إليزابيث، والذي يمكن ان يسحق الكنسيين هناك، وبعد مضي سنوات من التمرد بزعامة ايرلات الشمال برزت ماري في وسط الكاثوليك، وأثناء هذه الصعوبات، استشير المفوضون الأسبان المتواجدون في هولندا، حول امكانية الملكة إليزابيث في طرد الحامية من ليث، واحتمالية وقوع حرب

مع فرنسا، ومدى اعتمادها على فيليب في حالة حدوث ذلك؟. فكانت الإجابة بان سيدهم لديه اهتمام خاص بانجلترا وانه لن يسمح لملكة اسكتلندا أو فرنسا بالتدخل والتطلع صوب العرش الانجليزي، ومن دون شك ان معارضته هذه ستكون على طريقته الخاصة، فإذا ما دخل الجيش الفرنسي انجلترا من الشمال، فان جيشاً إسبانياً سينزل في الساحل الجنوبي، وهذا ما دفع إليزابيث للجوء إلى مجلسها الخاص بهذا الخصوص، لكنها لم تجد من يشجعها على ذلك، ونصحوها بان تأخذ نصيحة فيليب، وإعادة النظر في بعض خطواتها فيما يتعلق بالمسائل المذهبية لأجل كسب وده.

وجهت إليزابيث نداءً شخصياً إلى توماس هاورد (١٥٣٦-١٥٧٢) دوق نورفولك The Duke of Norfolk لأجل استلام قيادة قوات الحدود، لكنه لم يشأ ان يكون أداة سياسية لذلك رفض المهمة الموكلة إليه، وليس من الغريب اذا ما انتاب إليزابيث التردد لبرهة من الزمن، إذ ان البعض من أعضاء مجلسها لم يكونوا بالمستوى المطلوب للتأثير عليها، وان معظمهم كانوا من الموالين لها بشدة.

هناك من يقول ان السياسة تتطلب الحذر الشديد، وهذا ما كانت تمتاز به الملكة اليزابيث، مما يفسر انكماشها بعض الشيء من بعض الأحداث التي يمكن ان تشكل خطراً على مستقبل بلادها. ومطلقاً فانها أعطتنا برهانا عظيماً على فهمها واهتمامها الملحوظ بالخطوط الرئيسة للسياسة عندما صممت على تجاوز أراء العديد من المستشارين الحكماء، وقررت طرد الحامية الفرنسية من المملكة الشمالية.

لم تكن انجلترا عاجزة تماماً كما يعتقد الأسبان، ففي عام واحد من الإدارة المحنكة والحذرة عملت الشيء الكثير والعجيب، وكان هناك اقتصاد قوي وإنفاق رشيد بسبب الادارة الحكيمة للملكة اليزابيث التي جمعت الكثير من الاموال، مع ذلك كانت هناك ديون كبيرة موروثة من العهود الثلاثة الماضية، لكن مقرضي المال من انتويرب Antwerp كانوا راغبين في تقديم مبالغ كبيرة للملكة، وجهزت الأساطيل وشحنت السفن بالأسلحة الحديثة، وأخذت القوات الانجليزية بالتجمع في السواحل الجنوبية، أما حاميات الحدود فكانت تعيد بناء نفسها بحذر شديد لتسهيل مهمة القوات الداخلة في اللحظات الحرجة، وما اغضب الملكة اليزابيث هو انه كان بمقدور القوة الصغيرة من الكنسيين الاسكتلنديين ان ينهوا الحرب من دون اللجوء إلى قوات انجليزية.

ادرك اصحاب المذهب البروتستانتي في اسكتلندا ان العمل سيكون اكثر حزماً، وانهم سيدفعون ثمن ذلك الكثير، فالعديد من اللوردات كانوا أنانيين وأشبه بالخدم باستثناء عدد قليل من اللوردات ممن اخذوا الأمور على محمل الجد، أما بالنسبة للطبقة الدنيا فكانت كالفنيتهم إلى حد ما حديثة العهد، ولحد هذه اللحظة لم تفجر روح الاستقلال العنيفة في نفوسهم التي تساوي أكثر من قوة النبلاء والجنتري Gentry –احد القاب النبلاء–، لكن إذا ما ضعف الحزب المؤيد لانجلترا فانه سيكون هناك بعض من خيبة الأمل، لذا قررت إليزابيث الاعتماد على نفسها لتجنب الاخطار، وبقليل من التردد المشروع رأت بان تبدأ عملها وحملتها، وقد تكلم الكثير حول وطنية أعضاء مجلس إليزابيث الذين وقفوا بقوة الى جانبها عندما اتخذت قراراً يقضي بطرد الفرنسيين، فقد قبِل نورفولك بمهمة قيادة جيش الحدود بنفسه، وتصرف بوفاء

ويقظة مع هذه القضية، إذ لم يكن مميزاً بقدرة ما عن باقي الرجال، فالقتـال الفعلي كان بيد القائد اللورد جري Grey صاحب التجربة في هذا المضمار، مع ذلك لم يكن بارعاً بما فيه الكفاية، الا انها كافية لتلقين الخونة درساً قاسياً ممن يتناقلون الاخبار حول ضعف عرش الملكة اليزابيث.

وفي شباط ١٥٦٠ عقدت اتفاقية بين الملكـة الانجليزيـة واللـوردات الكنسيين بعناية فائقة لتفادي الانتهاكات التي من الممكن ان تقع، وكان أمـام القوات الانجليزية مهمتان عند دخولها الأراضي الاسكتلندية الأولى: مساعدة دوق تشاتيلهيرولت ليكون وريثاً للعرش الاسكتلندي. الثانية: طرد الاحـتلال الأجنبي المتمثل بفرنسا، فلم يبن الانجليز القلاع، ولم يكن هنـاك أيـة نيـة للإضرار بسلطة ماري ستيوارت القانونية، ويوضح سيسل انه كان يأمل فـي إضافة شيء حول "صدق الدين المسيحي"، فقد ترغم الظروف الملكة اليزابيث لتكون حامية للمذهب البروتستانتي خارج حدود مملكتها، ومطلقاً لم ترغب في ان تكون هذا الشخص في أي وقت من الأوقات.

وفي ٢٨ آذار من العام نفسه عبر اللورد جـري الحـدود الاسـكتلندية متجها إلى ليث، وعمل على محاصرتها، ولم يقدم اللوردات الكنسيين الـدعم الكافي، وهذا ما جعلهم يتكبدون خسائر جسيمة، وان مواطني إدنبره لم يعملوا على إدخال الجرحى إلى منازلهم، وعندما بدأت المؤن بالتناقص في المدينـة، وصل المبعوث الفرنسي مع قوة لمعالجة الوضع بدلاً من ملكة اسكتلندا التـي توفيت والدتها، أما الوصي على العرش فقد مات أيضاً أثناء الحصار، وفـي ظل القسوة التي أبداها الجيش الانجليزي، وقعـت معاهـدة أنهـت الوجـود

الفرنسي في اسكتلندا عرفت بمعاهدة إدنبره The Treaty of Edinburgh[1].

كانت المقرات الرسمية تدار من قبل المواطنين الاسكتلنديين، وكانت الحكومة أثناء غياب ماري ستيوارت قد عُهد امرها إلى مجلس مؤلف من اثني عشر نبيلاً، سبعة رشحوا من جانبها، وخمسة رشحوا من قبل المقاطعات، وفي تموز ١٥٦٠ اعترف المجلس بالملكة إليزابيث سيدة على انجلترا وايرلندا.

تعد معاهدة ادنبره أكثر الانجازات نجاحاً في عهد إليزابيث، وهذا بفضل مستشاريها الحكماء وعزيمتها الجريئة، ومطلقاً لم يثقوا في ماري ستيوارت التي بدورها كانت تمنح إليزابيث الحجة الكافية لتعاملها بوصفه عدواً، وكانت انجلترا في مأمن كبير من خطر الجيش الفرنسي الذي كان مرابطاً في اسكتلندا، ولم يقر أي شيء فيما يتعلق بالدين المسيحي في بنود معاهدة إدنبره، لكن هذا الأمر كان مرادفاً لتأكيد التغيير المذهبي الكبير الذي طرأ مؤخراً؛ مما شكل الضمان الأمني لانجلترا.

كانت النتائج المعنوية لهذا النجاح عظيمة إلى حد بعيد، فقد ساعد كثيراً في دعم العرش الإليزابيثي، في حين كان المتنفذون يسعون إلى عزلها،

---

(١) معاهدة ادنبره: وتُعرف ايضاً بمعاهدة ليث. وقعّت في ٥ تموز عام ١٥٦٠ بين مفوضي الملكة اليزابيث بموافقة اللوردات الاسكتلنديين، ومفوضي الملك الفرنسي فرانسيس الثاني لاجل انهاء حصار ليث بشكل رسمي الذي كانت تفرضه القوات الفرنسية، واستبدال تحالف آولد Auld المعقود بين فرنسا واسكتلندا بمعاهدة جديدة بين انجلترا واسكتلندا لضمان السلام مع فرنسا من خلال معاهدة كاتو-كامبرسيس.

على اعتبارات انها ستكون مجرد امرأة تقبع تحت وصاية فيليب الذي بدوره سيدير سياساتها بنفسه. ان أساس هذه الحقيقة واهياً كونها وقعت تحت تـأثير التخمين الوهمي، وهذا ما دفع إلى المبالغة في إرسال التقارير إلى فيليب عن طريق سفيره دي كوادرا، يخبره عن تلك التصورات العارية من الصحة.

برهنت جميع هذه التصورات فشلها، فإليزابيث استطاعت ان تحمي عرشها بقوتها وبطريقتها الخاصة، وانها تجاهلـت نصـيحة فيليـب بشـكل دبلوماسي، أوبالأحرى انها تجاهلت أوامره، فهي وضعت في قيادة جيوشـها الرجل الذي يطيع أوامرها، وينجز عملها على أتم وجه، فقد وقفـت انجلتـرا مرة أخرى أمام أوربا بوصفها قوة مستقلة قادرة على الاعتناء بنفسها، وكانت تسعف وتساعد أصدقاءها، وتضايق أعداءها، وفي الحقيقة وبقدر تعلق الأمر بشخصية إليزابيث، فان سياستها الاسكتلندية لم تكن علـى الـدوام منجـزة ومحسومة تماماً لكنها أضحت مدروسة ومحكمة كما كانت ترغب ان تكون.

كانت الملكة إليزابيث بإدراكها العقلاني للسياسات الأوربية، ولمصالح مملكتها الخاصة، ارفع شأناً من مستشاريها، فالبراعة والمـؤهلات النظريـة والعملية نادراً ما تجمع في شخص واحد بشكل متسـاو حتـى ان الرجـال يتقدمون لخطبتها في كل ساعة وفي كل نهار من اليوم.

ان القرار الفوري يجب اتخاذه حتى وان لم يكن الأفضـل، المهـم ان يكون الأقوى والأكثر انسجاماً، ولا غنى عنه لأجل النجاح المتواصل، الـذي يعوض كثيراً في الممارسة العملية عقدة النقص في التصور والتصميم.

ان تردد وتأرجح الملكة إليزابيث كانا نتيجة منطقية لحالتها ووضـعها كامرأة ذات رؤية حسنة للأمور، والتي نادت بإدارة فيها الكثير من الحـزم،

واذا ما اديرت من خلال العديد من الأمراء فان نشاطها وثباتهــا سيضــعف تدريجياً اذا ما قورنت بالادارة الحازمة للملكة اليزابيث حتى ان سيسل وبعض رجالات الدولة المحنكين ممن كانوا في خدمة الملكة إليزابيث، لم يحبــذوا ان يأخذوا المبادرات السياسية من يد سيدتهم، وان من الحكمة ان يجعلوا لأنفسهم طريقاً للاختيار، لكنهم أحرجوا في محاولاتهم المخلصة في تسيير القيادة امام حنكة ملكتهم.

كانت الغالبية العظمى للأمة الانجليزية، باستثناء بعض مناطق الجنوب والمنطقة الجنوبية الغربية من الكاثوليك، وكان الهيجونت أقوياء بين الطبقــة الارستقراطية والبرجوازية العليا، وهم شجعان ومتعصبون اقوياء كالكالفنيين الذين دمروا الأديرة، ومزقوا الصور التي في الكنــائس، وإخمــاد الهيئــات الكنسية هناك، فهم أقوياء بما فيه الكفاية لتنفيذ مخططاتهم من ناحية أخــرى راحت الهيئات تقدم التماسات إلى فيليب لاجل ان يكونوا تحت رعايته متناسين الأمجاد التي حققوها على الاسبان، وراحوا يحضوه لاجل وضعه علــى رأس حملة صليبية ضد جميع الهراطقة في جميع البلدان، وقد استجاب إلــى هــذه الدعوات عندما دعته كاثرين Catherine رسمياً لذلك لمقاومة الهرطقة فــي فرانكو Franco، وهناك وقع الصدام بين الجانبين في فاسي Vassy -تقع في اقليم شمبانيا في فرنسا- وذبح الكثير من الهيجونت الذين كــانوا مجتمعــين للصلاة في أحد مخازن الزراعة، وقد جلبت أول تلك الحروب الدينية القفــر لفرنسا بالنسبة لثلاثين سنة قادمة، وسعى كوندي Conde الى دعوة إليزابيث والأمراء الألمان ممن ينتمون إلى المــذهب البروتســتانتي لاجــل دعمــه، كضرورة لمنع العمليات العسكرية الساعية لسحق الهيجونت، وفي الوقت نفسه

كان هذا الدعم شرعياً أمام القسوة المفرطة في القتل والتنكيل، ولكن لسوء حظه لا إليزابيث ولا مجلسها الخاص نسيا كاليه، فعمدوا الى ابتزاز كوندي، إذ وعدهم بإعادة كاليه إذا ما اخضعوا هافر Haver، فامتلاك كاليه يشكل قيمة عسكرية جيدة الى حد ما ضد فرنسا، عندها ستتمكن انجلترا من قطع الطريق البحري بين هولندا واسبانيا.

ان احتلال هافر في تشرين الأول ١٥٦٢ منح قضية الهيجونت القليل من المساعدة، وجلب اقصى درجات الكراهية، وان أية ترضية مجوفة وفارغة كانت ستصلح ما بين الفئات المنافسة في آذار ١٥٦٣، وكانت إليزابيث قد استدعيت لأجل إخلاء هافر. واحتج الهيجونت بصوت عالٍ وفكروا بالابتعاد عنها، لكن إليزابيث رفضت ذلك وأجابت بانها: "قدمت إلى امتلاك هادئ لهافر من دون قوة سلاح أو أية وسائل أخرى غير قانونية، وان لديها سبباً وجيهاً للاحتفاظ بها". ان رواية السلام بين الأمتين يمكن ان تكون مصانة. وفي غضون ذلك كان يمكن ان تكون الحرب مفتوحة، وان مجلس إليزابيث الخاص وجميع أبناءأمتها متحمسون أكثر منها، وكانت حامية هافر وقائدها وارويك Warwick متلهفين للقتال فهم: "سيجعلون الفرنسيين يبكون كثيراً وسوف تشد أقدامهم باحجار المدينة"، فجميع السكان أضحوا مطرودين، وبدا تأثير الحصار يفعل فعله، وقد أصيب الجنود بمرض التيفوئيد Typhus مما اثر سلباً على دفاعاتهم في تموز ١٥٦٣ وجاء السلام سريعاً في نيسان عام ١٥٦٤. لم تكرر إليزابيث خطأها، واننا نجدها حتى نهاية عهدها تحاول ان تقيم علاقات الصداقة مع كل حاكم فرنسي يصل الى العرش.

الفصل الرابع

إليزابيث وماري ستيوارت ١٥٥٩-١٥٦٨

كان لدى إليزابيث تصوراً في انه حالما سترتقي عرش انجلترا فانها ستتزوج بسرعة، فموتها من دون ان تترك وريثاً سيجعل هناك قضية للادعاء بالعرش من جانب ماري ستيوارت أو من جانب كاثرين جري (١٥٤٠-١٥٦٨)، والقاعدة تقول بوجوب تزويج المرأة الباكرة، ولو خلال هذه الفترة القصيرة، وانه من الضروري جداً العمل على تزويجها، أما أخت إليزابيث (ماري) فلم تكن تفكر بالزواج أيضاً، ولكن بارتقائها للعرش وافقت على ان تتزوج، ولو قُدّر لنبلاء انجلترا بالتنبؤ من ان إليزابيث سوف تتملص من هذا الالتزام، لما سمحوا لها باعتلاء العرش، فزواجها يمكن ان يكون مسألة ضرورية لأجل تتويجها.

ووفقاً لذلك اجتمع مجلس العموم بعد شهر تقريباً من ارتقاء اليزابيث العرش لاجل ان يُختار لها زوجاً من دون مماطلة أو تأخير، وأعلنت انها لا ترغب تماماً بهذا الأمر وتغيير وضعها، وزعمت ان حياءها الحقيقي هو وراء رفضها لفكرة الزواج.

كان هناك العديد ممن يرغبون بالزواج من الملكة اليزابيث سواء من الانجليز انفسهم أو من غيرهم، فالارشيدوق شارل ابن الإمبراطور وابن عم فيليب سيكون في موضع ترحيب من جانب الكاثوليك، ومن جانب جميع البروتستانت أمثال سيسل، اما غالبية البروتستانت فكانوا حريصين ومتحمسين

لآران، لأنهم نظروا الى شارل على انه عديم الفائدة والجدوى، لذا فانهم أهملوا اختياره، فسيدتهم يجب ان لا تزف لرجل فقد عقله وفكره.

وخلال الأشهر الأولى من عهد الملكة اليزابيث، بدا واضحاً ان سبب رفض الملكة إليزابيث وكرهها للمتقدمين لخطبتها هو ميلها للورد روبرت دودلي Dudley (١٥٣٢-١٥٨٨)[١] ويمكن ان لا يكون ذلك السبب الوحيد فقد كان دودلي متزوجاً وهذا ما شكل قلقاً عظيماً بالنسبة لوزرائها وعامة الشعب، فهم يخشون من شابة تنبذ النصائح التي تصب في صالحها، وهذا سيقود إلى فضيحة مأساوية لا يُحمد عقباها مع استمرارها على العرش من دون ان تتزوج، فزواجها من دودلي مستبعد لاسيما في ذلك الوقت، وبعد مضي أربعة اشهر من اعتلائها العرش، انتظرت اليزابيث ساعة وفاة زوجة دودلي المصابة بمرض عضال لكي تتزوج به.

كان دودلي قد نشأ نبيلاً وشهماً، وان القليل من الرجال من يستطيع ان يظهر نبله على الطراز القديم للفروسية، وفي هذه الاثناء تقدم دوق نورفولك للزواج من الملكة اليزابيث عند ارتقاء عرشها، وكان لديه من العمر ٧٥ عاماً.

كان ادموند دودلي Edmund.D (١٤٦٢-١٥١٠) -والد روبرت دودلي- وزيراً لدى الملك هنري السابع، والد دوق نورثمبرلاند حفيد جون John، ومن جانب أمه كان الوريث الوحيد للبارونية القديمة لدي ليسلي De

---

(١) روبرت دودلي: ايرل ليستر، نبيل انجليزي ومقرب الى الملكة اليزابيث منذ اعتلائها العرش وحتى وفاته. اصبح في عام ١٥٦٢ عضواً في المجلس الخاص. تُوفي عام ١٥٨٨.

L'isle، فنال لقبه قبل وصوله إلى دوقيته وايرليته، وفي حقيقة الأمر ان نقطة التأثير في نظر الكثيرين يغلب عليها طابع الادعاء، كون الابن الشاب جـــرد من العديد من الحقوق، فلم يكن لديه هكتار واحد من الأرض أو حتى القليـــل من المال، إلا انه لم يكن مديناً لأي من زوجته أو حتى إلى إليزابيث، وكان جد دودلي اسكويراً Esquire[1] بسيطاً، برز بوصفه مساعداً للملـــك هنـــري السابع في سحق طبقة النبلاء القديمة، وقد عمل ابنه العمل نفسه (بعد وفاتـــه) تحت إمرة الملك هنري الثامن وابنه الملك ادوارد، اما روبرت دودلي –عشيق إليزابيث– فكُتب عليه ان يبدأ من أسفل السلم.

ان تفضيل إليزابيث لدودلي جاء لكونه رجلاً ذا قدرة مميزة، وشخصية رفيعة المستوى، ورجلاً وسيماً، واتسامه بأساليب جذابة يعرف متى وكيـــف يستخدمها. وبذلك استطاع ان يكسب ود إليزابيث، اذ لم تكن الاخيرة تتـــوانى في إظهار ميلها للرجال الوسيمين امثال دودلي، ونفورها ممن هم دون ذلك.

وجد دودلي نفسه داخل دائرة التفضيل، وارثاً جرأة جده وأبيه على حد سواء، وأعلن صراحة حبه للملكة، ولم يكن يدرك بانه بذلك يجعل من طموحه يقفز بصورة جنونية. عدّت إليزابيث ان اتهامها بحبها له امرا غير مقبـــول، وتظاهرت بانها لم تكن تحب دودلي ولا أي رجل آخر فـــي أي إحســـاس أو شعور للكلمة أكان ذلك الشعور عالياً أم دون ذلك، وانها لم تكن تملـــك بـــين جنبيها قلباً رقيقاً أو حساً شهوانياً.

---

(١) لقب انجليزي أدنى من الفارس.

كان لدى اليزابيث أكثر من نزعة أنثوية يجعلها في موضع إعجـــاب، وكثيراً ما كان يساورها القلق لعدم قدرتها على إلهامها الحب للآخرين ممـــن هم حولها، لذا فانها لم تهتم كثيرا بفكرة الزواج من دودلي، لكنها كانت تهـــتم بان يكون بقربها إلى جانب عدة رجال لهم وسامة دودلي يلفّون حولها " كمـــا يلف الكلب" -على حد تعبيرها الخاص- وانها كانت ترى فـــي ولاء دودلـــي صورة الخادم المطيع.

ورغم كل ما قيل فان إليزابيث لم تكن بهذه الدرجة من السوء، ففـــي عام ١٥٦١ عهد دودلي إلى السفير الإسباني بان يكون الخادم المطيع للملـــك فيليب وان يعمل كل ما في وسعه لخدمة الكاثوليكية إذا ما تدخل الأخير لأجل إقناع الملكة إليزابيث للزواج منه، وفي العام نفسه، عـــرض خدماتـــه علـــى الهيجونت الفرنسيين للسبب نفسه، وتظاهر بانه حامي المتزمتين، وفي حـــين آخر نجده يفتتن بملكة اسكتلندا؛ لذا يجب ان ندرك ونتذكر بان القليـــل مـــن رجال الدولة في القرن السادس عشر سواء من الانجليز أم من غيرهم يملكون سجلاً خالياً من العيوب المماثلة التي ذكرناها آنفاً، فاولئك الذين أمثال إليزابيث وسيسل كانوا يعملون بروح الجماعة، أو بأي شكل مـــن أشـــكال الاحتـــرام والأنانية النقية، وانه (اي دودلي) لم يتردد في الكذب، أو لعب لعبة مزدوجـــة عندما بدا في التخلي عن خدمتهم.

كان وليام اورنج William Orange (١٥٣٣-١٥٨٤) قائد الثورة الهولندية ورجل الدولة السامي يبغض كثيراً هذه الاخلاق السيئة التي طالمـــا رغب في الابتعاد عنها قدر الامكان. وهذا هـــو معيـــار الشـــرف بالنســـبة للسياسيين ولمحبي أوطانهم، فلا خير يتوقع من الطبائع الخسيسة، فإذا كـــان

سلوك دودلي في جميع المناسبات سيئاً وحقيراً؛ فيجب ان يحكم عليه بقسوة شديدة، كون نتائج اعماله غير موجهة ضد الرجل والمواطن العادي، ولكنها موجهة ضد الجميع من خلال ما اكتسبه من نفوذه الخاص، ولا احد ينكر رجولته وقدراته العظيمة، ولم يكن كما صوّره العديد من الكتّاب المعاصرين على انه رجل عابث وغبي عاجز، لذا فانه لم يُحكم عليه من قبل معاصريه، وقد قرر سيسل تقديم كامل الاحترام لدودلي والاعتراف بانه خادم صالح للملكة. ومما لا شك فيه ان إليزابيث خمنّت قدراته على الوجه الدقيق والصحيح، ولم تبالغ بتقدير مودته وإخلاصه الشديد لها، وفي أغلب الأحيان يضع الملوك نسباءهم في مناصب مهمة، ولا يشترط ان يكونوا ذوي قدرات عالية، ولكن الاهم ان يكونوا صادقين معهم، ولم يكن لدى إليزابيث ما عند أولئك الملوك. ولكنها آمنت بحب دودلي، ولا نعجب إذا ما استخدمته في مواضع الثقة والتقدير. ان الأنثى الحاكمة مسؤولة عن ارتكاب مثل هكذه أخطاء، ما لم يكن وزراؤها وقادتها من ذات جنسها.

وفي ٣ أيلول عام ١٥٦٠ أي بعد مضي شهرين على معاهدة ليث، أخبرت إليزابيث السفير الاسباني دي كوادرا بانها قررت الزواج من الارشيدوق النمساوي شارل، وفي ٨ من الشهر نفسه توفيت زوجة روبرت دودلي في قاعة كومنور Cumnor Hall، وفي ١١ منه أخبرت إليزابيث السفير بانها غيرت رأيها.

كان دودلي متجاهلاً زوجته، ولم يحضرها للبلاط، ومطلقاً لا نشك بانه كان يرى بانها تقف في طريق طموحه، وانه يمكن ان يكون تكهن بوفاتها، وليس من الغريب عليه ان يدرك سبب ذلك (أي الوفاة) رغم ذلك ان جزئية

البرهان على ذلك لا يمكن ان تتجه صوب صحة الإدراك أو التوقع، ويبدو أكثر من المحتمل بان المرأة الفقيرة والمهجورة قد انتحرت[١]، وان هيئة المحلفين لقاضي تحقيق الوفيات تحرت الحالة بجد، وبدأ بوضوح مع بعض التحامل ان التهمة وجهت ضد مالك قاعة كومنور، لكن في نهاية المطاف أقرت الهيئة ان سبب الوفاة كان عرضياً.

وفي خريف عام ١٥٦٠، فكرت اليزابيث بجدية بالزواج من دودلي، ومن الصعب التكهن كم لبثت تفكر في ذلك، ومثلما هو معتاد كان حاله كأي من المتقدمين لطلب يدها عندما كانت تستمر في التغنج، وادركت ان تفكيرها بهذا الخصوص لا يمكن ان يكون مثمراً، والى حد ما يمكن ان نصيب اذا ما قلنا بانها لا تفكر بدودلي، إلا إذا دار الحديث حول زواجها من الارشيدوق النمساوي شارل، ويستمر الحال حتى عام ١٥٦٨. يبدو ان سيسل لعب دوراً بارزاً وعبقرياً في تقديم النصح للملكة إليزابيث في إقناعها بالزواج من دودلي، لكن ذلك لم يكن مؤكداً بشكل كبير، والمؤكد هو انها إذا ما أصبحت زوجة وأماً، فان العديد من صعوباتها ستزول في الحال وان النقاط الأضعف في شخصها سوف لن تظهر في المستقبل المنظور، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

ويميل العديد من المؤرخين الى الاعتقاد القائل بان المنافس القوي لدودلي هو ايرل سويكس الذي كتب الى الملكة في عام ١٥٦٠ يخطب ودها

---

(١) في حين يذكر خبراء الجنايات في الوقت الحالي بعدما اعادوا فتح ملف قضية وفاة زوجة دودلي الغامضة، وجدوا ان زوجة دودلي ماتت مقتولة واصابع الاتهام تشير الى زوجها.

ويظهر فيها حبه وطاعته لها، وانه يرغب بالزواج منها لانجاب امير يـرث عرش انجلترا.

وربما يُعذر من كان يظهر رأيه لاختيار زوج مثالي لها، وإذا كان لابد من الاختيار، فانه يمكن ان يكون اللورد جيمس ستيوارت James Stuart (١٥٢٥-١٥٨٣) ايرل موراي، الذي يملك القدرة الكافية والقلب اللطيف والقرار الشجاع لأجل إسعادها وتصحيح مسارها، وإذا ما أصبح الوصي على عرش اسكتلندا زوجاً لإليزابيث فانه سيضم تاج انجلترا إلى جانب التاج الاسكتلندي، وسيكون له في المستقبل القريب نصيب من النبل أكثر من ابن ماري ستيوارت -جيمس السادس- وهنري ستيوارت (١٥٤٥-١٥٦٧) لورد دارنلي Darnley(١).

وفي آب عام ١٥٦١ عادت ماري ستيوارت قادمة من فرنسا إلى مملكتها الخاصة (اسكتلندا)، بعد موت زوجها فرانسيس الثاني، ووجدت نبلاء اسكتلندا ينبذون آران، وكان لديهم الاستعداد بطريقة أو بأخرى، لدعم طلب ماري لتكون الوريث الشرعي القادم لإليزابيث، لكن الأخيرة ترفض ذلك بشكل قاطع، ولم يكن الكاثوليك وحدهم من سيثير المتاعب، بل ان المتزمتين من البروتستانت والكاثوليك كانوا مستميتين ايضاً لأجل حياة ملكتهم ماري ستيوارت، والخشية كل الخشية من ان تحبط آمال ماري عن طريق زواج الملكة اليزابيث، وهذا سيكون كمن يعلق كفن أمام عينيها او الاحتفال بيوم

---

(١) دارنلي: ابن ماثيو ستيوارت، دوق البني Albany، ولورد دارنلي. قتل في كيرك Kirk في ادنبره.

وفاتها بينما هي حية، وقالت اليزابيث عن ماري: "انها لم تكن حمقاء كثيراً". لكنها وعدت بانها سوف لن تقدم على شيء عن طريق البرلمـــان للإضــــرار بوراثة ماري للعرش الانجليزي، وبرت إليزابيث بوعدها لفترة طويلة، ولكن كان تصرف ماري الطائش وغير المسؤول السبب في ان تعاملها اليزابيـــث بوصفها عدواً لدوداً.

لم تهتم ماري بأي شيء بأكثر من اهتمامها بقضية وراثة إليزابيـــث على العرش، وفي الواقع كانت قليلة الحذر بالنسبة لفرصة بعيـــدة ومجهولـــة وغير مؤكدة.

كانت ماري تخطط باستمرار عجيب لإزالة إليزابيث عن عرشها، ولم تتوقف عن مسعاها هذا حتى سقط رأسها من على أكتافها، فأهدافها كانت أكثر وضوحاً ومكراً من تلك التي عند إليزابيث، وكانت تتعامل مع الامور بتهـــور كبير مما أفسد عليها مشاريعها في أغلب الأحيان، وهذه الصفة كانت بعيدة كل البعد عن الملكة اليزابيث، ففي المقدرة والمعرفة لم تكن مـــاري بأقـــل مـــن إليزابيث، لكن في الاقدام والتسرع كانت متفوقة على الملكة اليزابيـــث، هـــذه الخصائص منحت ماري النصر في النزاع الصعب، لكن في نهاية المطـــاف أكدت إليزابيث من خلال شخصيتها المقتدرة بان لا احد يستطيع مجاراة ضبط النفس التي بجعبتها، فماري يمكن ان تحب وتكـــره، أمـــا إليزابيـــث فلـــديها التفضيل أو عدمه، لذا فانها تلعب اللعبة ببرود شديد، وعندما ستكون مـــاري محبوبة بحق، فانها سترمي جميع الحسابات الأنانية إدراج الرياح، وســـتكون مستعدة للتضحية بكل شيء الجسد والروح والتاج والحياة والشرف، وإذا مـــا أضحت مكروهة فانها في أغلب الأحيان، ستمكن الحقد من الانتصـــار علـــى

الحكمة، وفي نقطة التحول القاتلة في تحركاتها، سقطت أمام ناظري منافستها بشكل نهائي كون الحقد تملك روحها وعقلها، واعمى بصرها وبصيرتها.

وفي عام ١٥٦٤ كانت ماري حرة حتى تلك اللحظة، وبحثت عن مجاراة نفسها على الأسس السياسية تماماً، إذ لم تكن صعبة المراس كإليزابيث، ولم تشغل نفسها بالمميزات الشخصية، إذا بدا انها مؤهلة للنزاع القادم، وطلبت الاخيرة من عائلة هاملتن ضرورة الضغط على ماري لغرض الزواج من آران، رغم انه كان بروتستانتياً، ولم يكن وريثاً لأي عرش باستثناء الذي في اسكتلندا؛ وقررت عائلة هاملتن القوية منحها المساعدة لكن في اي مكان آخر باستثناء اسكتلندا، أما فيليب فقد تمنى ان توافق اليزابيث على الزواج من قريبه الارشيدوق شارل النمساوي، وأعلن الاخير لإليزابيث عن كاثوليكيته، وفي الوقت نفسه كان في نظر ماري وإخوتها في الدين اقرب ما يكون إلى اللوثرية، وانها شكت باهتمام فيليب لأمره لأجل المجازفة بحرب تجعل من شارل النمساوي وماري ستيوارت يتربعون على العرش الانجليزي. لأجل ذلك وضعت قلبها وانظارها صوب الزواج من دون كارلوس Don Carlos ابن فيليب، وكان هذا ضرباً من الجنون والتهور، واستقبل الأخير مفاتحتها هذه بشكل مريب، واغلب الظن لم يثق الملك فيليب كثيراً بدون كارلوس، الذي ربما سيكون عرضة للقتل.

كانت ماري محبوبة عند كاثرين دي مدتشي C.de Medici (١٥١٩-١٥٨٩)، التي اقترحت ان تجعل من ماري كنتها من خلال زواجها من ابنها

شارل التاسع (١٥٥٠-١٥٧٤)[1] وهو فتى لم يبلغ بعد الثالثة عشر من عمره، وإذا ما رغبت ماري بذلك فعليها انتظاره لمدة لا تقل عن السنتين من ناحية أخرى أكدت إليزابيث على ماري بان امتناعها عن الارتباط باحد أعضاء كنيسة الإصلاح، فان البرلمان الانجليزي سيؤكد بطلان التعاقب الوراثي الذي طالما حلمت به ماري.

كان مجلس العموم بروتستانتياً بكل ما تعنيه الكلمة وقد عمل على منع التعاقب الوراثي للسيدة كاثرين جري أيضاً رغم الصعوبات التي واجهها أثناء ذلك، وبعيداً عن الدين كان هناك سخط موجه ضد الأمة الانجليزية قاطبة، فالسير رالف سادلر Ralph Sadler (١٥٠٧-١٥٨٧) الذي كان قد شغل وظائف كثيرة في اسكتلندا استنكر عمل الانجليز هذا، قائلاً بانه: "مضلل، وحقير، وخائن لقسمه، وان كل حجارة في الشارع الانجليزي ستقف ضده"، وفي تشرين الأول عام ١٥٦٢ كانت إليزابيث مريضة بشكل كبير، لدرجة ان مجلسها ناقش الوضع وقرروا ان يعلنوا عن حالة وفاتها، فبعضهم فضلوا ان تكون وريثتها السيدة جري نزولاً عند رغبة هنري الثامن، وآخرون كانوا لا يحبذون الحكم الأنثوي ففضلوا ايرل هنتجتون Huntington سليل دوق كلارينس Clarence، ولم يفكر احد بماري أو دارنلي.

كان المجلس والبرلمان ضد ماري التي لم تستطع تفادي الشجار مع الملكة إليزابيث التي أخبرتها بان الزواج من أي إسباني أو نمساوي أو فرنسي

---

(١) شارل التاسع: ملك فرنسا، وقعت في عهده مذبحة بارثيلمو ضد البروتستانت عام ١٥٧٢.

سيعد بمثابة إعلاناً للحرب، وان طلب المساعدة من تلك الأصقاع أمر شبه مستحيل، وستبقى تلك المساعدة تحت رحمة الرياح والثلوج: أما القلاع والحاميات الحدودية فانها جاهزة على الدوام لايقاف زحف القوات المعادية، وان زواجها من الارشيدوق شارل أو من شارل التاسع سيعّرض الآخرين لشوكة السلاح الانجليزي، لكن كان هناك رجل خطر في ذهنها لأجل الارتباط به، فهو أمير في الحقيقة، لكنه قد ينهي النزاع الملكي الأنثوي، وذلك لم يكن أكثر من ذريعة لذلك التعاقب التي طالما كانت ترغب به، والرجل هو اللورد دارنلي ابن ماثيو ستيوارت Matthew Stuart (١٥١٦-١٥٧١) ايرل لينيكس Lennox، وهو أحد أعضاء العائلة المالكة في اسكتلندا، وأمه ابنة مارغريت تيودور Margaret Teudor (١٤٨٩-١٥٤١) أخت الملك هنري الثامن عن طريق زوجها الثاني ايرل انجس Angus التي ولدت في انجلترا، وكان والده ولمدة طويلة يقبع في منفاه، وقد رأى العديد من رجال القانون من انه مؤهل لتسلم التاج الانجليزي، إذا ما توفيت إليزابيث في هذا الوقت، وربما سيرثها على العرش دارنلي الكاثوليكي بدلاً من ماري ستيوارت التي يسعى الكاثوليك لوضعها أيضاً على العرش.

وفي آذار ١٥٦٤ وعدت إليزابيث ماري بانها إذا تزوجت نبيلاً انجليزياً فانها ستعمل ما بوسعها لأجل حصول ماري على ما تريد بموافقة البرلمان، وبناءً على ذلك عملت إليزابيث على ان يكون هذا النبيل روبرت دودلي بدلاً من دارنلي وذلك لإهانة ماري، وعدّ هذا العمل دعابة مخزية من جانب الملكة إليزابيث، رغم ان الاخيرة لم يكن لها نية لمثل هكذا دعابات في نزاعها مع ماري، ولكن من المؤكد انها كانت تقصدها، وهذا برهان حاسم

على تعاطفها مع دودلي، وان سيسل وأغلب مستشاريها، لم يشكا أبداً بانها مخلصة وصادقة، وأخذت على عاتقها إقناع ماري من اجل تنصيب دودلي دوقاً على ليستر Leicester، وقد قدمت احترامها له، وأخبرت مبعوث ماري ميلفيل Melville بانه كاخيها وصديقها -تقصد دودلي-؛ وإذا ما كان زوج ماري فانها سوف لن تخشى على عرشها من بعد موتها، وتعهد دودلي بانه سيكون محباً ووفياً لها وسوف لن يسمح بأي شيء يحدث أثناء حياتها، وقالت الملكة اليزابيث: مشيرة إلى دارنلي الذي كان حاضراً: "أنت تحب وتفضل طفلة صغيرة". ان كلامها هذا كان في محله، فقد كان لدى ميلفيل أوامر سرية لأخذ رخصة لدارنلي للذهاب إلى اسكتلندا، وقد استجاب الاخير بشكل متكتم لتلك: "المرأة الخالية من الروح -ماري- التي استطاعت ان تختار شخصاً أكثر شبهاً بالمرأة منه إلى الرجل".

لكن كيف اقتنعت إليزابيث بضرورة مغادرة دارنلي انجلترا؟ فهناك جواب واحد يمكن ان ينزع الشك من الصدور: هو ان ماري أعلنت استعدادها للزواج من دوق ليستر في كانون الثاني عام ١٥٦٥، وحصل دارنلي على موافقة لطلب مغادرته بالفور لمدة ثلاثة أشهر، بحجة استعادة ملكية لينيكس المصادرة حتى لا يكون ذهابه إلى اسكتلندا فيه نوع من الشك، وبذلك بدا ان إليزابيث وسيسل أضحيا مخدوعين بالكامل، كون أي متبار حذر ومتعقل قد يقع في جملة من المشاكل حجمها متساوٍ مع ما يملكه من عقل وحكمة، فإليزابيث بوصفها حاكماً محباً لوطنه، لا ترغب بشيء سوى دخول اسكتلندا، أما ماري فلم تكن تهتم بشيء أكثر من تحقيق طموحها الخاص، وبإمكانها ان

تستقبل حرباً أهلية بأعصاب باردة، وكانت مستعدة للتضحية بكل ما تملكه من اجل الحصول على فرصة الجلوس على العرش الانجليزي.

وفي ٢٩ تموز عام ١٥٦٥ تزوجت ماري من دارنلي، غير مكترثة بتهديدات إليزابيث، وان موراي وآرجيل Argyll حصلا على الأسلحة بعد ان وعدتهم انجلترا بتقديم العون لهما، وان اللوردات الكنسيين أظهروا ضعفهم بدرجة اكبر من التي كانوا عليها قبل خمس سنوات، وهناك من البروتستانت ممن ارتضوا بارتقاء قريبهم دارنلي أمثال مارتن Marton وروثفين Ruthven وليندساي Lindsay.

كانت معالجة موراي للامور غير ناجحة، إذ ان الكاثوليك الانجليز سيكونون أكثر سخطاً وخطورة، فايرلات الشمال كانوا من بين الساخطين على اليزابيث. واعتقدت ماري بان جميع الكاثوليك في انجلترا كان لديهم زعاماتهم وتنظيماتهم وهذا ما يمكنها من السير بجيشها صوب لندن، ومما لا شك فيه فانها كانت مخدوعة كثيراً، لاسيما في اللجوء إلى العنف في تشكيل واقامة السلطة.

ان لدى إليزابيث قاعدة مميزة مفادها: ((لا تدخل حرباً إذا كان بالامكان تفاديها))، فمن هذه القاعدة لا يمكن ان تنجرف اليزابيث صوب الهاوية سواء بالعاطفة التي تحملها في قلبها أو بالطموح الذي يدور في خلدها، وان جميع المعارضات القديمة لاحتلال اسكتلندا لا تزال قائمة ومتجذرة في نفوس الاخرين، فمن الأفضل انتظار الهجوم، وذلك خير من الذهاب إلى نصف الطريق ثم لا يأتي –اي الهجوم–، فاحتلال اسكتلندا قد يقود إيرلات الشمال للتكاتف مع ماري، وهم لن يفعلوا ذلك ما لم يجبروا على فعله،

فالبعض من الناس كان ينتابهم القلق كثيراً من الانتظار والتوقعات والخطر المجهول، وبالنسبة لخيانة اللاجئين الاسكتلنديين، فلم تكن إليزابيث لتسمح بان تجعل هناك عقوبة لهم بأقل من أولئك الأجانب كونهم اثرّوا على مصالح انجلترا، فموراي وهو احد رجال الدولة الاسكتلندية الأكثر شجاعة وتضحية، اظهر حكمة عندما أذعن لاليزابيث من دون اية شروط، وانتظر بأناة في منفاه، كون ذلك سيساعده كثيراً في الخروج منه، وابتهجت ماري بهذا الخبر، ووجدت انه من الأفضل إبعاده لفترة، وكتب فيليب إليها بان تساعده بالمال سراً إذا ما وافق على مهاجمة إليزابيث، وما عدا ذلك حذرها من أية محاولة سابقة لأوانها ضد التاج الانجليزي، وكان من الصعب ان تجد إليزابيث تفسيراً واضحاً لذلك.

ولأسباب سياسية صممت ماري على الزواج من دارنلي وليس هناك أي سبب آخر لاهتمامها به. وعلى الأرجح أشار السيد فرود Froude ان هناك غرضاً سياسياً كبيراً كانت تعمل عليه وهو بغضها لدارنلي والنفور منه، فامرأة في الثانية والعشرين من عمرها وأرملة قبل ذلك وقادرة جداً على استيعاب اللعبة السياسية، لم يكن من المحتمل ان تهتم بفتى يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، وشرير وأحمق، ولا يملك خاصية واحدة من خواص الرجولة، ولاحقاً فان ماري تعلق قلبها برجل يدعى جيمس هيبورن Hepburn (١٥٣٤-١٥٧٨) ايرل بوثويل Bothwell الشجاع المخاطر العنيف، وتدريجياً ولج بوثويل قلب ماري واعلن استعداده للمخاطرة بحياته من اجلها، وكانت ماري تحترمه بل تحسده لقلبه الشجاع وسطوته القوية.

كان عمر بوثويل في ذلك الوقت ثلاثين عاماً، ورغم ان ماري كانت امرأة جميلة، ويعدّها البعض لقمة سائغة الا انها كانت ذات سـمعة لا غبـار عليها خلال تواجدها في فرنسا أو حتى في اسكتلندا، وان سلوكها في قضـية شاستيارد Chastelard – شاعر ونبيل فرنسي- كان نزيها ولا غبار عليـه، وان اتهامها بالزنا مع ريزيو Rizzio (١٥٣٣-١٥٦٦) –المستشار الايطالي في بلاط ماري- غير مقبول به، وغير جدير بالاعتقاد حتى من قبـل السـيد فرود الأكثر حدة في محاكمتها، وانها في حقيقة الأمر أحبت بوثويل، ومثـل باقي النساء ممن لا يستحقن ان يدعين بالفاجرات، ضحت بسمعتها في سـبيل رجل أحبته، لكن الدليل الأكثر وضوحاً من انها لم تكن عبدة لشهوتها هو انه بقدر التسعة عشر عاماً التي أقامتها في انجلترا، كانت كثيرة الاخـتلاط مـع الجنس الأخر، ولو كان لديها رغبة في التصرف السيئ حيال ذلك لفعلت، من دون الافتراض بانها كانت مقيدة بالورع الديني أو بالمبـادئ الأخلاقيـة، ولا يمكن توجيه أية تهمة ضدها في هذا الخصوص، وعندما وجـد دارنلـي ان زوجته منحته لقب ملك من دون ان يتوج، استشاط غضباً، ولم يكن أقربائـه مارتن وروثفين وليندساي اقل غضباً منه، على عدّ ان قريبهم دارنلي سيصبح قوياً جداً إذا ما توج ملكاً، وفي ظل ذلك منحـت الملكـة ثقتهـا للكاثوليـك ولبوثويل، الذي رغم كونه بروتستانتياً بالظاهر، إلا انه تصرف دائماً على انه واحدٌ من الكاثوليك. وقد وقف المنشقون من البروتستانت ضد ريزيو بعنـف وقسوة، وكان بوثويل ذا رأس كبير (عنيداً)، ومبارزاً متخبطاً، أما ريزيو فقد كان ذكياً وبغيضاً أكثر من زمرة الملكة ماري مجتمعين، وكان أجنبياً وضيع النسب، لذا فهم صمموا على إزالته من الوجود الاسكتلندي، وكانوا قد أرسلوا

إلى النبلاء المتواجدين في انجلترا للقدوم إلى إدنبره لتنفيذ عملية الاغتيال، وقد قام دارنلي بقتل ريزيو امام عيني ماري، وكان بين من ابلغوا بهذا الامر السفير الانجليزي راندولف، وبيدفورد آمر قوات الحدود، وبدورهم ابلغوا الأمر إلى سيسل وليستر، وكان هذا جزءاً من مخطط كبير لإعادة اللوردات البروتستانتيين المنفيين، وبذلك ينتهي الانشقاق البروتستانتي، ويضمن صعود المذهب البروتستانتي في اسكتلندا، ففي بادئ الأمر بدا ان الأمر يسير صوب النجاح، وكتب بيدفورد إلى سيسل بان: "كل شيء يسير بشكل صحيح"، وكان على قتلة ريزيو العودة إلى انجلترا، فإذا ما فشلت الضربة الموجهة ضد البروتستانتية فان ماري ستلزم بالاعتراف من ان خطتها من اجل ارتقاء المذهب الكاثوليكي في اسكتلندا لا يمكن ان تندفع صوب الامام، لذا قررت بشكل مؤقت ولكسب الوقت الخضوع للتاج الانجليزي، وعندما بدا لماري الانتصار الثابت على جميع المعارضة، ارتفعت الأرض التي تحتها، وعندما كانت تحلم في خلع إليزابيث، وجدت نفسها أسيرة طموحاتها الخاصة، وان العبرة من ذلك، هو انه كان بإمكانها ان تستفيد من فرصها وآمالها والتي لم يسبق ان كانت فرصاً جيدة، وان خسارة مستشار كريزيو كان بحق خسارة كبيرة لها، لذا كان عليها ان تبتعد او ان تؤجل تصميمها على إعادة المذهب الكاثوليكي في اسكتلندا، ولإيقاف دسائسها ضد الملكة إليزابيث.

وفي حزيران ١٥٦٦ ازدادت آمال ماري في انجلترا عندما بدا واضحاً من انها ستنجب ولداً، ومرة أخرى أصبح هناك وريث ذكر في المسار الملكي القديم، وبما ان إليزابيث واصلت تجنب فكرة الزواج، فان اكثر البروتستانت المعتدلين بدأوا بالاعتقاد بان ذلك آمن ومعقول إذا ما التزموا

بقاعدة حق البكر في الإرث الذي وضع بإرادة الملك هنري الثامن، واقرهـا البرلمان، وهذا ما كانت تبحث عنه إليزابيث، التي رفضت امتلاك أي شـيء بالقوة أثناء حياتها، لكنها ذهبت بنفسها بعيداً لتسوية الأمر مع منافستها الوحيدة ماري، وكانت كاثرين جري تعقد زواجاً سرياً مع ايرل هيرتفورد Hertford ابن الحامي سومرست، وان الشيء الوحيد الذي كشف أمرها هو حملها منه، لذا استوجب الأمر اعترافها، فاخت هيرتفورد الشاهد الوحيد علـى زواجهـم كانت قد ماتت، فأنكرت إليزابيث قصتهم، إذ انها لم تكن قادرة علـى اثبـات الدليل على زواجهم، وكان من حق إليزابيث ان تغضب، لكن عندما أرسـلت الزوجين الحزينين إلى البرج، بسبب قيام باركر Parker رئـيس الأسـاقفة بالإعلان عن بطلان الزواج، وان نسله غير شرعي، وبدا انها تريد ان تلعب لعبة ماري. وفي عام ١٥٦٣ كان مجلس العموم راضياً عن عمل كـاثرين، حتى بعد فضيحتها فالمهم انها اقدمت على الزواج رغم عدم الاعتراف بـه، ففي خريف عام ١٥٦٦ قرر مجلس العموم في جلسته الثانية إرغام إليزابيث على الزواج، وفي هذه الأثنـاء اقـروا بكـاثرين وريثـة للعـرش، وادرك البروتستانتيون المتحمسون بشكل كبير بان اللوردات إلى جانب آل ستيوارت، وخشوا من ان ينجرف العموم صوب ذلك أيضاً. وفي ٢ كانون الثاني عـام ١٥٦٧ قررت اليزابيث بكل سخط وغضب حل البرلمان، وشـكرت مـاري سيسل نفسه على هذا الامر، لكنه كان كثيرا ما يتوجس خيفة مـن ان تكـون ماري وريثة للعرش، وكان يرى ان يختار طريقاً صـحيحاً للسـير نحـوه، والالتفاف حوله، وخلال تلك اللحظة رفضت ماري جميع ما آل اليهـا مـن فرص وامتيازات، وسارت على الطريق القاتل الذي قادها صوب حتفها، وان

بغضها لدارنلي ورغبتها العنيفة للانتقام وتحقيره وإغضابه، جعلها تعاني كثيراً، فلم يبقَ له شيء في قلبها، وكانت حذرة جداً لاعتبارات سياسية، وكان الطلاق من دارنلي سيجلب لها السعادة، ومطلقاً لم تكن الكنيسة الكاثوليكية لتسمح بذلك حتى، وان كانت هناك مشاكل بعد الزواج، وهناك من وجد لها ذريعة لأجل الطلاق، على عدّ ان الزواج كان ملغياً منذ البداية، لم تقنع هذه الذريعة ماري، فذلك سيجعل من ابنها غير شرعي وسيضعها في موقع كاثرين جري تماماً، وان أي خطأ يمكن ان يقع في قضية طلاقها، فانه سوف لن يمكنها من الزواج مرة أخرى.

وفي خضم ذلك استفحل اعتماد ماري على بوثويل لأجل الحب والزواج، وان هيامها به جعله يقدم إليها ليكون فاتحة لطموحه الكبير، وقد احبها بوصفه فاسقاً سيء السمعة، وقبل ان يراها كان قد أحب عشرين امرأة قبل ذلك. رغم ذلك وقع الزواج بين ماري وبوثويل، وان أي رجل يفكر بعقلانية يدرك بان هذا الزواج دمار له وللملكة على حد سواء، لكن بوثويل كان معتاداً على تذليل الصعاب التي يمكن ان تقف في طريقه، ولا يؤمن بشيء سوى الجرأة والقوة والوحشية، فاذا اصبح زوج الملكة والسيد داخل المملكة، فلماذا لا يكون ملكاً؟. وهناك العديد ممن دانوه لحسده القاتل ولغدره، وهناك من أُهينوا بسبب وقاحته، وبالنسبة للجميع كان دارنلي مصدر قلق وإزعاج، لذا سعت العديد من الشخصيات القيادية لأجل إبعاده، فموراي وآرجيل وميتلند Maitland عرضوا المساعدة لماري لتخليصها من زوجها عن طريق ضوابط المذهب البروتستانتي فيما يتعلق بالطلاق، شريطة ان تصفح عن مارتن وأصدقائه المنفيين. نجحت هذه الصفقة ووافقت ماري على

قبول المساعدة، من دون ان يذكر أحدٌ شيئاً حول القتل، فلم يكن أحدٌ مهتماً بالقتل باستثناء ماري وبوثويل، وان مشروعها المتعلق بالزواج ظل مبهماً حتى تلك اللحظة. في الوقت نفسه رغب بوثويل ان تقع مسؤولية قتل دارنلي على عاتقه، ومما لا شك فيه انه كان يرى نفسه فوق الشبهات وان هذه الحادثة ستشكل لغزاً للجميع.

ان جميع التحركات العلنية ما كانت لتساوي شيئاً أمام حركة واحدة سرية، وان العديد من الشخصيات كانت تدرك بان الأمر يسير صوب الحسم، لكن لا احد يهتم بالتدخل الحقيقي، فالدائرة الداخلية للمؤامرة شملت كل من بوثويل وآرجيل وهانتلي Huntly وميتلند وجيمس بلفور James Balfour (١٥٢٥-١٥٨٣) وبعد ان أصبح بوثويل موضعاً كبيراً للشك من قبل بضعة محققين مؤهلين لذلك وعادلين وجهت إليه تهمة قتل دارنلي الا انه لم يبد أية معارضة أو تفنيد، والأكثر من ذلك ان ماري اُتهمت أيضاً بوصفها شريكة في مؤامرة القتل هذه، وانها من اغرته بفعل ذلك.

كان لبوثويل تأثيراً ساحراً على ماري، والذي استغله بشكل كبير لإرضاء طموحه المتهور، وانه يدّعي اهتمامه بالمرأة الحزينة التي طالما ضحّت بكل شيء من اجله، وفي الواقع اهتم كثيراً بزوجته الشرعية، وانه لم يكن مستعداً لأجل الطلاق. رغم ذلك فان زواجهما استمر قرابة الستة أشهر، أما ماري فقد عُذبت بغيرتها قبل الطلاق وبعده.

قُتل دارنلي في ١٠ شباط عام ١٥٦٧ وقد اُتهمت ماري بذلك من قبل البروتستانت والكاثوليك في داخل اسكتلندا وخارجها، وهو ما اضر بسمعتها في انجلترا وبقية أوربا، أن مثل هكذا حادثة بالامكان ان تزعزع

عرش ماري في اسكتلندا، رغم ذلك ما زالت منغمسة حتـــى تلــك اللحظـــة بعاطفتها إزاء بوثويل، وكانت تضع مشاعرها تحت السيطرة قدر الامكان.

لم يكن هناك أنبل من الوصي موراي داخل اسكتلندا، الـــذي كـــان متردداً لاجل ان يكون وزيراً لدى ماري، جميع هذه الامور جلبت الانهيـــار المفاجئ اليها وكان الاوان قد فات، ولم يكن قاتل دارنلي وراء هذا الانهيـــار، ولكن هيامها ببوثويل جعل منها دميـــة تتلاعـــب بهـــا الايـــام، فـــاللوردات البروتستانت والكاثوليك على حد سواء، أباحوا قتل المدان، وغضبوا غضـــباً شديداً عندما وجدوا ان دارنلي كان قد ابعد لأجل فسح المجال لبوثويـــل، وان مشروع زواج ماري ببوثويل لم يكتشف أمره إلا بعد مرور عشر أسابيع على مقتل دارنلي أي في ١٩ نيسان عام ١٥٦٧. وبعد مضي خمســـة أيـــام كـــان بوثويل يخشى ان يحبط زواجهما عن طريق التدخل الانجليزي، وكان بوثويل قد رتب اموره مع ماري بشكل مسبق، فعندما سيكشف امرهم ســـيكون مـــن المحتم ان تقترن ماري بغير بوثويل، ففي مثل هكذا تصورات جنونيـــة تـــم التخلص من دارنلي، وبذلك تبدو تخبطات بوثويل الفادحة اكثر وضوحاً امـــام العيان، وهكذا فان زواج ماري ببوثويل يمكن ان يكون قد وقع في ١٥ آيـــار من العام نفسه، وبعد مضي شهر فقط أذعنت ماري إلى اللوردات الثائرين في تل كاربيري Carberry Hill –شرق ادنبره–، أما بوثويل فقد نجـــا بجلـــده، وتوارى عن أنظار التاريخ.

وقد فكرت إليزابيث ملياً بسير الأحداث الاســـكتلندية، خـــلال الســـتة الأشهر الأخيرة، والتي كانت من دون شك ذات طبيعة متفاوتة ومتنوعة. وفي بداية عام ١٥٦٧ انتهت حربها مع ماري التي كانت قد استمرت سبع سنوات،

وكانت الهزيمة من نصيب الأخيرة، وان الضربة الجريئة والأخيرة تمثلت في قتل مستشار ماري الايطالي ريزيو، وقد بدا في فترة ما ان تختار اليزابيث أحد الخيارات المخيفة بالنسبة لاليزابيث هما: أما الاعتراف بماري بوصفها وريثة للعرش الانجليزي، او ان تتزوج هي، ومن هذه المعضلة غير السارة أطلقت العنان لتحركات منافستها ماري خلال الأشهر الستة الأولى من عام ١٥٦٧، لكن سرعان ماوصلت أخبار حول استسلام ماري في تل كاربيري، وتم إعادتها إلى إدنبره وسط اهانات وتهديدات الكالفنيين، وسجنت في بحيرة ليفين Leven الاسكتلندية واقترحوا إعدامها، وهذا ما اغضب الملكة إليزابيث، واخبرت اللوردات الاسكتلنديين في أكثر نبرات صوتها المتجبرة بانها لم ولن تسمح لهم باستعمال العنف مع ملكتهم، وانها ستثأر لها إذا ما أقدموا على خلعها أو معاقبتها، إذ انهم لا يستطيعون ان يقنعوها لعمل كل ما هو صحيح، وانهم يجب ان: "يعيدوا أنفسهم إلى خالقهم، وان اعمال وقلوب الأمراء هي فقط من يبقى".

ان تلك اللهجة المتسرعة بعض الشيء، التي خاطبت بها الرجال في اسكتلندا والمتعاطفة مع ماري، قد أفسدت على إليزابيث فرصة فريدة في وضع علاقتها مع اسكتلندا على موطئ الأمن الدائم، وهي منح ماري حق الوراثة من بعدها، وبالتالي تضمن صداقتها وتتمكن في الوقت نفسه من الهروب من القلق المستشري حول زواجها الخاص، وارتأت ان تجعل هذه القضية نصب اهتمامها فأُرسل ثروجمورتون Throgmorton بسرعة إلى اسكتلندا محملاً بالأوامر للعمل ما بوسعه لأجل الأمير الصغير -جيمس ابن الملكة ماري- والاعتناء به، وذات مرة رغبت الملكة اليزابيث بتبنيه بشكل

عملي داخل اراضي انجلترا، وبذلك ستجعل لها وريثاً للعـــرش مـــن دون ان تتزوج، ويصاحب ذلك اعتراف برلماني، وإذا ما تصرف بشكل حسن إزاءها، فانها ستجعله وريثاً لها، وان ضمانها هذا أكثر تأكيداً من أي قانون برلمـــاني بهذا الخصوص، وإذا ما تحررت ماري واسترجعت السلطة، فسوف لن تكون بنفس قوتها السابقة، اما اذا خُلعت أو ماتت، فان إليزابيث ســتحكم اســكتلندا بشكل غير مباشر حتى يكبر الطفل جيمس السادس ابن الملكة مـــاري، هـــذه الفرصة الرائعة اضاعتها إليزابيث بسبب لهجتها المستبدة والذربة، فقد رُمـــي الفخر الاسكتلندي القديم صوب النار، وان اللوردات المحبين لانجلترا كان من الممكن ان يكونوا فخورين بإرسال الأمير الشاب إلى انجلتـــرا، لكـــنهم لـــم يستطيعوا ان يتحملوا الظهور بأقل وطنية من المحبين لفرنسا، لذا لم يكتـــب النجاح لمهمة ثروجمورتون المتعلقة بجيمس، وكان قد فشل من قبله الحـــامي سومرست في الحصول على أمه ماري وكان ذلك قبل عشرين عاماً، وأُخبـــر بان قبل إرسالالأمير الشاب إلى انجلترا يجب الاعتراف بلقبه داخـــل قـــانون التعاقب الوراثي على العرش الانجليزي، لكن إليزابيث لم تســتطع الموافقـــة على ذلك، وان مطالبتها بضرورة إعادة ماري إلى العـــرش مـــن دون أيـــة شروط كانت غير مقبولة بين اللوردات المحبين لانجلتـــرا، إذ انهـــم كـــانوا يسعون لإغرائها بتحريرها واطلاق سراحها إذا ما أعلنت عن تخليهـــا عـــن بوثويل، وانهم سيمسكون به ويعدموه، وبسبب ولائها له فلا وعود أو تهديدات يمكن ان تؤثر فيها.

كانت ماري قد اطلعت على رسائل بوثويل الذي طمأنها فيها من انـــه لا يزال يعدّها زوجته القانونية، وانه لا يحب احدا سواها، ولكـــن مـــن دون

جدوى تذكر، فكان قد تملك ماري البث الشديد فارسلت رسالة مثيرة للشفقة إلى بوثويل تخبره فيها بان حبها له لن يتراجع أبداً وانه يزداد يوماً بعد آخر، وبعد يومين من زواجهما، فكرت بالانتحار بسبب قسوته، لكن هذا لا يعني ان يهزّوا ثباتها أو حبها له بما يقولونه لها الآن، ولن تقبل بأي شيء يبعدها عنه، فهي ستعيش وتموت معه، ولو انها خيرت بين ان تترك تاجها ومملكتها وما بين اللورد بوثويل لاختارت الأخير ولقررت الذهاب إليه بوصفها فتاة بسيطة، وسوف لن تسمح له بان يؤذي نفسه بأكثر مما آذاها، وكانت تود لو انهم يضعونها معه على سفينة مصنوعة من خشب وتحملهم إلى السعادة المرجوة. هذا المزاج ألعاطفي صعّب الأمور على اللوردات في تعاملهم مع سجينة تقبع وراء قضبان ليفين، واصبحوا محبطين وغاضبين من الملكة إليزابيث فعوضاً من استحسان مشروعهم، وإرسال المعونات المالية كالمعتاد، أصبحوا يستجدونه، إذ عاملتهم بوصفهم متمردين، وانهم سعوا سراً إلى حض عائلة هاملتن لإنقاذ ماري بالقوة، وقد كانت هذه العائلة ذات الشوكة والمراس في دومبارتون Dumbarton –وسط اسكتلندا– ترغب في تنصيب الأمير الشاب ملكاً، مع الوصي تشالتيلهيرولت، وان تطلق ماري من بوثويل وتتزوج جون هاملتن، الابن الثاني للدوق.

أحبطت تلك المخططات عن طريق اللوردات المتحالفين، وفي محاكمة عامة وجهت إلى ماري تهمة التواطئ في قتل زوجها دارنلي، وبسبب خشية بعض رجال القانون من الموت المفاجئ لها، اجبروها على التنازل عن العرش لابنها، وتعيين موراي وصياً عليه في ٢٩ تموز ١٥٦٧.

لم تعترف إليزابيث بجميع ذلك، وفكرت الحكومة الفرنسية في التحالف مع موراي، وان تأخذ هذه الإجراءات مسارها الذي تريد، وانها على استعداد ان تبقي سيدته في السجن او ان تُقتل او ان تُرسل لتقبع في دير فرنسي، وارسال قوات لدعم العقيدة البروتستانتية، لكن موراي لم يعط إذناً صاغية لهذه النداءات، وانتظر بترو حتى يرى ما ستقدمه إليزابيث.

وفي ٢ أيار عام ١٥٦٨ تمكنت ماري من الهرب من سجن بحيرة ليفين، وكان لموقف عائلة هاملتن المؤيد لماري السبب الكبير في اتخاذ الملكة اليزابيث موقفاً عدائياً ازاء حكومة الوصي، وبعد هزيمة لانجسيد Langside في ١٣ أيار من العام نفسه، أصبح من الصعب على ماري ان تفر إلى فرنسا أو اسبانيا.

لكن ما الذي يمكن ان يردع ماري من محاولة الهرب؟. ان كلاً من فيليب وكاثرين كانا قد رتبا أمر مناصرتها وبكلمة أدق لاستعمالها في تنفيذ مآربهم، لكن بما انها هربت من اسكتلندا وخسرت كل شيء، فانها لن تتوقع من اليزابيث سوى الشدة والقسوة.

كانت إليزابيث الملكة الوحيدة التي حاولت مساعدتها بشكل جاد، إذ كانت أعمال ماري تقبع على الدوام تحت سيطرة الاوهام بسبب ان الانجليز وعدداً كبيراً ممن يفضلون المذهب القديم (الكاثوليكي) على الجديد (البروتستانتي) اعتقدوا انها الوريث الشرعي للتاج، وان لديها حزباً ممتاز كالذي عند إليزابيث ان لم يكن الأفضل، وخلال نجاحاتها وازدهارها جعلت تكرر في طلباتها للسماح لها بزيارة المملكة الجنوبية، وكانت ماري تعتقد بان عرش إليزابيث سيهز إذا ما وطأت قدماها الأراضي الانجليزية.

ذهب الوصي إلى إدنبره بعد انتهـاء المعركـة، وفـي دنـدرينان Dundrennan وسط ماكسويلز Maxwells الكاثوليكية في اسكتلندا، ومنح اللورد هيريس Herries الامان لماري لمدة أربعين يوماً؛ وفي لحظة وضعت ماري في مركب لترحل به باستعجال صوب إليزابيـث وتوقـع الجميـع ان الأخيرة سترفض استقبالها، وعلى اية حال فان قدوم ماري كان غير مرحبـاً فيه، وفي حقيقة الأمر كان غير متوقع، ولعشرة سـنوات حكمـت إليزابيـث بنجاح لأنها استطاعت ان توفق بين المبادئ الأساسية لسياسـتها والأطـراف المعارضة، ولتجنبها أكثر القضايا سخونة التي تنتابها بين الفينة والاخـرى، فالتردد الذي كان يعد نقطة ضعف في سياستها وشخصها، والذي طالما اقلق وزراءها ومستشاريها، أسهم كثيراً في نجاح سياستها.

ان مركز انجلترا الخاص بين فرنسـا وإسـبانيا وبـين الكالفنيـة والكاثوليكية مكن حاكمها من لعب ادوار سياسية بكل حرية، وهذه قاعدة عامة قابلة للتطبيق في هذا المقام، ((لا تنفذ شيء للاشيء)). وقد أدركتها وفهمتهـا إليزابيث أكثر مما فهمها وزراؤها واعتمدت عليها كثيراً في وضع سياساتها. وعندما راحوا يتملقون للالتزام بها تجاسروا على السياسة، فهي كانت بسيطة وآمنة، واستلزمت خصائص الجرأة والهدوء، وهذا ما كانت تتمتع به الملكـة اليزابيث، ومن هنا لم تلقَ استحسان المؤرخين الذين أكدوا بان حالها هـذا اذا ما استمر فانه سيؤدي بها الى كارثة، وفي حقيقة الأمـر، حملـت اليزابيـث انجلترا إلى بر الأمان خلال الصعوبات المنقطعة النظير التي واجهتها.

ان وصول ماري إلى انجلترا كان غير مرغوب فيه بالنسبة لإليزابيث -كما ذكرنا-، وبدت احتمالية الضغط عليها لأجل إيوائها، فقاعدة ((لا تنفـذ

شيء للاشيء)) كانت ممكنة التنفيذ، وكان النبلاء الكاثوليك وطبقة نبلاء الشمال (الجنتري) قد سعوا من اجل دفع السلطة إلى وريثة التاج الانجليزي ماري ستيوارت، وانهم اعتقدوا ببراءتها من قتل زوجها، رغم الشك في تواطئها في هذه المؤامرة، وانهم افترضوا ان هذا لا يتعدى إلا ان يكون مجرد شك، ولم يتوقعوا بان التهمة ستكون رسمية، وان هذا الشك سيكون مدعوماً بدليل ساحق، ورغم ذلك ألزموا أنفسهم بقضيتها.

ان موقف هؤلاء الكاثوليك يمكن ان يشير إلى البعض من القساوة الأخلاقية، ولربما يخاصمون بإنصاف، لكن بأقل من الفلسفة التي تملكها إليزابيث نفسها، إذ انها مازالت معارضة لتوجيه التهمة ضد ماري وإدانتها، وانها ملتزمة بهذا التوجه رغم التردد الذي تميزت به، ولكن نيتها ازاء ماري قد تتغير في اية لحظة، إذ ان بقاءها على قيد الحياة يعني انها ستكون وريثة للعرش، وكأي من رجال الدولة العظام في زمنها، جعلت الأمور العلمانية فوق الآراء الدينية، واقتنعت بان حفظ مبادئ السلطة مهم جداً، ولا شيء غير ذلك يمكن ان يجعل من المجتمع متماسكاً وان يمنع التعصب الشديد من تمزيق الناس بعضهم البعض إلى إرب، ولم يكن هناك أية قاعدة أخرى للسلطة أهم من مبدأ التعاقب الوراثي بالبكورة، ولا يجب ان يعلق جانباً من قبل قصيري النظر، وإحلال مبدأ أو قانون سطحي محله، ليؤثر سلباً على التاج الانجليزي.

وإذا ما اقتنعت ماري بحق البكورة في الإرث، فان إليزابيث ستمنحها الحق في الوراثة وبذلك ينتهي النزاع بين الطرفين، لكن ماري كانت مشهورة بحياكة المؤامرات والدسائس، فكانت إليزابيث تخشى من ان تتربع ماري على العرش على حسابها، وعزت ذلك الى التفاف حشد كبير من بيرسي Percy

ونيفيلس عند كارليسلي حولها، وطالما تغنت ماري بذلك، وفي خيالها الدموي رأت نفسها سيدة في مملكة صريحة طردت منها لتزحف على رأس قضاياها الجديدة، لإنزال العقوبة على حاشيتها القديمة، وبدت انه من المحتمل ان تكون أكثر خطورة في منفاها في انجلترا من ملكة تحكم في اسكتلندا.

وأصبح لدى إليزابيث الآن سبب لتأسف على الحماسة غير الضرورية التي بها تبنت قضية ماري، وتذكر إليزابيث انه سيكون من المضحك إذا ما تعاطفت مع شخص تدرك في قرارة نفسها انه سيكون عدوها القاتل، فإليزابيث لم تكن كريمة ازاء النساء الأخريات، ويعدّ الكرم في هذه الحالة حماقة تستحق عليه اللوم. رغم ذلك فانها لم تكن تكره ماري، إذ كانت إليزابيث ذات مشاعر باردة على ان تكره، لكن يمكن القول انها كرهتها، كونها لديها غيرة من سحرها وجمالها، وفي الوقت الذي لم يكن احد يتوقع بان تكون ماري بين أيديها، لجأت إلى استخدام لهجة فيها الكثير من الشفقة والمودة.

ليس هناك ملك في التاريخ يسمح لمدعي التاج والوراثة ان يتنقل بحرية بين أملاكه، وتشكيل جماعات وتحزبات لصالحه على أرضه، وبدا ان هناك تدبيراً واحداً مقبولاً من حيث المبدأ، وحكيماً من حيث العمل، وهو ان تعاد ماري إلى العرش الاسكتلندي، مع ابقائها ضعيفة، وان تكون راضية بلقبها كملكة، ويكون السلطان الحقيقي بيد الوصي موراي. ان هكذا مبدأ سيوفر للعائلة الملكية الشرعية والحصانة الكافية، أما بالنسبة للكاثوليك الانجليز فسيوفر لهم الرضا لانتعاش فرصتهم في دعم مذهبهم.

ومن جانب سيسل فقد كان متلهفاً لرؤية ماري في اسكتلندا، لكن ليس بوصفها ملكة، رغم ذلك كان يُنظر إلى سيسل في داخل النطاق الكــاثوليكي على انه زنديق مستميت، وقد كان محقاً وداهية، ورجلاً مطّلعاً، ومن المحتمل انه اعترف بحكمة إليزابيث، وانها من الأهمية في انجلترا بان يكون لديها مُلكاً مشرّعاً من الدين المسيحي، لكن سيسل لم يقدم مشروعاً لتطبيق هذا المبــدأ. كانت أفكاره الشخصية مهمة جداً، لاسيما بالنسبة لإليزابيث التي كانت اصغر منه بثلاثة عشر عاماً، لكن من المحتمل كثيراً ان تموت قبله، عندها ســتكون ماري على العرش الانجليزي وبذلك سيفقد سلطانه ورأسه، لذا يجب عليه ان يراعي قانون البكورة بالنسبة لسيدته، وبقدر ما توجس خيفة من استيائها فانه سيسمح له بان يختار على الدوام بعضاً من الوسائل التي ستمنع عودة مــاري الى حيث كانت، وان سقوطها غير المتوقع كان بسبب الجريمة، وانها بــذلك سترسل إلى سجنها الأبدي، أو بكلمة أخرى إلى المقصلة.

دعت إليزابيث كل من ماري والوصي من اجل ان تعرض قضــيتهم على لجنة مؤلفة من: دوق نورفولك، وايرل سويكس، والسيد رالف ســالدر، وقد امتنعت ماري عن ذلك، وكانت مستعدة لمواجهة إي تحقيق، لكنها أُخبرت بانه حتى إذا ما تمت تبرئتها رسميا، فلا يمكن ان يؤذن لهــا بالــدخول فــي حضور إليزابيث، لكن طمأنت بشكل خاص بان إعادتها فــي أي حــال مــن الأحوال سيكون مؤمناً من دون الضرر بشرفها، واستلم الوصي موراي تعهداً وثيقاً بانه إذا ما أثبتت التهمة على سيدته وغدت مذنبة فلا يجب ان تعاد إلــى العرش الاسكتلندي، وقد منعت إليزابيث إثبات أسوء التهم على ماري بشــكل علني ومفتوح، وطالبت المفوضين بهذا الخصوص الاطــلاع علــى رســائل الصندوق الأصلية –الرسائل المتبادلة بين ماري وعشيقها بوثويــل–. ان اي

كشف علني للدليل تم منعه داخل المحكمة، وبدا ان هنالك نوعاً من البـراءة غير الواضحة أعلنت على الساحات العامة حيث العالم ينظر إلى شيء لا قيمة له، فعلى سبيل المثال: نكران أمر المجرم الحقيقي في التهمة، الذي كان في الحقيقة، الجواب الوحيد الذي يمكن لماري ان تتفوه به، ومثل هكذا درجة من التآمر صار حلفاؤها يبتعدون عن مناصرتها وتأييدها، وتمنت ماري على الدوام بان سيكون الحكم بسيطاً وخفيفاً، وانها ستكون سعيدة إذا ما تخلت إليزابيث عن عملها هذا.

وفي تشرين الاول ١٥٦٨ افتتح المفوضون أعمال المحكمة في يورك York، ولم يكونوا قد جلسوا طويلاً حتى اكتشفت إليزابيث مشروعاً يقضي بزواج نورفولك من ماري ونال المشروع استحسان العديد من النبلاء الانجليز، لكن لم يتبين ان غرضهم فيه شيء من الخيانة، كونهم اعتقدوا ان زواج ماري من رئيس طبقة النبلاء الانجليزية سيجعلها تستقر في انجلترا، وتتخلى عن مؤامراتها مع فرنسا، بينما وجودها سيقوي كثيراً حزب المحافظين الذي قد يرغب في مواصلة التحالف القديم مع إسبانيا، وسيبحث عاجلاً أم آجلاً عن إعادة المؤسسة الكنسية إلى المذهب القديم (الكاثوليكي) مع ذلك لم يمثل المشروع اية خيانة تذكر، لكنه شكّل مصدر ازعاج للملكة اليزابيث، فنورفولك كان بروتستانتياً بالظاهر فقط، لذا فقد احالته إلى لجنة ممثلاً عن حزب المحافظين، إذ يعتقد بانه من الممكن ان يقود نفسه صوب معاقبة ماري، فبعد الاطلاع على شخصيتها الحقيقية، رغم ذلك كله كان نورفولك مثل عائلة هاملتن وكامبيلس Campbells، ودوغلاسيس Douglases مستعداً لأخذها على علاتها وسمعتها السوداء، لسبب بسيط هو يمكن ان يكون لدى ماري فرصة لحكم انجلترا واسكتلندا في آن واحد،

ومستبعد ان يكون احبها قد كونه لم يرها أصلاً، ولبرهة من الزمن اندهش عند رؤيته للرسائل المتبادلة الموجودة في الصندوق، وبدا يشك في ان شرفه لا يمكن يسلم لمثل هكذا امرأة عن طريق الارتباط بها، وفي النهاية انتابه التردد في امر الزواج منها.

أوقفت إليزابيث اعمال اللجنة على نحو مستعجل، وطالبت بتحقيق آخر عن طريق النبلاء والرجال الأكثر أهمية في انجلترا، وأظهرت لهم رسائل الصندوق، والتصاريح. لم يستطع محامي ماري المحنك والمتحمس أسقف روس Ross ان يقول شيئاً ما عدا ان سيدته أرسلته على افتراض ان موراي يمكن ان يكون في دائرة الاتهام: عندما تركها تظهر شخصياً أمام الملكة، وان أفضل جواب على هذه الادعاءات هو ان تعترف ماري رسمياً بان التهم الموجهة ضدها كانت دامغة، إذ ان عودتها إلى اسكتلندا بات أمراً صعباً، وان موراي رفض اتهامه بشكل علني بجريمة القتل، أو بكتابة الرسائل، ولكي يتخلص من الإجراءات الثورية عند بحيرة ليفين، أجاز لها ان تعبّر عن وصيتها بمحض إرادتها، وأوصت بان يذهب التاج لابنها والوصاية إلى موراي.

استقرت ماري في انجلترا بعد ان وجدتها إليزابيث خالية من المشاكل والدسائس، وفي كانون الاول ١٥٦٨ تناقلت معلومات حول ضرورة تزويج ماري من رجل انجليزي لا لأهمية سياسية لكن لكي تنجب أطفالاً أكثر ليخلفوا جيمس الذي ربما سيموت في طفولته، وإذا ما سلمت ماري بهذه التهم الموجهة ضدها فيجب عليها ان (تلتزم الصمت الأبدي)، وإلا فان المحكمة يجب ان تمضي، والقرار الذي يصدر عنها لا يمكن ان يكون مريباً.

ان أية امرأة أقل حماسة وجرأة وبصيرة من ماري بالتأكيد ستترك المعركة عند هذه النقطة، وستوافق على الشروط المعروضة عليها، وانهم ما كانوا ليمنعونها من ارتقاء العرش الانجليزي إذا ما عاشت أطول مما ستعيشه إليزابيث، لكن هذا التأخير كان لا يطاق بالنسبة لماري، وان الحياة لا تساوي عندها شيئاً ذا بال إذا ما باتت الهزيمة من نصيبها، لذا كان الاعتزال والانطواء ولو لفترة من الزمن، وترك الطموحات طويلة الأمد الحل الأمثل بالنسبة لها، وكانت بذكائها تدرك وتتكهن بان الملكة إليزابيث ستستخدم الوعيد ضدها، لكنها لم تكن تتوقع الإعدام من جانب اليزابيث، إذ لم يكن هناك قرار محكمة ولم يشهر للعالم دليل واضح، وكثيراً ما أدركت ماري بانه من السهل إثبات التهمة ضدها، لذا فقد واجهت التطرف العظيم بشكل هادئ، وأقدمت على رفض الشروط المعروضة عليها.

لم يشأ فيليب حتى تلك اللحظة التدخل لمصلحة ماري، فبالنسبة إليه وإلى البروتستانت والكاثوليك بدا ذنبها واضحاً للعيان، وكان ذلك إحراجا وعاراً على القضية الكاثوليكية، وإذا ما كانت هناك حربٌ تلوح في الأفق مع انجلترا، فان جميع أعداء إليزابيث يمكن ان يكونوا سلاحاً بيدها، ووفقاً لذلك بدا فيليب بشيء من التردد في التفكير بمساعدة ملكة الاسكتلنديين، وتزويجها لأخيه جون النمساوي.

رغم ان حسابات إليزابيث كانت معقولة ومنطقية، إلا انها أصيبت بخيبة أمل. فقد اسقط التحقيق من دون أي قرار، وفي كانون الثاني عام ١٥٦٨ أرسل الوصي مع مبلغ صغير من المال إلى بلده، وبقيت ماري في انجلترا.

الفصل الخامس

مؤامرات الارستقراطيين ١٥٦٨-١٥٧٢

أكد سيسل منذ بداية عهد الملكة اليزابيث بان بلاده معرضة في أي وقت من الاوقات لغزو فرنسي واسباني وهذا من دون شك سيصب في مصلحة بابا روما، لذا يتوجب الإسراع في تشكيل اتحاد بروتستانتي، وإعانته بقوة لمواصلة حربه المذهبية في القارة. من المؤكد كان سيسل حسن الاطلاع عندما اعتقد بامكانية قيام فرنسا وإسبانيا بغزو انجلترا وكان حكيماً الى حد بعيد عندما ادرك بان الغزو سوف لن يقع في هذا الوقت على اقل تقدير، وسيتكاتف اللوثريون والكالفنيون لأجل الدفاع المشترك، اذا ما حدث ووقع الغزو.

وقفت إليزابيث من جانب آخر ضد الرأي القائل بضرورة التدخل في اوضاع القارة الاوربية، كون ذلك سيجلب كارثة الاحتلال الى انجلترا. كانت إليزابيث تأمل بان تحكم جميع الأطياف والمذاهب داخل انجلترا على حد سواء، لا ان يرغمها سيسل بان تعول فقط على البروتستانت بوصفهم سلاحاً في النزاعات، فاليزابيث تسعى إلى تهدئة المخاوف الطبيعية لكل حزب وطائفة من خلال تحقيق العدالة بينهما وأن لا تكون طائفة معينة ضحية عنف دون طائفة أخرى، وهذا ان حدث فانه يزيد من احتمالية التعرض للاحتلال الأجنبي، وفي تلك اللحظة كان على إليزابيث ان تكسب الوقت، وبسياستها المعتدلة ربحت عشرة سنوات ثمينة، فهي كانت سنربح عشرين عاماً لولا قرار إسبانيا في اطلاق أسطولها الارمادا العظيم The Great Armada،

ورغم ذلك تجنبت إليزابيث الحرب مع إسبانيا، وملكها فيليب الثاني الذي كان عدو اليزابيث اللدود، وان جميع التوقعات تنذر بخسارته امام انجلترا واليزابيث.

لقد صودرت جميع السفن الانجليزية الراسية في القنال الانجليزي من قبل الاسبان، وحُمّلت الغنائم من داخل الموانئ الانجليزية من دون ان يكون هناك إي استنكار أو لوم يذكر. شكلّت هذه التجاوزات روح الانتقام عند البحارة الانجليز الذين وقعوا ضحية في أيادي ما يسمى بمحاكم التفتيش، وعملياً فان السفينة ذات الحمولة الثمينة تم التعامل معها بغض النظر عن جنسيتها، لكن في البلدان الأخرى كانت المعاناة ترافق التجار ممن يقومون بأعمال فردية وخاصة لدى إسبانيا.

احتج النبلاء الانجليز على هذه الإجراءات غير القانونية، حتى ان سيسل لم يخفِ شعوره المعادي إزاء الاسبان الذين تبنوا الفوضى وعدم الشرعية في تعاملهم مع السفن الانجليزية، وهذا مادفعه الى اقتراح اعمال القرصنة داخل الأسطول البحري الملكي، لكن لم تكن إليزابيث لتوافق على ذلك، رغم ان نشاط القرصنة يمكن ان يمنحها كل ما تتمناه كما لو كانت في حرب ومن دون أية أضرار يمكن ان تصيبها، فبدلاً من ان تلقي بثروتها داخل أسطولها البحري، بإمكانها ان تحصل على الإيرادات الضرورية من مغامرات القراصنة أمثال جون هاوكينس Hawkins (١٥٣٢-١٥٩٥) و قريبه فرانسيس دريك Drake (١٥٤٠-١٥٩٦)، بينما ستكمن مهمة السفن والبحارة المتطوعين في الأسطول في المرابطة والدفاع عن البلاد متى ما ظهرت الحاجة لذلك.

لم يسعَ فيليب إلى إعلان حالة الحرب، بل كل مـــا هنالـــك مجـــرد إجراءات تحريضية، وفي كانون الأول عام ١٥٦٨، كانت بعض السفن تحمل مبالغ ضخمة من المال المقترض من فيليب في جنوا Genoa لأجل صـــرف رواتب جيش القائد دون فرنانـــدو Don Fernando (١٥٠٨-١٥٨٤) دوق ألفا Alva وقائد القوات الاسبانية في ايطاليا، بعد ان أخـــذت حـــذرها مـــن الموانئ الانجليزية لتفادي اعمال القرصنة، وقد وافقت إليزابيث -بمشـــاورة سيسل- على الاستحواذ على هذه الأموال، وأخبرت بانهـــا ســـتقوم بنفســـها باستعادة الاموال من جنوا، وتمنى سيسل ان تكون هذه مقدمة لاعلان الحرب، ادركت الملكة اليزابيث بشكل صائب ان امتعاض فيليب ما زال دون درجـــة إعلان الحرب، رغم اعتراضاته وتهديداته واستيلائه على جميع سفن البحارة الراسية في موانئه. لم تكن إليزابيث تهاب ذلك، إذ أدخلـــت جميـــع الأســـبان والفلمنجيين Flemings الذين من الممكن ان تجدهم في لندن إلـــى غيابـــات سجونها، وصادرت سلعهم لتكون ضمن الملكية الانجليزية.

كان سلوك إليزابيث مغايراً للسلوك المتبع إزاء اسبانيا اذا ما قورن بالسلوك المتبع ازاء فرنسا فعندما هددت الاخيرة انجلترا، ما لم تتعهد بغلـــق موانئها في وجه الهيجونت، وحظر أعمال القرصنة التابعة لها التـــي تســـطو على التجارة الفرنسية، فقد امتثلت انجلترا بسرعة لهـــذا الطلـــب، وحصـــلت التسوية بشكل كامل في نيسان عام ١٥٦٩، ومرجع ذلك ان فرنسا كانت اقل خصومة ورعباً من إسبانيا، إذ لم تكن الحكومة الفرنسية تمتلك الوسائل الكافية لغزو انجلترا، في حين ان الشعور القديم المعادي للفرنسيين كان نشطاً جـــداً لدرجة ان جميع الأطراف كانت مســـتعدة وجـــاهزة للاقتتـــال، وان هزيمـــة

الهيجونت في جارناك Jarnac –جنوب غرب فرنسا– في نيسان ١٥٦٩ كان له علاقة بالتزام وإذعان إليزابيث، لكن ان أكثر ما اثّر في سياستها هذه إدراكها الجيد بان حربها مع فرنسا ترغمها على ان تضع نفسها تحت حماية إسبانيا، لذا رغبت في التأهب الدائم لإسبانيا، ولجعل ذلك فهماً جيداً لفرنسا، كما فعل اليوت Eliot (١٥٩٢–١٦٣٢)، وبيم Pym (١٥٨٤–١٦٤٣)[1] وكرومويل Cromwell (١٥٩٩–١٦٥٨) بعد ذلك، وقد وقفت إليزابيث وحيدة في اجتهادها في مثل هكذا امور.

ان النزاع مع فيليب كانت له آثار سلبية داخل الاراضي الانجليزية أكثر بكثير من خارجها، فهذا النزاع اثار على نحو غير مباشرة التمرد الانجليزي الذي طالما أزعج إليزابيث لفترة طويلة من عهدها.

ان اغلب طبقة النبلاء والجنتري –رغم إشهار بروتستانتيتهم– أسفوا كثيراً عندما انسلخت انجلترا من الكنيسة الكاثوليكية العالمية، وكان هناك نبلاء أمثال سويكس ممن صمموا على خدمة الملكة بإخلاص وحماسة، وتمنوا ان تسعى إلى ايجاد نوع من التقارب مع فيليب لأجل الزواج من الارشيدوق شارل النمساوي، لعدم إعطاء أية فرصة للقراصنة، وللاقرار بماري بوصفها وريثاً شرعياً للعرش الانجليزي، وكان هناك نبلاء أمثال مونتاجو وآرانديل Arundel وساوثامبتون Southampton لديهم علاقات مشبوهة مع السفير الإسباني، لإسقاط سيسل، وتبني مشروع زواج ماري ستيوارت من نورفولك،

---

(١) يعد بيم مهندس الثورة الانجليزية التي قامت في اربعينات القرن السابع عشر ضد الملك شارل الاول (١٦٢٥–١٦٤٩).

وإرغام الملكة اليزابيث لإعادة المذهب الكاثوليكي، ومتى ما نجحت ماري في مسعاها، سيسهل ذلك إعادة لم الشمل مع روما، وهناك طرف آخر بزعامة لوردات الشمال من الكاثوليك ممن كانوا يخططون لخلع إليزابيث لصالح ماري، وزواج الأخيرة من الدوق النمساوي. كانت قوة معارضة النبلاء من الممكن ان تخلع أي ملك من عرشه قبل عملية الإصلاح الديني.

ان رفض ماري لشروط إليزابيث تزامن مع النزاع مع فيليب في كانون الأول ١٥٦٨، واعتقد النبلاء الغاضبون ان الوقت قد حان لأجل توجيه ضربة لإليزابيث. ان الحق الذي كان يضمن حق الولاء الإقطاعي لطبقة النبلاء والجنتري إلى زعاماتهم المحلية قد الغي وأبطل بشكل كبير من قبل السلطة المركزية في زمن آل تيودور، وكانوا يلحون بالتماساتهم المرسلة إلى فيليب بان يعطهم الإذن للتمرد من خلال إرسال قسم من جيش القائد ألفا المرابط في هولندا للانقضاض على انجلترا.

كان فيليب حذراً كالعادة – كونه يخشى اندفاع انجلترا صوب التحالف مع فرنسا–، لذا رفض إرسال جندي واحد، حتى يسقط سيسل عن طريق حزب نورفولك او ان ينفذ لوردات الشمال المهمة بمساعدة ماري، وما بين هذين الفئتين كان هناك ارتياب وظن، وقد فكر السفير الاسباني بمخطط أكثر نجاحاً، فعمل بصعوبة على إقناع لوردات الشمال بالانتظار لحين إقناع الملكة اليزابيث بضرورة الموافقة على مشروع زواج ماري بنورفولك، وإذا ما رفضت ذلك فعليهم ان يهاجموا وينجفيلد Wingfield في مقاطعة ديربي Derby حيث تقبع ماري هناك، بينما سيتولى نورفولك قيادة المقاطعات الشرقية.

ان جميع هذه المؤامرات كانت قد وقعت خلال صيف عام ١٥٦٩، ولثلاث مرات ذهب نورفولك برفقة عمه ارانديل إلى المجلس لأجل اعتقال سيسل، وجميع هذه المحاولات باءت بالفشل، وان لوردات الشمال الذين لم يكونوا اعضاءً في المجلس، قدموا إلى لندن ليشاهدوا بأم أعينهم كيف يحاول نورفولك وضع الجرس في عنق القطة (يقصد سيسل)، وبدا ان سيسل قد حوصر، ففي نصيحته الخاصة إلى الملكة اليزابيث أوصى بضرورة منع زواج ماري بنورفولك، وأوضح ان ماري سواء أكانت سجينة أم طليقة في انجلترا أم في اسكتلندا، متزوجة أم عزباء فانها خطرة، واقترح ان تعدم داخل انجلترا لتواطئها مع المؤامرات الانجليزية.

اقترحت إليزابيث ضرورة تزويج ماري من رجل انجليزي، بكلمة أخرى من نورفولك، خاصة إذا ما احست إليزابيث بأية ثقة في ولاء نورفولك رغم كرهها لهذا الزواج، وقد أهملت التصريح الرسمي العام لطبقة النبلاء الذي يمكن ان يصب في صالح الزواج، لكن موهبة اليزابيث الخاصة من كان ينتشلها من بين المخاطر المحدقة بها، وبعد التشاور بتأن أخبرت الدوق (نورفولك) لإخلاصه بضرورة التخلي عن مشروعه، وقد أعطى تعهده بهذا الشأن، ولكن بعد ذلك بقليل اعتزل الحياة راحلاً إلى مقاطعته الخاصة، وأرسل كلمة إلى ايرلات الشمال يقول فيها: "انه سيصمد ويصبر على المجازفة". وبينما كان يرتعد ويتردد، عملت إليزابيث من دون تأخير على ارسال ماري بعجالة إلى قلعة تتبري Tutbury وأُستدعي كل من آرانديل وبمبروك Pembroke إلى وندسور Windsor وجاء نورفولك بهدوء إلى البرج، وبذلك انهارت المؤامرة الجنوبية في أيلول–تشرين الأول عام ١٥٦٩.

كان اللوردات الشماليون الكاثوليك ينتظرون إشارة من نورفولـــك، لكنهم صُعقوا باستسلامه الضعيف والمهين، لم يهتم سويكس الذي كـــان فـــي قيادة يورك برؤية البيوتات النبيلة القديمة تنهـــار امـــام ناظريـــه، وأوضـــح لإليزابيث بان العديد منهم كانوا من الخونة، وأثنى عليها كثيراً كونها لم تشن هجوماً عسكرياً عليهم.

كانت اليزابيث ترغب بان تدعم قوات ساوثهامبتون ومونتاجو ضد قوات ألفا بمقاومة شعبية وربما بإمكانها تجاهل عدم رضا نبيل جنوبي، فـــأي ملاّك امثال سويكس أو تابع –وان لم يكن بروتستانتياً– يفكر مرتين قبـــل ان يُقهر بأرضه ويُدفن مع تمرده، أما المقاطعات الشمالية فكانت كاثوليكية بشكل رئيس، ومتأخرة كثيراً عن الجنوب في مضمار الحضارة، فملوك آل تيودور لم يتطلعوا هناك أبدا، وادركت إليزابيث بان التمرد من المحتمـــل ان يؤجـــل وهذا سيشكل خطراً ثابتاً يعيق سياستها كثيراً، لذا قررت الانتهاء من ذلـــك، واستدعت كل من نورثمبرلاند وويستمورلاند Westmorland إلى لندن.

وفي ١٤ تشرين الثاني ١٥٦٩ قاد هؤلاء الايرلات تمرداً ودخلـــوا درهام Durham بقوة السلاح، وفي اليوم التالي توجهوا جنوباً، بهدف إنقـــاذ ماري من سجن تتبري، وهذا ما دفع شـــروزبري وهنتجتـــون الـــى طلـــب المساعدة من لندن. كانت قوات المتمردين تبعد ما يقارب (٥٠) ميلاً من ذلك المكان (تتبري)، وقد استراح المتمردون مدة ثلاثة أيام ثم عـــاودوا مواصـــلة زحفهم، فكان كل من كلنتون Clinton ووارويك Warwick قد اتبعا طريقهم وتجمعوا وسط البلاد، وقبل نهاية كانون الأول كانوا مستعدين لاجتياز الحدود. كان نورثمبرلاند معتقلاً من قبل الوصي موراي، وبعد مرور ســـنتين أطلـــق

سراحه وأرسل إلى إليزابيث ليعدم، أما ويستمورلاند، فبعد ان كـان محمياً لفترة من الزمن من قبل كير فيرنيهيرست Ker of Ferniehirst فقد هـرب إلى هولندا حيث مات هناك، ولم تزعج هذه التمردات انجلترا مرة ثانية حتى اندلاع الحرب الأهلية الانجليزية العظيمة (١٦٤٢-١٦٤٩).

ان فشل ايرلات الشمال في قيادة التمردات كـان بسـبب الحـذر وسياسة المماطلة التي اتبعتها إليزابيث إزاءها، ومازال الحزب القوي الـذي فضّل التحالف مع إسبانيا وبغضه للتغيير المذهبي، والتطلع إلى وراثة ماري ستيوارت للتاج الانجليزي يسعى صوب انجاز ذلـك علـى نحـو قـانوني، فسياستهم القانونية لم تكن محظورة أو حتى مُنكرة، وان البعض من زعمائهم الرئيسيين كانوا أعضاء في المجلس والحكومة، وبعضهم الآخر شغل منصب وزير لدى الملكة اليزابيث، لكنهم وقفوا ضد إشعال فتيل حرباً أهلية من جانب لوردات الشمال، ممن لم يكونوا من ضمن المجلس وكانوا قد ابعدوا من لندن، فهم متمردون بالفطرة، لكن إذا ما قامت إليزابيث بشكل علني بوصم مـاري ملكة الاسكتلنديين بالقاتلة، وإذا ما أشارت إلى هنتجتون أو إلى ابن كـاثرين جري بوصفه وريثاً لها، وإذا ما وضعت نفسها على رأس اتحاد بروتستانتي، فانها ستنال انتصاراً عريضاً من دون ان تكون هناك حرباً أهلية، لكن كـان بالامكان ان تكون هناك حرباً أهلية ومن أسوء اصـناف الحـروب ودعـوة الحزب الواحد في إسبانيا وآخرون في جميع الاحتمالات من اجل الانسـياق والاتصال بفرنسا، وفي ٢٣ كانون الثاني عام ١٥٧٠ اغتيل موراي، وكانـت هذه الحادثة ضربة موجعة إلى إليزابيث، وكارثة يصعب إصلاحها وتفاديهـا بالنسبة لبلاده اسكتلندا، وهذا أعطى انطباعاً لدى الملكـة الانجليزيـة بانهـا

المسؤولة عن حادثة اغتياله؛ كونها لم تقدم الدعم العسكري لإسناده في اسكتلندا، فهو الى حد ما رغب في قيادة لاستلام جيش انجليزي إلى داخل اسكتلندا وطالما تمنت اليزابيث إرساله، ففي هذا المقام يمكن القول ان إليزابيث وموراي كانا أعقل وادهى من نقّاد يومهم ذاك أو حتى يومنا هذا، فهو كان قد اعترف بجيمس وريثاً للعرش الانجليزي ولاجل ذلك كثيراً ما كان يطالب الملكة اليزابيث بضرورة إرسال الاموال اليه. وافقت إليزابيث ذلك لاعتبارات عدة منها: اعتقادها بان دفع الأموال لأجل إي عمل يمكن ان يحقق لها النتائج المرجوة، أكثر مما لو كان القيام به مجاناً.

كانت اليزابيث تدرك قيمة موراي الكبيرة، وعندما سمعت بنبأ موته عم الصمت عليها ودخلت غرفتها وأخذت تبكي وتنوح. كونها فقدت أفضل صديق لها في هذا العالم كله، فقد استطاع موراي طيلة فترة حياته إبقاء لوردات ماريان تحت المراقبة، وهذا ما ممكن إليزابيث من ان تحكم بنوع من السيطرة.

لم تكن اسكتلندا لتخاطر باستدعاء الإمبراطورية الانجليزية من اجل حل مشاكلها، فهذا من دون شك سيؤدي إلى مجيء قوات فرنسية إلى داخل اسكتلندا ايضاً، وسوف يجعل هناك ذريعة لتأسيس محمية انجليزية على الأراضي الاسكتلندية.

اضعف موت موراي حزب الملكة في اسكتلندا الذي بات من الضروري تقديم يد العون له، واعتقدت إليزابيث ان الاقدام على مثل هكذا خطوة سيثير حفيظة فرنسا، وأخبرت الوصي الجديد لينيكس – رغم انها لا تستطيع إرسال جيش لدعمه– بانها سترسل جزءاً من القوات لمعاقبة عائلة

هاملتن وبوردرير Borderer التي آوت أحد الايرلات المتمردين ممن حاولوا جعل جميع الهجمات تتركز على حدود انجلترا، لكن بفضل المراقبين الانجليز فقد تهاوت اعداد كبيرة من المتمردين والعصاة في نيسان-آيار عـــام ١٥٧٠، وقد رغبت إليزابيث أكثر من أي شيء آخر بضرورة جعل الاستقرار يتوطد في الداخل الاسكتلندي، وبالشروط التي لا يجب ان تكـــون ســـلطوية علـــى الاسكتلنديين. كانت هذه الأوضاع غير مرضية بالنسبة لسيســـل، لان إعـــادة ماري الى اسكتلندا سيضمن وراثتها للعرش الانجليزي، وهذا سيشكل انهياراً لسيسل، ومطلقاً لم يحبذ سيسل المصالحة مع الكاثوليك سواء داخل الـــبلاد أو خارجها، وكان يرغب في إشراك سيدته بحرب دامية معهم، وفي نقاش محتدم مع آرانديل داخل لجنة المجلس حول الوضع والتوقيت، أفشى من غير تفكير ما يجيش في قرارة نفسه، من ان الملكة لا تقرب إليها إلا مـــن كـــان علـــى المذهب البروتستانتي، وإذا ما أعادت ماري، فانها ستهجرهم جميعـــاً، وهـــذا مادفع الملكة اليزابيث الى زجره وتأنيبه.

كان سلام القديس جيرمن The Peace of St.Germain ما بـــين البلاط الفرنسي والهيجونت في ٨ آب ١٥٧٠، متبوعاً بمفاوضات لعقد معاهدة ثلاثية بين انجلترا وفرنسا واسكتلندا على أساس إعادة ماري، ومما لا شك فيه فقد أصرت إليزابيث على الضمانات التي طالما خططت لها، ورغبت في ان تُترك اسكتلندا وشأنها، شريطة ان تفعل فرنسا الشيء نفسه، ومن جانب آخر، شعر الفرنسيون بان هذه التسوية في مثل هكذا تدابير كانت خيالية أكثر ممـــا هي حقيقية، بسبب ان هناك قوات انجليزية دائمية فـــي بيرويـــك Berwick والتي تبعد حوالي (٦٠) ميلاً من إدنبره، وفي غضون ذلك راحوا يســـاومون

على الضمانات، ورغم رغبة كاثرين وشارل التاسع ملك فرنسا في إقامة تحالف مع إليزابيث ضد الملك الاسباني فيليب الثاني، إلا انهما واصلا إرسال الأموال والدعم المعنوي إلى لوردات ماريان في اسكتلندا، لذا ولأجل ذلك، يجب ان لا يسقط التحالف الانجليزي، فهم قصدوا من وراء ذلك الموافقة على زواج اليزابيث من دوق انجو الذي راح يُعرف فيما بعد بهنري الثالث (١٥٥١-١٥٨٩) ملك فرنسا.

كانت إليزابيث تعرف بكل مايدور من حولها، وفي قلقها المفرط من المعاهدة الثلاثية، فكرت في مجيء اللحظة التي يتعلق في طُعمها (الزواج) الذي أُحتفظ به للأحداث ذات الأهمية الخاصة. وأخبرت إليزابيث السفير الفرنسي بانها مستعدة للزواج من دوق انجو، ولم يكن هناك من يعتقد ان يكون لديها اقل نية من ذلك، فأي تحرك بسيط من جانب اليزابيث يمكن ان يجعل هناك أملاً في قضية زواجها. كانت المعاهدة الثلاثية مجرد وهم، وان الوضع الآمن ممكن فقط في التمسك بغضب الاسكتلنديين وتأييدهم لجيمس بكامل قواهم ليكون الوريث الشرعي للتاج الانجليزي. بدا هذا الأمر مضحكاً بالنسبة لسيسل، لكنه رحب به، فأي شيء يجعل من إليزابيث أماً سيكون إنقاذا له، فهل زواج الملكة البالغة من العمر (٣٧) عاماً سيكون سعيداً مع رجل يبلغ من العمر (٢٠) عاماً؟. لم يعر سيسل أي اهتمام لمثل هكذا تساؤلات.

ان المحادثات الخاصة بالزواج استمرت خلال الأشهر الستة الأولى من عام ١٥٧١. وفي الوقت نفسه استدعيت الاطراف الاسكتلندية لقبول المعاهدة الثلاثية. كانت ماري في بادئ الأمر متحمسة لذلك، وكلفت وكيلها أسقف روس، بان يتقبل جميع الشروط برحابة صدر التي من المحتمل ان

تفرض، إذ كانت تبغي من وراء ذلك تحرير نفسها، لكن كان هناك دليل دامغ على استعدادها للتخلي عن أية شروط، وتكافح من اجل قضيتها عندما تحصل على مساعدة فرنسا بشكل مؤكد لاجل تحقيق غايتها، وعلى أية حال تجنب حزب الوصي قبول المعاهدة، فقد كانوا يخشون عودة ماري، ولم يكن لديهم نية التصالح مع لوردات ماريان، أوإشراكهم في الحكومة، وهكذا سقط المخطط الثلاثي، فماري توقفت عن الاهتمام بالأمر حالما سمعت بمشروع الزواج بين إليزابيث وآنجو، ورأت بانه إذا ما تعاملت فرنسا بمودة مع انجلترا، فان سيادتها في اسكتلندا ستكون اسمية ومجردة، وربما ستمكث مع لورد شرميروزبري، Shrmerwsbury، وتبقى بشكل هادئ داخل انجلترا وترضى بمركزها بوصفها وريثة للعرش الانجليزي، وهذا سيكون آمناً بالنسبة لها، وعليها ان تتخلى عن مخططاتها، ولربما عاشت في انجلترا في احترام كبير، وبقدر من الحرية وبما تفضله هي، وإذا ما تمنت الزواج، فبإمكانها ان تتزوج من أي شخصية انجليزية تكون موضع ثقة لدى إليزابيث، وان من صالح الأمتين ان تتزوج وتنجب الأطفال، إذ يجب ان يكون في الحسبان بانه إذا ما مات جيمس في طفولته، سيكون الوريث القادم من هاملتن، الذي لم يصادق أحدٌ على وراثتهم للعرش الانجليزي، وإذا ما تم الزواج بانجو على أكمل وجه كما تمنت إليزابيث، فعلى أقل تقدير ان جميع مخططات اتباع ماري لإفساد النظام الانجليزي ستبوء بالفشل، وان الذريعة القديمة لمنع الزواج النمساوي ستعود مرة أخرى، وعندما بدأت الحكومة الفرنسية بالحديث عن الزواج بين انجو واليزابيث، بدأت الاخيرة بالتحدث حول إعادة كاليه، وقد راقب سيسل بحزن كيف تتلاشى احلامه، ولم يكن

ينوي زرع الرعب في قلب إليزابيث بان يدعّي بان أميراً مهجوراً مثل انجو يمكن ان يتحول إلى عدو لدود، لكن إليزابيث قدّرت الوضع بشكل أفضل منه وحاولت تداركه بحكمة، فقد أفهمت انجو انها لم تقصد الارتباط به، ولأجل تفادي مذلة الرفض سعى انجو إلى قطع المحادثات المتعلقة بامور الزواج، وجرت الامور كما تشتهيها إليزابيث إذ لم يكن هناك إي تحامل من التحالف الجديد، فالملك الفرنسي ذهب إلى القول: "ان تعاملها المعتدل هو شرف لمملكة انجلترا خلال حياتها"، أما كاثرين (الوصية على العرش الفرنسي) لم تكن عاطفية إزاء النساء، قدمت عرضاً آخر لاليزابيث لاجل الارتباط بابنها الشاب البالغ من العمر (١٧)عاماً.

وأثناء محادثات آنجو-إليزابيث، ظهر إلى الوجود ما يعرف بمؤامرة ردولفي Ridolfi -نسبة الى روبيرتو دي ردولفي- موجهة ضد إليزابيث. وردولفي هذا كان مصرفياً ايطالياً يعمل في لندن، ولكنه في حقيقة الأمر كان وكيلاً للبابا. كان لردولفي علاقات وثيقة مع نورفولك ونبلاء آخرين خونة، مازالوا يضغطون على الملك الاسباني فيليب لأجل غزو انجلترا، لكن الأخير وقائده ألفا اضعف من ان يقدموا على مثل هكذا امر، خاصة بعد انهيار التمرد الشمالي، ولكي يُثار فيليب بأهمية المؤامرة ذهب ردولفي إلى مدريد، وعرض عليه ما يمكن ان يكتب في رسالة تكتب بيد نورفولك، وسيرفق معها قائمة باسماء النبلاء ممن لديهم المقدرة الكافية لتنفيذ المؤامرة، واحتوت القائمة على (٦٧) من النبلاء، أربعين منهم وقفوا في الطرف المعادي لاليزابيث، و(١٥) وقفوا بصدق إلى جانب إليزابيث، أما ما تبقى منهم فقط التزموا جانب الحياد، لكن هذا التصنيف كان غير دقيقاً

وبالتالي لا يمكن الركون اليه، ومهما يكن من امر فهو لم يثر انتباه الملك فيليب، كونه كان يرغب بالعمل الجاد، فاخبره ردولفي من انه لا يمكن إرسال جندي اسباني واحد إلى انجلترا ما لم يتم اغتيال أو سجن إليزابيث، ومهما يكن من سخط باطني بين النبلاء، فقد أوضح مجلس العموم الجديد المنتخب في ربيع عام ١٥٧١ بانه يقف بشدة الى جانب الملكة اليزابيث ضد اعدائها في الداخل والخارج. لم يكن جميع أعضاء العموم من البروتستانت المعتدلين، بل كانت هناك اعداداً كبيرة من المتزمتين البيورتان، لذا فان اية قائمة مررت أو ستمرر من قبل إي شخص يرفض الاعتراف بحق إليزابيث في التاج فانها ستعد باطلة، والطلب الذي لم يسمِ ماري وريثة للعرش لا يمكن ان يُصادق عليه، وستكون عقوبة من ينكر وراثة التاج الخيانة العظمى التي يمكن إقرارها من قبل الملكة والبرلمان.

كانت مؤامرة ردولفي في الحقيقة من المؤامرات الارستقراطية التي لها مثيل في التمرد الذي اندلع في الشمال، وان قوة ذلك التمرد قد اندلعت قبل ان يفكر المتآمرون في الجنوب في ما سيصنعون، وهذا ما منح الحكومة الانجليزية الفرصة في تحطيم مؤامرات النبلاء. كان توقع القائد ألفا في محله، فعائلة بيرسي Percy ونيفيل، Neville وداكري Dacre وحتى جماعة هاورد Haward صاحبة الأملاك والعقارات الواسعة لا يمكن لهم جميعاً ان يفعلوا الكثير. وفي الواقع كان هناك بعض الاخبار تتناقل فيما بينهم بان إليزابيث استولت على البرلمان لدى افتتاحه عام ١٥٧١، وكان هناك خبر آخر حول اعتقال سيسل منذ سنتين مضت، وفي حقيقة الأمر كان هذا التمرد ذو تأثير صغير على انجلترا، ولو كانت مقدرة نورفولك عشرة أضعاف مما

كانت عليه لما استطاع ان يحدث فرقاً على الإطلاق، ولن يقرّ التاريخ الحقيقي بان هناك نحيباً متبادلاً بين سيسل وفرانسيس والسـينغهام (١٥٣٢-١٥٩٠) وبقية العصبة البروتستانتية، وان الغضب الذي تولد إزاء إليزابيث جاء بسبب عدم السماح لهم بان يلعبوا لعبتها اليساسية من أجلها، وهذا من دون شك عناد غريب استمر في تبني الآراء التي تقول بان إليزابيث على شفا جرف هـار، وان الحقيقة المسجلة بان البروتستانتية كانت تسير بخطوات واسعة وسريعة، وشعبية الملكة كانت تزداد يوماً بعد آخر، وان إسـبانيا وفرنسـا واسـكتلندا البلدان الوحيدة التي كانت تشكل قلقاً مضنياً للملكـة اليزابيـث، وان جميـع المتقدمين بالطلب المتواضع لأجل التحالف معها كانوا يرجونها بأية شـروط للموافقة عليها.

ان مراسلات فيليب مع القائد ألفا تبرهن بان وجودهم هناك يمكن ان يسحق عن طريق الهجمات الانجليزية المتكررة، وهذا ما اجبرهم على البقاء بسبب ان أية مجازفة بحرب يمكن ان تضعف من قبضته على هولندا، ورغم الدعوات التي أطلقها نورفولك ونورثمبرلاند للقائد ألفا إلا ان الأخير بحسـن اطلاعه لم يعطهم أذنا صاغية، بسبب اعتقاده بان الملكة إليزابيث قوية جـداً على ان تنهار بسرعة، وانه إذا لم يكن في اسكتلندا أية قوات أجنبيـة فلـيس هناك خطر على انجلترا.

هكذا عرفت سياسة إليزابيث في خطوطها العامة، إذ يمكن تحقيق النجاح الصعب في بساطتها. كانت إسبانيا التي ما زالت أمل للنبلاء الخائنين ومركز الرجعية تهدف إلى إضعاف مركز انجلترا قـدر الإمكـان مـن دون اللجوء إلى حرب مفتوحة معها، وان شارل التاسع وأمـه كـاثرين مديتشـي

يرغبان بتحالف دفاعي مع انجلترا، وإدراك انه لا يحق لاية دولة ارسال قوات إلى اسكتلندا، أو السماح لإسبانيا بالإقدام إلى مثل هكذا عمل. ان هذه السياسة كانت بسيطة ومتماسكة، وناجحة والجميع يدرك ذلك، ولم يكن هناك أي شيء عاطفي ووجداني يدور حول اليزابيث، ومع ذلك، كان الكثير من الأفراد مهتمين بها، وإجمالا أبقت نفسها ضمن دائرة وجهة النظر الانجليزية، بينما كان سيسل مكرهاً لان يبقى ضمن دائرة وجهة نظر (إخوته في الدين) في الداخل والخارج. على أية حال، فان جميع المؤامرات كانت قد كُشفت وسُحقت على حد سواء، وانه تم الكشف -بما فيه الكفاية- عن نية الرجال الانجليز من أصحاب الرتب العليا ممن يخططون للقيام بأعمال خيانة، فهم مرتابون، لكن لم يستطع احد من الحصول على دليل كاف يدين من خلاله نورفولك، وآرانديل وساوثامبتون، ولوملي Lumley وكوبهام Cobham السفير الاسباني، وأسقف روس وماري نفسها وذلك في أيلول عام ١٥٧١، وبالتالي أرسل نورفولك إلى البرج، والنبلاء الآخرون تم إيقافهم، أما السفير الإسباني فقد طُرد، أما ماري التي عاشت حتى تلك اللحظة ضيفاً لدى اللورد شروزبري، فقد حُبست في حجرة ذات سرير واحد، ولفترة من الزمن، عُزلت عن أي اتصال مع العالم الخارجي، وتوقعت من انها ستُجلب للمحكمة وتنفيذ الحكم الذي سيصدر عليها في انجلترا، وكان جيمس رسمياً قد صمم بان يكون الملك، وأمه ماري مجرد (ملكة سابقة). ان أنصار ماري اعلموا في إدنبره بان ملكتهم يجب ان لا تُعاد الى العرش مرة اخرى، وإذا لم يسلموا القلعة إلى الوصي الجديد مار Mar فان قوة انجليزية سترسل لتنفيذ هذه المهمة.

كان النبلاء في عهد آل تيودور وآل ستيوارت يتعرضون لعمليات الاعتقال والقتل. ولم يستثن نورفولك من ذلك ففي كانون الثاني عام ١٥٧٢ حكم عليه بالسجن ومن ثم أُرسل الى المقصلة.

كانت هناك العديد من الإجراءات القانونية والتي طبقاً للأفكار الحديثة تعد غير عادلة بالنسبة للمهتمين، لكن كان هناك العديد من النبلاء اعترفوا بانه كان مذنباً، واعترافهم هذا كان في محله، فالتحقيقات اللاحقة أثبتت من دون شك بانه كان يتآمر لجلب جيش أجنبي إلى البلاد، وهذا أسوء أشكال الخيانة يمكن ان يتعاطاها المرء، إذ سعى نورفولك صوب هذا العمل الشائن بكل وضاعة، في سبيل تحقيق اهدافه الشخصية والأنانية. رغم ذلك عمل المؤرخون على تخفيف حدة الحكم عليه، وللشفقة على المجرم على اعتبار انه وقع ضحية ارتباط رومانسي مزيف وخاصة بعد اعتقاده بانها (زانية) وقاتلة في آن واحد -يقصد الملكة ماري-.

وفي ربيع ١٥٧٢ كانت المقصلة التي على تل البرج مهملة لمدة طويلة من الزمن وبدت وكأنها قطعة متفككة، وان إدانة نورفولك جعلت من الضروري إعادة نصبها من جديد، وبالفعل فقد أُعدم في ٢ حزيران من العام نفسه.

وفي الحقيقة لا يعرف كم عدد النبلاء الذين يمكن ان يكونوا متواطئين مع مؤامرة ردولفي، فالذين وقفوا الى جانب ماري كانوا كُثر، باستثناء فئة قليلة متعصبة قاموا بتسليمها، وكما ذكرنا سعت اليزابيث على الدوام صوب حرمان ماري من وراثة العرش الانجليزي؛ وإذا ما حاولت الخيانة والتآمر مرة أخرى فيجب ان (تعاني من الآم الموت)، وإذا ما وافقت

على اية مغامرة للهرب من السجن، فانها بذلك ستعد خائنة، وقد صوت كـــلا المجلسين على الخيار القاضي بتجريدها من الحقوق.

وقد ذكرت إليزابيث: "نحن ربما متأكدون، ولسنا متأســفين إذا مــا اظهرنا مثل هكذا شعور". وهذا قد يفتح عيون أعدائها في الداخل والخـــارج، لكن لم يكن لها نية في المضي في مثل هكذا إفراط في ذلك الوقت، فمـــاري يجب ان يكون لديها تبرير مقبول، لذا ووفقاً لذلك رغب البرلمان (بإرجـــاء) قرار التجريد. لكن مجلس العموم كان في الجانب المتجهم، وقرروا بان خيار التجريد يمكن ان يكون عديم الجدوى ومزعجاً الى حد ما، وكما هـــو مشـــار ضمناً بان ماري لديها الحق في الوراثة، الا انه عُطل من قبـــل الســـلطات، وانهم يفضلون الاستمرار بتجريدها من الحقوق، وتم التفـــاهم مـــع مجلـــس اللوردات حول هذا القرار.

يمكن ان تعد هذه الخطوة في غاية الخطورة كونهم أقـــدموا علـــى إلغاء قانون هنري الثامن القاضي بإقرار الوراثة، إذ كان سيُبعد جميع أســـرة ستيوارت عن الوراثة بما فيهم جيمس، وبذلك ستذهب فرصة توحيد التـــاجين أدراج الريح. فإليزابيث كان عندها أسباب مقنعة لرفض مثل هكذا امر. وفقـــاً لذلك توجهت مرة أخرى إلى المجلس لإرجاء قانون تجريد الحقوق.

كان هناك العديد ممن يتهمون الملكة اليزابيث بانهـــا خائنـــة ودمويـــة عندما اقدمت على اعدام الملكة ماري عام ١٥٨٧ بتهمة التواطئ في مؤامرة اغتيال دارنلي، لكن لو كانت اليزابيث قد اعدمت ماري في عام ١٥٧٢ بتهمة دعوة جيش اجنبي لاجل انقاذها من الاسر، فهل كان من الممكن ان يُطلـــق على اليزابيث لقب دموية وخائنة؟.

الفصل السادس

الشؤون الخارجية ١٥٧٢-١٥٨٣

كان هناك حدثان مهمان في التاريخ الأوروبي الحديث في عام ١٥٧٢ الأول: نشوب الثورة الهولندية، التي كان من ابرز نتائجها تأسيس الجمهورية الهولندية في نيسان من العام نفسه. الثاني: مذبحة القديس بارثيلمو، التي وقعت في شهر آب من العام نفسه ايضاً.

وفي ١٩ نيسان عام ١٥٧٢ أفصحت إليزابيث عن مشروعها القائل بضرورة إقامة حلف دفاعي مع فرنسا، وقد فاوضت كثيراً من اجل حدوث ذلك، وهذا ما كان يُمثل حجر زاوية في سياستها الخارجية، ولاهمية الحلف فقد تخلت اليزابيث عن التدخل في الشؤون الاسكتلندية، إذ ان مستشاريها فضلوا ذلك كثيراً، مما جعلها تنظر الى هذا الامر على انه واجب وطني مقدس كون تحالفها الدفاعي مع فرنسا يمنحها الأمان في جميع الجوانب، وهكذا تضمن ان تكون اسكتلندا الى جانبها.

وجاء في المعاهدة التي وقعت بين الطرفين (الانجليزي والفرنسي): ((إذا ما وقع الاعتداء على احد البلدان الموقعة على المعاهدة تحت أية ذريعة أو سبب، فعلى البلد الآخر ان يرسل ستة آلاف جندي لأجل مساعدته)). وقد فسرت كلمة "سبب" على انه الدين، ولم يكن البند المتعلق باسكتلندا اقل أهمية من غيره من البنود التي نصت عليها المعاهدة، لكن لم يكن هناك في اسكتلندا مايستحق الذود عنه، واذا ما رغبت اية دولة في غزوها فانها سوف لن تجد اية صعوبة في ذلك، أو حتى لزرع الطائفية في ربوعها، وذلك سيجعل الأمر

بالنسبة لملكة انجلترا قانونياً لضرب التمرد الاسكتلندي بيد من حديد، ولم تشر ماري في يوماً ما إلى انه بسبب ذلك فقد تخلت فرنسا عن نصـــرتها، وبعــد الانتهاء من توقيع المعاهدة اقترح شارل التاسع ملك فرنسا رسمياً ان يكـــون هناك مشروع زواج بين إليزابيث وأخيه الشاب الينكــون Alencon، وقــد استطاعت إليزابيث التملص من هذا المشروع لمدة احد عشر عاما.

وفي ١ نيسان ١٥٧٢ وقعت أزمة بريل Brill عندما لجأ البعض من المتجولين الهولنديين إلى البحر خوفاً من وحشية جيش القائد ألفـــا، مســـببين فوضى وعصيان في اغلب المدن الهولندية وزيلاند Zealand –اكبر جـــزر الدنمارك–، وهكذا بدأت رحلة الحرب التحررية الكبرى فـــي هولنـــدا ضـــد التسلط الاسباني. رحب الحزب البروتستانتي الانجليزي بـــالثورة الهولنديـــة، وجمعت التبرعات الكبيرة لأجل تقديم المساعدة والدعم، وهناك الكثيـــر مـــن الانجليز تطوعوا للاشتراك في عملية الكفاح ضد الاسبان، وخطط كـــل مـــن شارل التاسع وأمه كاثرين ال مدتشي لعمليات غزو هولندا وحثوا إليزابيـــث لاجل الالتحاق بهم لشن حرب مشتركة ضد الملك فيليب. رفضت اليزابيـــث بحنكتها ان تذهب إلى ابعد مما نص عليه الحلف الدفاعي الجديد، لقد كان اهم مافي سياسة الملكة اليزابيث من قواعد ومبادئ هو توفير الامـــوال وانعـــاش الاقتصاد في البلاد، بدلاً من الانغماس في حروب لا طائل منهـــا، ولا فائـــدة فيها.

لم تكن الملكة اليزابيث ترغب في التصدي لكل ما يشـــرّعه الملـــك فيليب، فمنذ ان كان متمسكاً بالتعصب الديني، كاد ان يشكل خطراً على جميع الولايات البروتستانتية، إذ لم تقلق اليزابيث من انه سينزل جام غضبه علـــى

هولندا، بسبب استعدادها الكامل لتقديم يد العون للهولنديين بسرية تامة من دون ان تجلب الحرب على بلادها، وكانت تفضل قمع المتعصبين من الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء وبشكل واسع.

كان شارل التاسع متلهفاً للضرب بقوة إذا ما انضمت اليزابيث إليه في حربه القادمة ضد الاسبان، وربما سيلومها العديد إذا ما رفضت الانضمام، ويبدوا ان هؤلاء يتجاهلون او يتناسون بان اي غزو فرنسي لهولندا سيشكل خطورة أكثر بكثير من تلك الخطورة التي تشكلها إسبانيا على تلك البلاد، إذ ان جوهر السياسة الانجليزية يكمن في الابتعاد كل البعد عن التسلط الفرنسي وفي جميع مراحل التاريخ، لكن يُذكر بان مثل هكذا حرب كانت ستحسم أمر التسوية الأخيرة التي وقعت بين البلاط الفرنسي والهيجونت، ولما كان هناك شيء يعرف بمذبحة بارثيلمو "فعلى إليزابيث ان تكون متفوقة في هذه اللحظة إذا ما الحكومة الفرنسية أخذت موقعها في جميع جوانب حركة الإصلاح الديني".

ان من حسن حظ المصلحة الانجليزية خلال تلك الاحداث، إدراك إليزابيث الوضع الفرنسي أفضل مما ادركه البعض من نقّادها، حتى مع النتائج التي كانت تقع أمام أعينهم، فالهيجونت كانوا مجرد جزء صغير من الأمة، ومهما بلغوا من ألاهمية فهم استنبطوا مكانتهم وتمردهم وطموحهم من زعاماتهم، لكن في بعض مدن الجنوب الفرنسية، وفي المنطقة الجنوبية الغربية شكلّوا غالبية السكان، لكن في إي مكان آخر كانوا في الغالب نبلاء مليئون بروح الغطرسة والشجاعة المتهورة، ومستعدون لهدم وحدة المملكة

لأهداف سياسية، ودينية، وبالامكان تراجع مكانتهم هذه خلال الاعوام القليلة القادمة.

وقطعاً كان شارل وأمه غير مُبالين بأمور الدين. وان مخططاتهم المرسومة لغزو هولندا قادتهم إلى دعوة زعماء الهيجونت إلى البلاط، لأجل منحهم نفوذ لفترة من الزمن في صياغة السياسة الفرنسية، وهذا أشبه بالاتكاء على شخص أعرج.

وفي ٢٤ آب ١٥٧٢ وقعت مذبحة بارثيلمو، وكانت كيقظة اليمة من كابوس مزعج. ان توقيع المعاهدة مع انجلترا، واقتراح الهجوم على فيليب، اظهرا ان الحكومة الفرنسية كانت تلعب بغدر على طول الوقت، وذلك لتوجيه الهيجونت صوب التمرد، بسبب انه عندما يوقظ الرأي العام الكاثوليكي داخل فرنسا، فان السلالة الحاكمة ستنحني أمامه أو ان تُطرد بعيداً، وان انجلترا ستدعم الهيجونت اذا ما تعرضوا لأخطار الحرب الاهلية.

بدا لإليزابيث ووزرائها لدى استلام أخبار المذبحة انه لمن الطبيعي ان الحكومة الفرنسية منذ البداية لعبت اللعبة الخطأ، بقيام العصبة الكاثوليكية بإستئصال الهرطقة من أوربا، وكانت انجلترا تتوقع هجوم مشترك من الجانب الإسباني والفرنسي، لذا يجب توجيه الشكر الجزيل للسياسة الحذرة التي كانت قد اتبعتها إليزابيث إزاء هذه الاحداث، والتي جعلت من انجلترا أفضل بكثير مما لو كانت في مواجهة الأخطار، فالأسطول الانجليزي كان في أفضل حالاته، والسواحل تُحرس من جانب القوات الشعبية، وقد نظمت الملكة اليزابيث بعثة لأجل التعاون المشترك مع الثوار الهولنديين، فأرسلت الاموال إلى الأمير اورنج، وجهز اللاجئون الهيجونت أسطولا صغيراً لمساعدة

إخوتهم في الدين في رانتشيل Rochelle في فرنسا، وقد اعلم الوصي الاسكتلندي مار بسرية تامة، بانه إذا ما طالب الحكومة الانجليزية بتسليم ماري إليه، ويتعهد بمعاقبتها على نحو مميت جراء قتلها زوجها دارنلي، فانها ستترك إليه.

كانت الثقة معدومة -في حقيقة الأمر- بين الحكومتين الفرنسية والانجليزية، فكلا الطرفين لا يثق أحدهما بالآخر، ومن الممكن جداً ان يُنقض الحلف الدفاعي في اية لحظة، وأعطيت التعليمات للسفير الفرنسي في لندن لتقديم الاعتذار الكافي والتأسف على المذبحة بأفضل ما يمكنه من بيان ودهاء، وفي الوقت نفسه يجب الضغط على الينكون للموافقة على الزواج من الملكة اليزابيث، لكن الاخيرة لبست ثوب الحِداد، واستقبلته استقبالاً قاسياً، ومهما يكن من امر فان الهيجونت سُحقوا على الصعيد الديني وليس السياسي خلال مذبحة بارثيلمو، وكان ضعفهم السبب في نجاتهم، منذ ان أرغموا على التراجع إلى المرتبة الثانية خلف البوليتيكوس Politiques[1] وقريباً سيجدون زعيماً مقتدراً في شخص هنري نافار أو هنري الرابع (١٥٥٣-١٦١٠) Henry of Navarre ملك فرنسا، يقودهم صوب النصر.

على الصعيد الآخر، كان فيليب بعيداً عن أية فكرة في قيادة حملة عسكرية ضد انجلترا، وقد كان السيد همفري جلبرت Humphrey.G يأمر مجموعات مختلفة من المتطوعين الانجليز، في سرية تامة من جانب حكومته،

---

(١) البوليتيكوس: لفظة فرنسية استعملت في القرن السادس عشر والسابع عشر خلال الحروب الدينية لوصف المعتدلين من الهيجونت والكاثوليك.

لمحاربة الأسبان في والتشرين Walcheren في هولندا ويشنق جميع سجنائه، وأبحر السيد جون هاوكينس بعشرين سفينة لاعتراض أسطول الثروة المكسيكي، وهذا ما اضطر القائد ألفا إلى تقديم النصح لسيده فيليب لأجل استيعابه لجميع الأمور، وانه سيكون شاكراً له إذا ما استطاع ان يكسب إليزابيث الى جانبه وإعادة فتح العلاقات التجارية بين البلدين، التي كانت قد تدهورت منذ النزاع حول الثروة الجنوية.

كانت إليزابيث قلقة إزاء هذه الاوضاع الا انها عرضت مدى قوتها وقوة مركزها، إذ لم يكن لديها أية نية لاخضاع الكاثوليك، فهي لم تسعَ لأجل اتحاد بروتستانتي، وهذا ما قاد الملوك الكاثوليك للانغماس في حسدهم المتبادل والتجمع حول بعضهم البعض ضد عدو مشترك (انجلترا).

كان الوصي الاسكتلندي مستعداً بشكل كبير لتولي مهمة إنزال العقوبة على الملكة ماري، شريطة ان ترسل إليزابيث ايرل بيدفورد أو ايرل هنتجتون برفقة جيش انجليزي صغير ليحضروا عملية الإعدام والاستيلاء على قلعة إدنبره، واشار الى انه انه بحاجة إلى دعم مالي، لكن الوصي مار كان قد توفي أثناء المباحثات، وأستؤنفت من خلال وريثه مورتن Morton.

كانت إليزابيث مصممة على عدم منح أية موافقة علنية فيما يتعلق بقضية إعدام ماري، ومن دون شك كانت تقصد بذلك انه يجب ان يكون الأمر مقضياً – وللتظاهر – فهي عملت طيلة خمسة عشر عاما بعد ذلك حتى لا يكون هناك خطأ فادح يقع على عاتقها، وإلقاء لائمة ذلك على الحكومة الاسكتلندية وأوصيائها، وبسبب ذلك فشلت المحادثات، لكن المال كان قد أرسل إلى مورتن الذي أسهم في ضرب حصار على قلعة إدنبره، وبواسطة

سفير إليزابيث فان عائلة هاملتن وغوردون Gordon، وجميع آل ماريان Marian وغيرهم ممن هم في القلعة، وافقوا على الشروط المناسبة المعروضة عليهم، واعترفوا بجيمس وريثاً للعرش الانجليزي، ولم يبقَ إلا تخفيض قوات القلعة، إلى أقل من مئتي رجل، واوصت المدينة والبلاد المحيطة بها بضرورة الوقوف بقوة ضد آل ماريان، لكن لم يكن لدى الوصي مهمة عسكرية أخرى بين يديه، وأمام إلحاح مورتن وموافقة اليزابيث، فقد زحف السيد وليام دراوري W. Drury من بيرويك لإنجاز المهمة وذلك في أيار عام ١٥٧٣، وكان من بين الأسرى ميتلاند Maitland الجميلة من ليثنجتون Lethington، والتي توفيت بعد بضعة ايام من اسرها، ومن المحتمل انها قتلت، وان كيركالدي Kirkaldy الذي بدأ الإصلاح الديني في اسكتلندا بقتل الكاردينال بيتون Beaton، كان قد شُنق على يد صديقه القديم مورتن.

وبعد ان أُخذت قلعة إدنبره، لم تحصل إليزابيث على أي امتنان من الجانب الذي دعاها لذلك الذين كانوا كثيراً ما يطالبونها بالأموال، وقد سار مورتن على خطوات زعيمه المسن موراي، الذي بقي مُحباً ووفياً لانجلترا، في حين أخبر بعض المسؤولين الاسكتلنديين السفير الانجليزي بوضوح بانهم أن لم يحصلوا على المال اللازم من انجلترا، فانهم سيحصلون عليه من فرنسا. وكان أعضاء مجلس إليزابيث يضايقونها دائماً للاذعان إلى مثل هكذا مطالب ماجنة، وإذا كان هناك ملك بالغ يجلس على عرشه بملء إرادته، فانه لا يمكن لأحد ان ينازعه على ملكه، وهذا ما فعلته إليزابيث عندما أصبح جيمس حاكماً فعلياً على البلاد، إذ انها لم تؤمن بدفع الاموال الى عصبة من

اللوردات الجشعين ممن يصنفون أنفسهم على انهم جزء من العصبة الانجليزية في اسكتلندا. ان خدماتهم لا يمكن ان تكون صغيرة ولا حتى كبيرة سواء أدفع لهم أم لم يدفع. فالمال الفرنسي المنصب في اسكتلندا، جاء بسبب سوء تصرف إليزابيث، عندما أبقت مالها في خزائنها. لكن ذلك لم يكن خطأ إليزابيث، إذ ان شروط الحياة السياسية في اسكتلندا أثناء حياة الملك الصغير جيمس كانت بهذا الشكل، وبصعوبة بالغة أُسست حكومة كانت في طبيعة الأشياء مستحيلة، كماري التي بقيت في عزلة قاسية خلال الهلع الذي أعقب مذبحة بارثيلمو، فهي كانت في ضيق من أمرها للفرار من موتها المخجل على المقصلة الاسكتلندية، وعندها انحسر الهلع والرعب سمحت لنفسها باستئناف أسلوب حياتها السابق بان تكون ضيفة لدى اللورد شروزبري، مع الاتصال بجميع أصدقائها بالداخل والخارج، فأي جرس إنذار فانه سيجعلها تختفي بسرعة، خاصة إذا ما شعرت بان إليزابيث تسعى الى ضرب عنقها أو الغاء لقبها بإجراء برلماني، هذه النية أهملت بشكل واضح عندما أجلّ البرلمان جلسته في عام ١٥٧٢.

افترض الشعب –وبشكل صائب– ان إليزابيث مازالت تعد الملكة الاسكتلندية بوصفها وريثة لها على العرش الانجليزي. وأكد بيتر وينتورث Peter Wentworth (١٥٢٩-١٥٩٦)[١] في احدى جلسات البرلمان لعام ١٥٧٦ –ومن المحتمل ان يكون ذلك حقيقيا– ان العديد أظهروا في طلباتهم

---

(١) وينتورث: زعيم بيورتاني بارز في البرلمان الانجليزي. كان كثيراً ما يوجه النقد للملكة اليزابيث. تعرض للسجن بسبب تقديم الالتماسات حول موضوع التعاقب الوراثي. توفي في سجنه في ١٠ تشرين الثاني عام ١٥٩٦.

تأسفهم الشديد من موقفهم غير المشرف ازاء الملكة ماري، وخاصة عندما ادركوا بان هناك املاً في ان تصبح ماري ملكتهم مرة اخرى، لذا حاولوا مؤازرتها قدر المستطاع، وقد أُخبرت ماري من قبل رئيس أساقفة غلاسجو بان فرصتها هذه هي الافضل من بين جميع الفرص السابقة واللاحقة، وعندما كان لديها فرصة للهرب بشكل سري، رفضت ذلك، ويعتقد ان اهتمامها كان منصباً على البقاء في انجلترا.

ان رغبة الملكة الانجليزية في إعادة تنصيب منافستها برزت من وعي مضطرب، من خلال احتجازها ووضعها تحت المراقبة، التي أضعفت على نحو كبير الإجلال الديني للملوك الذي كان يشكل القاعدة الأساسية التي تستند عليها قوتهم. ان مقصلة فوثيرينجاي Fotheringay[1] -في الحقيقة- كانت كمقصلة الوايتهول Whitehall، لكن تعاقبت سنة وراء أُخرى، وإليزابيث لا تستطيع ان تغلق عينيها على حقيقة مزعجة تمثلت بمجيء ماري إلى انجلترا، والخطر الأعظم يكمن في اعادتها الى العرش الاسكتلندي، وان المرجل المغلي للسياسة الاسكتلندية لم يكن -في الحقيقة- ذات أهمية تُذكر، فانه مادام الملك قاصراً، فان الاسكتلنديين يمكن ان يكونوا اقرب الى العداوة منهم الى الصداقة، هذه حقيقة فُهمت في باريس ومدريد كما في لندن، رغم ذلك لم يكن الفرنسيون أقل فطنة وحماسة في تلك الأيام من أنهم يزعمون بان الطريق

---

(١) أُرسلت ماري سجينة لمدة ١٨ عاماً الى قلعة ومزرعة شيفيلد Sheffield في انجلترا، وفي ايامها الاخيرة ارسلت الى فوثيرينجاي في انجلترا ايضاً، حيث انهكت وسجنت واتهمت بالخيانة.

الخفي يدعو الى "تأثير فرنسي شرعي"، في البلدان التي لديهم معها اتصالات تاريخية، لذا راحوا يواصلون إهدار مالهم بين النبلاء الاسكتلنديين الجياع.

ان إبعاد القوات الأجنبية عن اسكتلندا كان ثابتاً في مبادئ إليزابيث ورجال الدولة الانجليز، لكنها اعتقدت وبُرر اعتقادها بالأحداث بان البعثة الفرنسية لم تكن بالمسألة السهلة عندما كانت ماري وصية على اسكتلندا وماري تيودور ملكة على انجلترا، ومازال الأكثر أهمية -رغم الخيانة والارتياب- بان الحكومتين الفرنسية والانجليزية اندمجتا سوية من خلال معاهدة كانت ضرورية للطرفين على حد سواء، ولم تعد اسكتلندا مصدر قلق بالنسبة لإليزابيث كما كانت خلال العشر سنوات الأولى من عهدها، إذ لم يكن لدى وزرائها ما تملكه إليزابيث من برودة أعصاب أو بصيرة.

ومرة أخرى فان وزراء إليزابيث يحملون المسائل بهمة عالية. وفي اعتقادهم، ان انجلترا مازالت في خطر مستمر من احتلال إسباني وشيك، والذي يمكن تفاديه من خلال ثورة الولايات الهولندية، إذ كانوا سيضعون من إليزابيث على رأس اتحاد بروتستانتي وتتحدى أسوأ ما يمكن ان يفعله فيليب، واعتقدت اليزابيث -من ناحية أخرى- بان الحرب قد لا تكون في صالح انجلترا وان تأخيرها خير من تسريعها، فهناك عدة أشكال يمكن من خلالها مساعدة هولندا من دون ان يكون هناك تحدٍ علني لفيليب، وان أية نظرية في العلاقات الدولية سادت في تلك الأيام لا تحبذ احياء الحرب من مرقدها الدفين، وان مواصلة العمليات الحربية ضد البلدان الاخرى، تختلف اختلافاً كبيراً عن محاربة تلك البلاد (يقصد إسبانيا)، وهذه النظرية خدمت إليزابيث كثيراً، ولم يسمح الجنرالات الانجليز -باستثناء الدعم- بزيادة أعداد كتائب

المتطوعين من أجل الخدمة في الأراضي المنخفضة، وارسلت الإمدادات المالية بشكل علني إلى ألامير اورنج، وسعت الأساطيل الانجليزية لأجل افتراس التجارة الإسبانية، حتى ان إليزابيث نفسها اشتركت في تجهيزهم واقتسامهم الغنيمة.

لا يُفترض انه بسبب ثورة هولندا قد شُلت تحركات فيليب ضد أي هجوم محتمل على انجلترا، والذي طالما رحبت إليزابيث بذلك، وانها فكرت ملياً بإطالة الكفاح بمباركة أصحاب الدماء الباردة ممن حولها من الوزراء والمستشارين، فإليزابيث وبشكل واضح كانت تبغض الحرب والفوضى، فكانت مستفزة من جانب فيليب لأجل اضطهاد البروتستانت الهولنديين في قمع ثوراتهم لاجبارهم على تقديم التنازلات الدينية، بمعنى ان فيليب لا يمكن ان يكون متساهلاً ابداً، وادركت الملكة إليزابيث بان حجب جميع المساعدات عن الهولنديين، سيولد ضغطاً عليهم وبالتالي سيذعنون لفيليب، وان مجيء المحاربين الأسبان إلى ثغر التايمز Thames يمثل خطراً حقيقياً بالنسبة لانجلترا، وذكر سيسل بانه يجب علينا ان نساعد الهولنديين لإبقاء الاسبان مشغولين عنا"، ومطلقاً ليس من الطبيعي ان يتواجد المحاربون الأسبان هناك –اي في ثغر التايمز–. ان هدنة غينت Ghent المعقودة في تشرين الثاني عام ١٥٧٦ جعلت لفترة قصيرة هولندا وزيلاند في قضية واحدة ومشتركة، وهذا ما خفف العبء بعض الشيء على إليزابيث –لفترة من الوقت– كضرورة لاتخاذ خطوة حاسمة، فمازال فيليب معترفاً به ملكاً على الاراضي المنخفضة، وبدا من المحتمل ان الكاثوليك المتعصبين تخلوا عن عمليات الاضطهاد، وان نظراءهم من البروتستانت قبلوا في المؤسسة الرسمية للعبادة القديمة، وعلى

وجه الدقة ان تسوية إليزابيث تمحورت في التخلص من القوات الإسبانية، وهذا ما سيخفف عنها مغبة التدخل، وانها سوف لن تكون متأسفة إذا ما وضعت بعضاً من القيود على الكالفنية، وإذا ما نفّذ ذلك، فهل ستجني اوربا المنفعة من وراء ذلك على المدى غير المنظور؟. فأولئك الذين ينظرون إلى النزاع ما بين البروتستانتية والكاثوليكية على انه نزاع بين الحق والباطل – بالطبع– فانه ليس من الصعوبة الإجابة على مثل هكذا تساؤلات، والبعض ربما يحملون في دواخلهم حرية الضمير التي كانت الأساس في ذلك الوقت، وهم يتصورون العديد من الفوائد التي من الممكن ان تحصدها أوربا من خلال القرون الثلاثة الأخيرة من إقامة الوحدة الهولندية واستقلالها، والتي يجب ان تقوم قريباً، وستكون مستقلة عن إسبانيا ومحترمة من قبل جيرانها.

كان التحالف المؤقت قد قُدر له أن يكون مأمون الجانب بالنسبة للهولنديين ومتنفساً لهم عندما ضُغط عليهم بقوة شديدة، ومكنوا إليزابيث من تجنب النزاع مع إسبانيا، فالخطوة الأولى للولايات المتحالفة حديثاً ان تتمكن من الحصول على الاموال، وبالفعل فقد حصلوا على قرض مقداره ٤٠٠٠٠ وهو مبلغ كبير في تلك الأيام، وأخبرتهم إليزابيث بشكل جدي من انه اذا قبل الحاكم الجديد دون جون النمساوي (١٥٤٥-١٥٧٨) بالتهدئة، فعليهم ان يستخدموا الأموال التي دفعت لهم لدفع ديون القوات الإسبانية، ومن جانب آخر عليهم رفض ترك البلاد لدون جون أو لأي شخص آخر، وقد كان لدى دون جون خيانة في قلبه، لكن رحيل الأسبان كان مكسباً كبيراً، وإذا ما استطاع بروتستانت وكاثوليك هولندا من تحمل بعضهم البعض، فانهم سينجزون استقلال بلادهم من دون الاعتماد على جهود الآخرين، لكن دون

جون –الصليبي والمنتصر في ليبانتو Lepanto والأخ غير الشقيق لفيليب– كان رجلاً طموحاً جداً، وكان حلمه ان يغزوا انجلتـرا، وان يتـزوج ملكـة اسكتلندا، ويجلس معها على العرش الانجليزي، فهو لم يكن كأخيـه فيليـب، فالأخير لم يتردد ابداً في مصالحة إليزابيث، وكان يحقد على أخيه المتفـاخر، وأمره الملك فيليب ان يترك انجلترا وشأنها، لكنه استمر في تصميمه، وأرسل مستشاره اسكوبيدو Escobedo (١٥٣٠–١٥٧٨) لإقناع فيليب بـان اتمـام السيطرة على هولندا ضروري جداً للشروع في غزو انجلترا.

كان كل من إليزابيث وفيليب خلال تلك اللحظة في جو أكثر ألفة مـن اي وقت مضى، رغم انها أدركت من انه كان يحرض السفاحين على قتلهـا، وبان لا شيء يضاهي فرحته إذا ما أنبأته الأيام عن مقتلها، لكنها لم تحمل أية ضغينة إزاء ذلك. وراحت تتجه صوب العمل، بينما أستمر فـي محاولاتـه لإيذائها، إلا انها تمكنت من تجنب الحرب، أما القائد ألفا فانه أوضح بنفسه من انه لا يستطيع ان يتحمل النزاع معها، اما العلاقـات الدبلوماسـية المتمثلـة بالسفارات بين البلدين، فكانت قد قُطعـت بطـرد دي اسـبيس De Espes (١٥٢٤–١٥٧٢) في عام ١٥٧١، الذي أُتهم بالتواطؤ مع مؤامرة ردولفي، الا انها استؤنفت فيما بعد.

وفي صيف عام ١٥٧٧ بدأ وكأن طموح دون جون الهائج راح يقاطع السياسة الباسِفيكية Pacific (السلمية)، التي كانـت تناسـب كـلا الملكـين (اليزابيث وفيليب)، فقد طالب بالقوات الإسبانية مرة أخرى، لتُسلط على رقبة انجلترا، وقال ان هناك من وعده بتقديم العون له من جانب الجويس Guise، وكالعادة اعتقد وزراء إليزابيث بانها على حافة الانهيار، وناشـدوها لأجـل

إرسال الجيوش إلى كل من هولندا وفرنسا، لكنها رفضت الاندفاع صوب أي عمل متهور، فهناك أسباب أظهرت اهمية اتخاذ مثـل هكـذا موقـف، إذ ان معاهدة بيرجيراك Bergerac بين الملك هنري الثالث وهنري نافار في أيلول عام ١٥٧٧، أظهرت مرة ثانية ان الملك الفرنسي لم يكن لديه نيـة لسـحق الهيجونت. ان دعوة الارشيدوق ماثياس Mathias من قبـل نـبلاء بلجيكـا أظهرت بعمق امتعاضهم من التدخل الانجليزي في الولايات الهولندية، فهـذا بالتأكيد مثّل مسألة الانعكاس السيئ، وان بإمكان إليزابيث ان تـؤمن قـرض مقداره ١٠٠٠٠٠ للولايات، شريطة ان يقوم ماثياس بترك القيادة الحقيقية في ادارة الشؤون إلى وليام اورنج والتعهد بالمساعدة المسلحة، وكان ذلـك فـي كانون الثاني عام ١٥٧٨، وفي الوقت نفسه أخبرت فيليب بان ما تقوم به هو لأجل أمنها الخاص، وليس لديها رغبة في مزاحمة سيادته على هولندا، وانها ستساعده في ذلك إذا ما حكم حكماً منطقياً، ولكن يجب عليـه ان يزيـل دون جون عدوها اللدود من منصبه، وان يعمل على تعيين حاكم آخر مكانه، بكلام آخر كانت تقصد ماثياس، واستجاب فيليب لذلك واظهر رفضـه لمخططـات دون جون بشكل واضح للعيان عام ١٥٧٨.

لكن كثيراً ما كانت اليزابيث تخشى من ان مخطط دون جون سـينتقل الى أخيه فيليب، لذا فإنها خاطرت باعلانها إرسال جيش إلى هولندا، الا ان ما طمأنها وصول السفير الإسباني منـدوزا Mendoza (١٥٤٠-١٦٠٤) فـي أذار عام ١٥٧٨، ومن الواضح ان فيليب كان مسالماً إلى حد الترويض، لـذا وبدلاً من إرسال جيش انجليزي، فضلت إليزابيث إرسـال جـون كاسـمير J.Casimir كونت البلاتين Palatine لقيادة جيش ألمـاني لأجـل مسـاعدة

الولايات، وبقدر ما أرسل من دعم عسكري، فانه من المــرجح ســوف لــن يخسروا شيئاً من خلال هذا التغيير، لكنهم رغبوا فــي ان يــروا إليزابيــث مضطرة لدخول حرب مفتوحة مع فيليب، وهذا بالضبط ما كانــت ترفضــه اليزابيث، وكان هناك بعض الهجمات الخفية وغير المباشرة قد هيأت لضربه (اي فيليب)، لتدرك اليزابيث من خلال خبرتها من انه هل ســيكون فيليــب فاحشاً في الرد عليهم، وهكذا فقد أرسلت دريك في بعثته المشهورة إلى جنوب المحيط الهادئ، وفي الوقت نفسه فقد خلف أليكساندر فــارنيز Alexander (١٥٤٥-١٥٩٢) دوق بارما Parma دون جون في منصــبه، وان الفــرص الجيدة للمحافظات الثائرة التي كانت مؤاتية في زمــن دون جــون اصــبحت بمجئ اليكساندر على وشك ان تضيع وتضيق الى حد كبير، فليس هناك جنود في ذلك الوقت يمكن ان يقارنوا بالمحاربين الذين كانوا بحوزة اليكساندر وهم من الأسبان والايطاليين، وعندما تسلم القيادة، كان بارعاً فــي قيــادة إحــدى مناطق البلاد المنخفضة، وبما ان الكفاح ظل مستمراً في هولنــدا، فانــه راح يشكل الموضوع الرئيس في فكر إليزابيث.

قبل وفاة دون جون بأيام قليلة، استدعي دوق الينكون[١]-الأخ والوريث لهنري الثالث ملك فرنسا- من جانب نبلاء بلجيكا ليكون حامياً علــيهم، وان اورنج الذي كان قلقاً إزاء الاتحاد، وافق على مرشحهم ليتقلد هذا المنصــب، وكان الينكون قد جهز ١٢٠٠٠ جندياً فرنسياً، لكن هنري رفض هذا العمــل من أخيه، وفي النهاية قدم له دعماً مفتوحاً، وبذلك استؤنف المشــروع الــذي

---

(١) استلم دوقية انجو إضافة إلى دوقية الينكون، وبعض المؤرخين يدعونه باللقب الأول.

كان قد توقف منذ ست سنوات -أي منذ مذبحة بارثيلمو-، وامام ما استجد من أحداث، كيف ستتعامل إليزابيث مع هذه الاوضاع المستجدة؟. فمحمية الينكون سترفق وتضم إلى فرنسا، وهذا ما دفع إليزابيث الى ان تتفادى ذلك من دون خسائر قدر الامكان، للحظة فكرت بتقديم الدعم العسكري لحاميها الخاص (أي اورنج المفضل كثيراً لديها)، وإعداد الجيوش التي سترسل الى هناك لأجل الدعم، وعلى النقيض من ذلك، صممت إليزابيث على الالتزام بسياسة لا تجعلها ترتمي في أحضان اسبانيا، فهي رغم محاولاتها لا تستطيع ان تجعل الينكون يمارس عمله الاعتيادي، أو ان تجعله يعمل عملها هي، وان واحدة من وسائل ذلك السماح بإعانته مالياً، لكن إليزابيث عزمت على الإنفاق على نحو ضئيل قدر الإمكان في هذا المضمار، واعتمدت بصورة رئيسة على إحياء كوميديا الزواج ليكون لاعباً ايجابياً ومؤثراً ولو للمرة الأخيرة، فاليزابيث كانت لديها من العمر (٤٥) عاماً، والمتودد (الينكون) لها يبلغ من العمر (٢٤) عاماً، ولم يكن هناك أي تشجيع لسياستها هذه، وجميع ذلك كان مجرد سخرية وأمراً بغيضاً في تغنجها مع هنري لكي يوقف أخيه الأصغر، وللتغلب على الشكوك اضطرت للمبالغة باحتجاجاتها وتأكيداتها، من خلال الإقرار بالمغازلة الشخصية، ومحاكاة العاطفة الغرامية، من خلال عرض إيمائي من القبل والمعانقات، إذ انها ما تركت أية كرامة وشرف يقفان في طريق عملها هذا، فلدى أغلب النساء يمكن ان يكون هذا الأمر إذلالاً لا يحتمل، لكنه لم يكن ليكلف إليزابيث ألماً أو أي شيء من هذا القبيل، بل انها وجدت ما يسليها في ذلك -وبطبيعة الحال- لم يكن هناك أية فرصة لخداع الأجانب ما لم تقنع من حولها بانها كانت جدية في عملها هذا، وأُدهشوا من

انها تخاطر لاجل ترسيخ الوجود الفرنسي في هولندا، لكن لم يكن لديها ادنى نية لذلك، فمتى ما لجأ فيليب بكل خسة لإرغامها على الاعتـراف بحكومـة دستورية في الاراضي المنخفضة، عندها سـترمي بثقلهـا للـتخلص مـن الفرنسيين.

ان الزواج من الينكون كان مقترحاً منذ ست سنوات مضت الا انه غفا بعض الشيء، ليظهر الأمر بان ايقاظه جاء من جانب المُتقدم للـزواج مـن اليزابيث، وفي آب عام ١٥٧٩ وبعد المفاوضات المزعجة –وعلى مدى عام كامل– فكر خلالها الينكون لأجل زيارة إليزابيث. كان حجمه صغيراً بالنسبة إلى حجم رأسه، وقبيحاً بفحش، ووجهه مجعد وعليه آثار مـرض الجـدري، وينتهي انفه بنتوء، وهذا جعل وكأن له أنفان. ان ميـل إليزابيـث للرجـال الوسيمين معروف للغاية، لكن ما كان عندها أقل من نية الزواج من الينكون، لذا فانها تظاهرت بانها سُحرت بمظهره، وانه كان مجرد رجل يمكن تحبـه كزوج لا غير، وان الشيء الجميل فيه هو طريقة محادثته التي أجاد فيها الى حد كبير، وقد كانت إليزابيث تطلق ألقاباً لطيفة على جميع أشيائها المفضـلة، لذا فقد لقبته "بالضفدع" و "جرينويل" "Grenouille"، وكان مسـروراً جـداً لإشراك نفسه في رسائل الغرام، وزيارته الأولى هذه كانت قصـيرة، وعـاد وهو متفائل بالنجاح.

بدت اليزابيث وللمرة الأولى فـي عهـدها مكروهـة عنـد الشـعب الانجليزي، مثلما بقيت كراهية الفرنسيين لمدة طويلة من الزمن تحكم شـعور أكثر الانجليز، وصبت إليزابيث جام غضبها على ستوبس Stubbs وهو احد البيورتان الذي كان وقحاً عندما أخبرها بان إنجاب الأطفال سيعرض حياتهـا

للخطر، فحكم عليه بقطع يده، ويذكر كامدين: ((أنا أتذكر، بان ستوبس فيما بعد قطعت يده اليمنى، وانه كان يمسك قبعته بيده اليسرى، وقالت الملكة بصوت عال فليحفظ الله الملكة، وقد خيم الصمت على الكثيرين ممن كانوا واقفين حولها)).

وبعد فترة وجيزة جاءت زيارة الينكون، لتوقيع معاهدة الزواج في تشرين الثاني عام ١٥٧٩، شريطة إعطاء مهلة شهرين لضمان موافقة وترضية أتباع إليزابيث على ذلك، وإذا ما انتهى الوقت المقرر ولم تصادق إليزابيث على المعاهدة فانها ستعد باطلة ولاغية، وقد جاء الوقت المقرر ورحل من دون ان يصادق أحد عليها، وكالمعتاد توقع بيرغهلي (سيسل) بانه من الممكن ان يتحول مقدم الطلب الخاص بالزواج إلى عدو لدود، واستمد اعتقاده من الأخطار التي هددت والتي ستهدد انجلترا، وبالنصيحة القديمة التي طالما رددها على مسامع سيدته بضرورة تشكيل اتحاد بروتستانتي مدعوم بمحبي انجلترا من الاسكتلنديين، كانت اليزابيث منذ في عام ١٥٧٢ قد تملصت من الزواج من آنجو، وما زال هناك أمل في إقامة تحالف فرنسي، وعهد في قدرتها لأجل ان تلعب اللعبة نفسها الآن، ومع انها لم تصادق على معاهدة الزواج، الا انها واصلت المراسلات مع الينكون –الذي مازال لديه أمل في الزواج منها– والتي ضمنتها في الوقت نفسه بان يقود جيش لمساعدة الولايات الهولندية، وعلى أية حال، فانه لم يكن ليقدم على مثل هكذا فعل ما لم يضمن الزواج. فالملك الفرنسي كان مستعداً ومتلهفاً لتقديم الدعم لأخيه. لكنه كان أيضاً مصراً على مسألة الزواج، وان على إليزابيث ان تنضم إليه بشكل علني في حرب ضد إسبانيا.

ففي صيف ١٥٨٠ فتح فيليب البرتغال، وهكذا فانه لا يدور حول عالم شبه الجزيرة الايبيرية فقط، وانه بشكل كبير يدرك كيف يستحوذ على التاج البرتغالي، فجميع دول أوربا أفصحت عن اندهاشها، وراحت تقلق إزاء هذه الأعمال، وأوصت إليزابيث بشكل متواصل الملك هنري على ضرورة إخماد مثل هكذا تحركات لإبعاد الخطورة عن جميع الولايات الأخرى، الا ان وصيتها ذهبت ادراج الريح، إذ رفض الملك هنري التحرك ما لم تساعده انجلترا بشكل علني بالمال والقوات، ومن الممكن ان يكون الزواج رهينة لذلك، فهو لم يخفِ ارتيابه، عندما دفعته إليزابيث صوب الحرب، فهي سوف "تسحب عنقها من الطوق" وتتركه يخوض غمار الحرب والأخطار لوحده، وفي حقيقة الأمر هذا ما كانت تنويه الملكة اليزابيث، واعتقدت بان حرباً تخوضها فرنسا ضد إسبانيا سترغم فيليب على تقديم تنازلات ملائمة بالنسبة للولايات الهولندية، عندها ستتوسط وتأمر بعملية السلام. استمر الملك هنري بالقول: "تزوجي أخي، وبعدها سأضمن لكِ النصيب الذي تريدين من امدادات مالية وعسكرية"، فردت إليزابيث: "لا استطيع ان أتزوج أخيك، لأن مجلسي سيقول بأنني أدور في فلك زوجي، وعندها سيرفضون شيء أسمه نفقة، وان هناك بدلاً من الزواج، وهو الحلف الذي لا يُلزمني بإعلان الحرب، ثم أنا من سيجهزك بالمال سراً، وأنت تدرك بانه يجب ان تحارب، لأنك لا تستطيع ان تترك فيليب يتعاظم في قوته وشأنه"، لكن هنري بقي مصراً بقوة على رأيه، وبما انه ليس هناك زواج ولا حرب، فان اليزابيث لا تستطيع ان تحركه كيفما تشاء، ومرة أخرى أبرمت معاهدة زواج، لكن بشرط استثنائي، إذ بخلال ستة أسابيع يجب ان تكون متوجهة صوب تفسيرات خاصة برسالة فيما بينها

والينكون، وتبين فيما بعد ان ليس هذا ما قصدته، فخلال هذه ألاسابيع الستة جهزت طالب يدها بالمال، وحرضته على ضرورة ان يكون هناك هجوم مفاجئ على جيش القائد بارما، الذي كان آنذاك يحاصر كامبراي Cambray، القريبة من الحدود الفرنسية. اعتقد الينكون بانه أصبح الآن متأكداً من الزواج اكثر من اي وقت مضى، فجمع ١٥٠٠٠ جندي لاجل هذه المهمة، أما هنري فكان يقدم له المساعدة بشكل سري، لكن حالما تتأكد اليزابيث بانهما قاما بواجبهما المُلقى على عاتقهما، فانها ستُعلمهما بان الزواج يجب ان يؤجل مرة أُخرى كون أتباعها ومجلسها لا يرغبون بذلك، وبإمكانها ان ترتبط معهم برابطة تحالف دفاعي لا غير.

كان جميع ذلك مجرداً من المبادئ، والاخلاق الفاضلة. كذلك كان هنري والينكون من المخادعين المتصلبين، فهم كانوا جاهزون للعنف وللاحتيال على حد سواء، ويستغلون أي شيء يمكن ان يدر عليهم بالفوائد، لذا فقد استخدمت إليزابيث السلاح الذي منحتها إياها الطبيعة (الزواج)، وسيكون مكروهاً دستورياً لكنه يمكن ان يكون الطريقة السليمة الوحيدة، وهذا ما دفع إليزابيث إلى عمل ذلك، وهذا ما يعرف بداء الذئبة Lupus، وهو عديم الفائدة بالنسبة لرجل الدولة (الذكر) في محاولة للمرور بسرعة وللتأثير والاندفاع والتلون، متذبذب من لحظة إلى أخرى في مخططاته السياسية بالعاطفة تارة والضعف تارة أخرى وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى امرأة لكنه ليس كذلك بالنسبة لرجل، هذه كانت صفات الملكة إليزابيث، التي استفادت منها إلى أبعد الحدود، فهي كانت رجولية ومتى ما وجدت غرضها الملائم تحولت إلى أنثى، وقد احتار الرجال في انهم يتعاملون مع سياسي محتال

ومخطط بارع، أم مع امرأة عاطفية متلونة وعاشقة. هذه الحيرة كانت تضعهم بشكل ثابت خارج حساباتهم، وإلا لما كان الينكون يقود نفسه صوب حماقات عندما توقع من امرأة مسنة تتودد الى شابٍ مثله.

كانت تلك فرصة لم تحرز إليزابيث من خلالها نجاحاً كـــاملاً، والتـــي طالما تأملت ذلك من خلال مغامرتها الجريئة، رغم ذلك كان نجاحاً جيداً الى حد ما، فقد استطاع هنري الانسحاب في الوقت المناسب، ولم يكن ليدخل في حربٍ كبيرة، لكن الينكون الذي كان على رأس ١٥٠٠٠ جندي فكان قريباً من كامبراي، عندها لم يستطع التراجع بسرعة كون ذلك سيجلب له العار. ففـــي آب عام ١٥٨١ تمكن الجيش الفرنسي من دخول كامبراي منتصـــراً بعـــد ان هزم جيش القائد بارما.

رغم ذلك كان لدى الملك هنري الثالث سبباً وجيهاً للتذمر من الطريقة التي تمت مفاوضته فيها، لكنه لم يدخل في نزاع مع إليزابيث، فمصالحه –كما كانت ترى– ملزمة بعناية معها وهذا ما يجعله بعيداً عن التفكير بشيء مـــن هذا القبيل، وعلى النقيض من ذلك، فقد عمل في موقع دفاعي صارم، وبعد ان شعر الينكون بارتياح إزاء كامبراي، سرح جيشه، وفكر في الـــذهاب مـــرة أخرى إلى انجلترا للضغط على إليزابيث لاجل الزواج منها، وذلك في تشرين الثاني عام ١٥٨١، وهناك كان متبوعاً بســـفراء مـــن الولايـــات الهولنديـــة، وبنصيحة من اورنج قرروا تنصيبه ملكاً عليهم، وراحوا يضـــغطون عليـــه للعودة بسرعة إلى هولندا لمنحه هذا المنصب، وكانت إليزابيث من بين مَـــنْ ضغطوا عليه، لكنه كان غير راغب في ترك انجلترا حتى يضمن مشـــروع الزواج منها، و لمدة استغرقت ثلاثة اشهر اي منذ تشرين الثاني ١٥٨١ وحتى

شباط ١٥٨٢، حاولت إليزابيث بشتى الطرق لجعله يتعهد بقبول هذا المنصب، وقد أظهر الينكون نفسه على انه كثير الارتياب، وانه متحمس ومسرور على طريقة كلامها معه، ففي اليوم الأول من زيارته، كان قد تستر خلف ستارة ليشاهد رقصها الرائع، وليس مؤكداً من انه كان مسحوراً بها، ولكنه اعتقد بان لديها رغبة في ان تجعله مسحوراً بها، وفي اليوم التالي قبّلته على شفتيه أمام السفير الفرنسي، ومنحته خاتماً كهدية زواج، وقدمته إلى أسرتها بوصفه سيدهم المستقبلي. وأمرت أسقف لينكولن Lincoln ليكون جاهزاً لإتمام مراسيم الزواج. كان هذا مشهداً مقيتاً، لكن مع ذلك لسنا نمتعض كثيراً من امرأة مسنة تدعي انها راغبة بالزواج من شاب، مثلما هو الحال مع شاب يرغب بالزواج من امرأة مسنة، ولسوء حظ إليزابيث كان تمثيلها واقعياً لدرجة انه أقنع من عاصرها، وقد تأثر العديد من الكتاب الحديثين بغرامها المشين حتى ان هنري الثالث اقتنع أخيراً بان إليزابيث في هذا الوقت كانت جدية الى حد كبير، لكنه لم يستطع الاندفاع صوب أية مخاطرة حتى يرى الزواج قد صار حقيقة بأم عينيه. ووفقاً لذلك أرسل وزير الدولة الفرنسي بينارت Pinart (تُوفي عام ١٦٠٥) لتسوية الخلافات بين البلدين، وطالب إليزابيث بتقديم تنازلات الواحدة تلو الأخرى، وأخيراً سألها حول تعويض أو إعادة كاليه، وباسم الملك الفرنسي اخبر بينارت رسمياً الينكون بان عليه المضي إلى هولندا، وحاول إخافة إليزابيث عندما هددها بان سيده يروم بالتحالف مع فيليب، لكنها سخرت منه، وأخبرته بانها تستطيع التحالف مع إسبانيا متى ما شأت، وكان ذلك واقعياً الى درجة كبيرة، وقد فسح المجال لالينكون، وشعر بانه أصبح دمية بيد الآخرين، وانه جاء إلى هنا بحماقة غير

مألوفة بين الفرنسيين الشباب، بان ينحني أمام ملكة الحب المريض من أجـل خدمة مخططاتها السياسية، ووجد نفسه في دائرة الاهانة القاسية، ومُنحني امام خدمتها، ومن المخجل إظهار وجهه في فرنسا من دون أملاكه البلجيكيـة أو زوجته الانجليزية، فقد كان مسروراً لقبول وعـد إليزابيـث الجـدي بانهـا ستتزوجه حالما يمكنها ذلك، ويسمح لنفسه بان ترافقـه بأسـطول انجليـزي صوب هولندا في شباط عام ١٥٨٢.

وطبقاً للسيد فرود Froude: "أعلن الأمير اورنج بان الينكـون كـان مقبولاً من قبل الولايات فقط. ووعد بان انجلترا ستوفر الدعم لهـم، وإذا مـا أهملتهم، فانهم سوف لا يأتمنوا ثرواتهم إلى شخص فاشل وأبله".

ويبدو ان هذا الكلام يمكن ان يكون مستمداً من ثرثرة السفير الاسباني مندوزا، ومن المحتمل، ان مثل هكذا مصدر غير جدير بالائتمـان، وسـواء أكان اورنج من أرسل مثل هكذا "تبليغ" أو لا، فهو لا يستطيع ان يسـمح لأن يكون ثقلاً ضد البينة الكافية من ان الينكون كان موافقاً من خلاله أو من خلال الولايات بشكل رئيس فيما يتعلق بنفقـات القـوات الفرنسـية، الـذي كـان باستطاعته تحمل نفقاتها على حسابه الخاص، وبالدعم الذي تعهد أخوه بتقديمه إليه، لكن لا اورنج ولا أي شخص آخر عدّه أبله. فاورنج لم يكن ليقود نفسه إلى التوقع القائل بانه سيجلب أية مساعدة من انجلترا، ماعدا المال الذي يمكن ان يمون به خفيةً، وبأموال إليزابيث التي جهز بها بكميات كبيرة جداً، لكـن الهولنديين كانوا متوقعين لان يكون معهم، ليمدوه بالمال والرجال.

عزمت الولايات الهولندية الثائرة علـى أن تكـون سـيادة الينكـون دستورية بشكل دقيق وصارم، كتلك التي كانت موجودة قبل انتهاكات فيليـب

ووالده، وهذا لم يكن ليناسب شاباً فرنسياً، ففي بدايـــة عـــام ١٥٨٣ حـــاول بانقلاب مدعوم من البعض من الكاثوليك البلجيكيين، وفي انتـــويرب كانـــت قواته الفرنسية مهزومة وأريقت هناك الكثير من الدماء، لكن كلاً من إليزابيث واورنج -رغم الاشمئزاز والاضطراب بسبب خيانته- مازالا يجدان فيه أمل لاصلاح اخطاءه والاحتفاظ بخدماته. وكان قائد المتطوعين الانجليز نـــوريس Norris مَنْ افشل الانقلاب وكان قد أخذ أوامره من الولايات، وبشكل علنـــي أقدمت إليزابيث على توبيخه، وأمرته بإعادة رجاله إلى انجلترا، لكن وبشكل سري أخبرته بان عمله كان رائعاً، وان يبقى حيثما كان، ففي حقيقة الأمر ان وجود نوريس هناك كان لحماية انجلترا من الفرنسيين والأسبان علـــى حـــد سواء، وليس هناك سبباً للجزم بان ذلك جاء لترضية الينكون، أو ان اورنـــج عمل تحت إصرار إليزابيث، وكل شيء يدل على انه رجـــل دولـــة حكـــيم والأكثر نبلاً في عصره، وان فكره معلق بمستقبل الولايات الهولنديـــة، مـــالم يكونوا مستعدين للخضوع لفيليب، فكل من إليزابيث واورنج يعتقدان بانه من الضروري جداً ان يبقى هناك نزاع مستمر بين فرنسا وإسبانيا، ورغم كل ما حدث لم تقطع الملكة الانجليزية آمال الينكون بمشروع زواجه منهـــا. وتـــم ترضيته مع الولايات في آذار عام ١٥٨٣، لكنه ادمى قلبه، عندما رأى بارما يستحوذ على المدينة تلو الأخرى، فأدرك بان ذلك جعل منه مقرفاً بالنسبة إلى الهولنديين، فقد تعاظمت فضيحته، وأصيب بمرض السل على نحـــو مهلـــك، وفي حزيران ١٥٨٣ غادر بلجيكا من غير عودة، وبعد عام كامل كـــان قـــد وافته المنية.

الفصل السابع

الهجوم البابوي على انجلترا ١٥٧٠-١٥٨٣

كان الملوك ورجال الدولة في القرن الذي نحن بصدده إما مبجلون أو مُدانون وذلك يتوقف على الدرجة الكيفية التي من خلالها يؤسسون ويحافظون على نظامهم السياسي، ومدى السماح لحرية الرأي بان تنتشر بين ربوع الآخرين، وليس من السهل التوفيق بين هذين الامرين. ان النظام يضعف تدريجياً بالسياسة المتهورة أو من خلال ضعف الحاكم، فالفكر المتقد خير من يُركن إليه للعناية به (اي النظام) على المدى غير المنظور.

يرى مذهب التحرر الحديث، ضرورة ان يكون هناك مساواة دينية مطلقة، وان إي تقصير في ذلك يعد اضطهاداً، ولم يشق معظم رجال الدولة الأكثر تقدماً -في القرن السادس عشر- طريقهم صوب نشر حرية العبادة العامة والحوار الديني، فمن الفائدة الجلية إذا ما تعاملوا بحرية الرأي، وتعاونوا في هدوء، وامتدوا وانتشروا بشكل خاص بين المذاهب الأخرى، وانه من الخطأ إدانتهم واحتقارهم على عدّ ان دوافعهم نابعة من معتقد خرافي وضيِقاً في الأفق، فدوافعهم كانت سياسية بشكل رئيس، وانه لمن المنطقي بانهم يدركون الامور بشكل أفضل مما هم عليه.

وفي ظل قانون السيادة -خلال السنة الأولى من عهد إليزابيث- كان القسم مقتصراً على أصحاب المراكز الروحية، تحت سيادة التاج، وعقوبة من يرفض ذلك الحرمان، لكن في عام ١٥٦٣ أي بعد خمس سنوات من عهد إليزابيث، شرّع القسم ليطال أعضاء مجلس العموم، ومدراء المدارس، والمحامين، وإذا ما رفضوه فانهم سيعاقبون بمصادرة أملاكهم والسجن المؤبد،

وربما تصل عقوبة من يرفض هذا القسم إلى الخيانة العظمى، ومما لا شك فيه ان هناك العديد من البروتستانت المتزمتين تمنوا ان يفرض القسم بصرامة، لكن هل كان فعلاً مفروضاً بالقوة؟. لا شك ان الحكومة تمنت ان تفرضه بقوة السلاح، لغرض طرد الكاثوليك من مراكزهم التي كانت تفيض بهم، لكن لا أحد في ذلك الوقت كان قد طاله عقاب صارم، وان يؤدي الأساقفة يمين القسم، لكن لم يمتثل أي وأحد منهم لأية أوامر صادرة بهذا الخصوص.

اما قانون التوحيد أو ما يعرف بقانون المذهب الواحد، الذي مرر في السنة الأولى من عهدها ايضاً، فقد منع إقامة الطقوس الدينية وإلغاء القداس سواء أكان بشكل علني أو سري باستثناء الطقوس المقررة من قبل الحكومة، ومن يخالف ذلك سيقبع تحت وطأة الآم السجن المؤبد ووطأة المخالفة الثالثة (أي الموت)، ودفع غرامة مقدارها شلناً واحداً (١٢ بنساً)، على الذين يتغيبون عن الكنيسة أيام الآحاد والأعياد، وهذا ما احدث العديد من الصدامات مع الكاثوليك بسبب هذا القانون، وكان معظم هؤلاء إما جهالاً أو دنيويين، وقد كان من مصلحة الانجليكانية ان تعالج الأمور على نحو مساو مع الكاثوليك، وعدم جعل هناك أية تعقيدات حول الحضور إلى الكنيسة، وحتى بعد هذا الإذعان للقانون فقد حُرّم من قبل البابا بيوس الرابع Pius IV (١٥٥٩-١٥٦٦) عام ١٥٦٤. كان الكاثوليك اكثر ارتياباً وتغيباً، وان ما يدعى بـ"كهنة كبار السن" كانوا يجتمعون سراً في البيوت والمجالس الخاصة، والبعض من هؤلاء المنتهكين عوقبوا قبل سنتين من وصول إليزابيث الى العرش، ومطلقاً فقد نفذت القوانين خلال تلك الأيام بأسلوب غير منظم كما

هي عليه الآن، فقد عوّل كثيراً على ميول النبلاء وقضاة السلام في النــواحي المختلفة.

كان البابا بيوس الرابع حذراً نسبياً في مواقفه إزاء إليزابيــث، لكــن وريثه بيوس الخامس (١٥٦٦- ١٥٧٢)، اعتقد بان انهيار إليزابيث هو الحل الأمثل للقضاء على الهرطقة في أوربا، الذي عمد إلى إثارة التمردات ضــد تحركاتها داخل انجلترا، ولغزوها من الخارج، فــأي مرســوم بــابوي Bull يستطيع ان يخلعها من عرشها، أو ان يجعل أتباعها يتخلون عنها فانه سيقوم باصداره من دون تفكير، وبعدما أدرك البابا بيوس الخامس من انه قد يُغضب جميع ملوك أوربا، تباطأ في قضيته، وكان ذلك خلال اندلاع التمرد الشــمالي الذي كانت قد سحقته اليزابيث. ان غياب مثل هكذا مرسوم عن العديــد مــن الكاثوليك دفعهم ليقدموا عذرهم للايرل الثائر، ورغم التباطؤ أُصدر المرسوم البابوي في شباط عام ١٥٧٠، وان كل من فيليب وشارل التاسع والكاثوليــك من بعدهم رفضوا اعلان هذا المنشور داخل حدود سلطانهم.

أصدرت الملكة إليزابيث بعد التمرد الشمالي بياناً إلى شعبها، اشــارت فيه الى السلام الذي اوجدته داخل انجلترا وخارجها، فاقتصادها القوي مكنهــا من إدارة السلطة من دون اللجوء إلى الابتزازات غير القانونية، واشارت إلى ان ملوكاً سابقين كانوا قد لجأوا الى ذلك، (لم تكن الملكة اليزابيث نهمة فــي طلب المعيشة أو السلع والعقارات والأراضي أو أي شيء آخر في أملاكهــا وسلطانها)، وقد حاول المتمردون ان يكدرون هذه الحالة من السعادة بذريعة الدين، إذ لم يكن لديهم شكوى حقيقية دامغة تبرر تمردهم، وكان الحضور إلى

الكنيسة الأبرشية في حقيقة الأمر إلزامياً بحسب القانون، مع ذلك، ستكون هناك بعض التنازلات لصالح البلاد.

ان التنسيق بين الالتزامات الدينية والسياسية تجسدت في الواقع حتى تلك اللحظة بالأغلبية من الكاثوليك الانجليز، وقد استدعوا للاختيار بين واجبهم بوصفهم مواطنين وواجبهم بوصفهم كاثوليك، وقد وصلت مذكرة الاستدعاء، من جانب البابا وهذا ليس بالغريب لاسيما وانهم –أي الكاثوليك– يمرون بوقت عصيب، فالعديد منهم تخلى عن الكفاح وانسجم مع الكنيسة الرسمية (الانجليزية)، أما مزاج البعض فقد أصبح معكراً وأكثر خطورة، فقد مرر البرلمان البيورتاني في عام ١٥٧١ وثيقة لإرغام جميع الافراد لاحياء العشاء الرباني مرتين في السنة، في حين ان كنيسة روما عدّت تبديل المذهب جريمة تصل عقوبتها الى حد الخيانة العظمى، فمثلما هناك بروتستانتية متزمتة، هناك أيضاً كاثوليك متزمتون، وان المحاولات لتبرير مثل هكذا تشريع، بشكل فوري ولأسباب سياسية يمكن فقط ان تحرك روح الاشمئزاز داخل كل رجل مهتم وصادق.

اظهرت روح البروتستانتية داخل مجلس العموم نفسها ليس فقط لتدعيم السلطة من خلال ما تصدره من قوانين، ولاضطهاد الكاثوليك، بل في محاولات لتنقية كتاب الصلاة الذي طالما أغضب الملكة، وقد مُنع ستريكلاند Strickland–أحد زعماء البيورتان– من الحضور إلى المجلس. لكن قد يكون ذلك سبباً للاستياء من خلال مصادرة امتيازاته. لكن قرار منعه قد ألغي بعد يوم واحد من صدوره. كان هذا في إحدى جلسات البرلمان الذي أقر أخيراً فرض مذاهب الكنيسة الانجليزية على رجال الدين فضلاً عن المواد

التسع والثلاثين، والتي يعرفها كل شخص بروتستانتي أكثر بكثير من معرفته لكتاب الصلاة.

خلال السنوات الأربعون الأولى (١٥١٧-١٥٥٧) على بداية حركة الإصلاح الديني، انتشرت البروتستانتية في أغلب أجزاء أوربا بالسرعة العظيمة، فهي كانت ثورة دينية وثقافية موجهة ضد مذاهب يعد الوثوق بها أمراً صعباً، وان أعداد المصلحين كانت في تزايد، وقوتهم اشتدت من خلال التجمع حول روح الورع والتدين، فضلاً عن ان هناك العديد ممن لم يكونوا متحمسين بشكل كبير يسعون لجعل هناك مبادئ أخلاقية أكثر صفاءً ونقاءً، فالمذهب القديم كان قد تُرك، وهذا لا يعني أبداً انه غير صحيح، لكنه لم يكن متوافقاً مع الحياة الروحية السامية، وانه يسعى إلى إفساد المجتمع. هذا التصور، كان موجوداً، لفترة قصيرة، وان العودة إلى الكتاب المقدس جاءت للنجاة من (أسقف روما ومن جرائمه المقيتة)، إذ لا يوجد ثمة ما يجعل هناك تحسيناً عاماً للأخلاق في البلدان البروتستانتية، فهو كان ظالماً وفاحشاً ومازال كذلك -يقصد البابا-.

في غضون ذلك، كان هناك انبعاث روحي عظيم يسري في عروق الكنيسة الكاثوليكية، وان مؤشرات ذلك تدل على انه يمكن ان يكون بنفس الروح الأولى التي برزت فيها البروتستانتية، لذا فهو لا يمكن عزوه إلى التعاليم والنماذج البروتستانتية، ومما لا ريب فيه ان منافسة المذهب الفتي حفّز في المذهب القديم طاقاته الأفضل.

كانت السنتين الأخيرتين من مجلس ترنت (١٥٦٢- ١٥٦٣) النقطة الأساسية لبداية الكنيسة الكاثوليكية الحديثة، فقد قدمت العديد من الاقتراحات

لجعل هناك تسوية مع البروتستانتية، إذ رأى أعضاء المجلس بانها الفرصة الوحيدة لإبقاء اصحاب الكاثوليك على القواعد القديمة للمذهب، من أجل تعزيزه بشكل راسخ، فالسلطة الملكية قد أصبحت مطلقة، ورفض الملوك بضمنهم فيليب الثاني تحمل أي تدخل أو التشويش على سلطانهم من جانب الكنيسة، وهذا ما دفع البابوية الى الاعتراف بضعف سلطتها على الملوك.

لم تكن قرارات مجلس ترنت الكنسي، مؤكدة وفي الوقت نفسه غير قابلة للنقض، وكلا الطرفان (البروتستانت والكاثوليك) تهيبوا من الاعتراف بها، وقد بدا للعالم الكاثوليكي بانهم سيكونون مقيدين اذا ما ارتادوا الولايات البروتستانتية، لكن بدرجة كبيرة وبشكل واضح لم يكن ادعياء الكنيسة مهتمين بالحدود السياسية، فمقاومة الهرطقة شملت حتى تلك اللحظة العديد من الولايات المحلية التي تتواجد فيها إجراءات قمعية انبثقت من سلطة الملوك المطلقة، وبعد مدة ليست بالطويلة أُعيد تنظيم التردينتين Tridentine (الاصلاح المضاد)، ليظهر البابا مرة أخرى بوصفه قائداً للقوات الكاثوليكية وتوجيه العمليات المشتركة من أول شخص في أوربا إلى آخر شخص فيها، فمن الصعوبة على فيليب ان يجبر بيوس الرابع على أن يصدر مرسوم الحرمان بحق إليزابيث، لكن البابا بيوس الخامس أطلق مرسومه -كما ذكرنا- في عام ١٥٧٠ رغم ذلك لم يُسمح بنشره في إسبانيا وفرنسا. ان حياة ذلك البابا ضاعت بالاحتجاجات الجدية مع ملوك الكاثوليك لعدم تنفيذ قرارات الكنيسة ضد الملكة (المهرطقة) اليزابيث. كان البابا جريجوري الثالث عشر Gregory XIII (١٥٠٢-١٥٨٥) [١] الذي خلفه مباشرة قبل مذبحة بارثيلمو،

---

(١) جريجوري الثالث عشر: صاحب التقويم الجريجوري أو التقويم المعدل.

قد بادر بالهجوم بنفسه، فكان يثير عاطفة اليسوعيين Jesuits، وكرس علمه لإحياء نظام المركزية في ترنت، واختلفوا حول ان كانت انجلترا منبع البروتستانتية او لا.

كان في نهاية القرن السادس عشر تعصباً وانبعاث دينياً بين صفوف الكاثوليك، وليس هناك مكان أظهر ذلك أكثر مما أظهرته اكسفورد Oxford، فلم يسمح للنقاط الضعيفة داخل الحركات الشعبية ان تمر من دون خطر أو هجوم عليها.

يعد وليام الين W. Allen زعيماً لمتحمسي اكسفورد وهو شاب من اوريل Oreil، وفي السنة الثالثة من عهد إليزابيث، استقال من رئاسة وإدارة قاعة القديسة ماري St. Mary، وفي السنوات الثمانية التالية انصرف جزئياً للعمل في الخارج، وبعدها عمل داخل انجلترا في السلك التبشيري السري، مخاطراً بحياته. قام الين بتأسيس معهد انجليزي للتعليم الثانوي في دوي Douai –شمال فرنسا– عام ١٥٦٨، ولولا هذه الخطوة المهمة لكان المذهب الكاثوليكي منقرضاً في تلك البلاد، إذ بعد مضي خمس سنوات على تأسيس المعهد أرسل مائة كاهن من دوي إلى انجلترا.

كان الين يرمي من وراء ذلك الى وضع نهاية للإجراءات العملية التي يقوم بها رجال كاثوليك غير متخصصين من العلمانيين وعزل وفرز هذا النوع من الدعاة. وقد آثر الين بتأن ضرورة تعميم الاضطهاد لأمر واحد، وذلك بان يجعل هناك مركزاً قوياً للكاثوليك، ثم يدفعهم صوب التمرد، فكان يرغب بالتضحيات والموت من أجل العقيدة، وان الشباب المتعصبين ممن تربوا في دوي، وبعد ذلك في ريمس Rheims –شمال فرنسا– عام ١٥٧٨،

عادوا إلى ديارهم بالفهم العميق حول جميع المصالح التي بالامكان اعادتها الى الكنيسة فانها تستحق ان يموت المرء من أجلها تحت سيف الجلاد.

تأمل البابا جريجوري الثالث عشر بالأشياء العظيمة الذي أحدثها معهد الين، واستعد لدعمه بالأموال، ففي عام ١٥٧٩ ذهب الين إلى روما، وجند لدعم ميركيوريان Mercurian الجنرال اليسوعي، وقد اختير يسوعيين انجليزيين روبرت باريسون R.Parson وادوارد كامبيون E. Campion بوصفهم مبشرين في باليول Balliol. كان كامبيون أصغر بثمان سنوات من الين، لديه مهمة كبيرة في اكسفورد والذي تميز بفصاحته، وادرك شخصياً في ذلك الوقت بانه سيحظى بإحسان إليزابيث وسيسل، وفي عام ١٥٦٨ أخذ أوامره من شمّاس الكنيسة لشجب الكنيسة الانجليكانية رسمياً، وبعد مضي ست سنوات أرسل في مهمته الخطرة إلى انجلترا.

كان من المضني انتظار تحركات ومبادرات الملك فيليب الثاني والبابا جريجوري الثالث عشر، وذلك ان اليسوعيين كانوا قد خططوا ثلاثة أضعاف ما خططوه في هجومهم على إليزابيث في انجلترا واسكتلندا وايرلندا، ففي انجلترا انتعشت حركات المبشرين بين الكاثوليك، وكان لدى الكتّاب الكاثوليك الآم عظيمة لأجل الجدل حول الحركة الدينية الصحيحة، فهي تقاضي جسماً واحداً لتنقذ باقي الأرواح.

عرف اليسوعيون رجالهم جيداً فاستخدموهم بشكل مميز، فإنقاذ الأرواح–من المحتمل جداً– لفئة بسيطة قد تأتي من كامبيون الذي له طبيعة سامية ومقدسة، وأعلن بنفسه من انه قد حرّم بشدة التطفل على العلمانيين أو على شؤون الحكومة، ولا شيء متضارب في هذا الإعلان ليكون دليلاً ضده

عند محاكمته، لكن من دون وضع أية أهمية على مستخلص الإفادات من السجناء ممن هم يقبعون تحت التعذيب، فلا احد يستطيع الشك بان أرباب أعماله هم من رغبوا بتجديد الكاثوليكية في انجلترا من خلال التمرد والاحتلال الأجنبي لانجلترا، فهذا كان فهم العميق لكل مبشر يجتاز البحر، وإذا لم يشر إلى كامبيون في أكثر المحادثات المعروفة، كون لديه سيطرة استثنائية على لسانه.

ودليل ذلك، ان محاولة اغتيال الملكة جاء بتخطيط يسوعي، بإصرار الروحانيين الرئيسيين عن طريق وكلائهم التابعين، وإذا ما أثبت جرم ذلك فانهم سيدعون انفسهم رجال دولة وسياسة ذلك الزمان. ان حالات القتل السياسي كان متناثراً آنذاك خلال القرن السادس عشر، ومن المحتمل جداً ان كامبيون رفض مثل هكذا مشاريع، وانهم لم يفرضوا عليه أمراً فوق أعماله التبشيرية المعتادة، وقد وصف أحد الاساقفة لعنات البابا الموجهة ضد الملكة اليزابيث بالحمقاء، وقال ايضاً: ((انه كلما ازدادت نقمة البابا زاد الرخاء في انجلترا)).

وفي صيف عام ١٥٨٠ قدم كامبيون برفقة كهنة متنكرين إلى انجلترا، لكن مهمتهم لم تفلح، فهي كانت مسخّرة فقط لعرض عدد السنوات الآمنة التي مرت وإليزابيث جالسة على عرشها، وفي رسائله إلى روما، تبجح كامبيون بانه كان مرحباً به أينما جلس، وبالحشود التي حضرت وعظه ونصحه، وبحماسة الكاثوليك، وذكر بان سمعة البروتستانتية أصبحت في الحضيض وانها ستسقط قريباً، ويبدو من الواضح ان مثل هكذا نشوة لا توجد إلا في عالمه الخاص. كان كامبيون قد تسلل الى داخل انجلترا وهو متنكر

بشخصيات مختلفة، وطالما كان في مناطق حيث النبلاء وطبقة الجنتري يفضلون المذهب الكاثوليكي أو المذهب القديم، فقد وعظ بعلانية، وان اية بلاد ترغب في تنفيذ القوانين بشكل متماثل واتساق فلا بد من توافر شبكة من المواصلات من سكك حديد، وخطوط التلغراف فضلاً عن نظام شرطة منظم بشكل مميز، وهذا ما كانت تفقده انجلترا خلال القرن السادس عشر، إذ لم يكن لديها شيء من هذا القبيل، وكان هذا الحال في جميع انحاء اوربا، مما اسهم بشكل كبير في تعاظم الجرائم، وإذا ما انتشرت القوات الحكومية الرصينة، وفاقت مقدرة الجرم وسحقته فانها سوف لن تخشى عواقب ذلك، وباستثناء الأوقات الطبيعية فقد اعتمدت الملكة اليزابيث على قضاة السلام المحليين، وقوات حفظ الامن من الأبرشيين، وإذا ما اهملوا تطبيق القوانين فان الوعظ سيكون معطلاً الى حد ما، خاصة وان في ذلك الزمان لم تكن هناك صحف تصدر. ان الطرق الجيدة قليلة جداً، ولم تكن أبرشية واحدة تدرك ما هو آت. اما كامبيون فكان يتنقل بين بيوت النبلاء يمتطي الخيول كأي ضابط حكومي، وبإمكانه ان يسافر في جميع أنحاء انجلترا من دون ان يلاحظ أحد ذلك، وإذا ما قام بالوعظ في بعض قرى لانكشاير Lancashire. فان أنباء ذلك لا تصل الى بيرغهلي (سيسل) أو والسينغهام حتى ينتقل الى مقاطعة اخرى، وربما سيظهر في لندن المكان الأكثر أمناً، وقد أصدرت مذكرة اعتقال بحقه حال وصوله إلى انجلترا، لكنه لم يظهر حتى تموز عام ١٥٨١ في اكسفورد.

ان الغالبية العظمى من الكاثوليك العلمانيين فضلوا إبعاد جميع اليسوعيين وخريجي معهد دوي، فمثلما لم يرغبوا بان يضطهدوا، لم يحبذوا

ان تقع هناك أية حرب أهلية، وكانوا ضد أي احتلال أجنبي، حتى وان تيقنوا بان إليزابيث لا يمكن ان تخلع من عرشها، فـانهم سـيكونون الـى جانبهـا وموالين لها بإخلاص، لكنهم كانوا ينتظرون رحيلها بشكل طبيعي (المـوت) وتفسح المجال لملكة الاسكتلنديين ماري ستيوارت لتجلس على العرش محـل اليزابيث، وفي هذا الخصوص كتب السفير مندوزا إلى فيليب قـائلاً: "بـانهم يضعون أنفسهم في أيـدي الله، ويرغبـون بحيـاة التضـحية فـي جميـع تحركاتهم...".

وبمرسوم البابا بيوس الخامس، منع الانجليز من الإقـرار بإليزابيـث كملكة عليهم. وقد خوّل جريجوري الثالث عشر اليسوعيين لتفسير ذلك بـان البروتستانت يقرّون بإليزابيث بوصفها ملكتهم، وسيعذر الكاثوليك عنـدما لا يقرون بإليزابيث ملكة عليهم حتى تخلع نهائياً، وقد صاح الكتّاب البروتستانت ضد هذه التمييز الغادر، وهذا يشبه إلى حد كبير، موقف جميع الالزاسيين عند يجبروا على الاعتراف بالإمبراطور الألماني، لكن كانت الحكومة الانجليزية تتعامل بتعصب وبرعونة مع ضمائر الرجال ممن كانوا أبريـاء مـن أيـة تمردات.

وفي بداية عام ١٥٨١ مررت قوانين أخرى خاصة بالاضطهاد، وقـد نص أحدها نص على: دفع غرامة تصل إلى عشرين باون pound في الشهر الواحد لمن لا يحضرون إلى الكنيسة. ان مثل هكذا إجراء قـد وضـع فـي الحسبان استفزاز الكثير، وان شنق البعض من الكهنة اوجد حالة مـن عـدم الرضا، وان أسماء جميع Recusants(١)في كل أبرشية سُلمت إلى المجلـس

---

(١) لفظة لاتينية تعني المعترض أو المتمرد.

الخاص لاجل معاقبتهم، وبلغوا مـا يقـارب ٥٠٠٠٠ شـخص وأصـبحت الغرامات الدقيقة لها اهميتها الخاصة في الدخل الملكي، بالتأكيد هذا هو العدد باستثناء عددٍ صغيرٍ من السكان الكاثوليك، ولكن إذا كان الجميع يحضـرون بالعادة إلى الكنيسة –على نقيض أوامر البابا– بدلاً من دفع غرامة صـغيرة، اذاً يجب على الحكومة الانجليزية ان تعلم بانهم ليسوا المـادة التـي تغـذي المتمردين، وبعد ان أرغم كامبيون تحت وطأة التعذيب للكشف عن أسماء من لجأ اليهم في المقاطعات المختلفة، دعا إلى مناظرة تستمر لمدة ثلاثـة أيـام للتدارس والتناقش أمام جمهور حاشد ضد أربعـة قساوسـة مـن المـذهب البروتستانتي، وكان قد عُرض عليه العفو إذا ما حضر لمـرة واحـدة إلـى الكنيسة الانجليكانية، لكنه رفض بإباء، وعُذب مـرة أخـرى حتـى خلعـت أطرافه، وعندما تعافى جزئياً وضع في السجن مع بقية رفاقه ولم يكن قـادراً على تحريك يده لدفع التهمة عن نفسه "فاثنان من جماعته رفعا له يده، وبعدها قبلّوا ما كُسر من عظام جسمه"، ويذكر مندوزا: "ان أظافره اقتلعت من علـى أصابعه"، وبعيداً عن معتقده المذهبي فان لا شيء غير الخيانة كانت قد أثبتت ضده سواء في عمله أو في كلامه، لكنه كان قد أقر بإليزابيث ملكة شـرعية، وان التفسير الجديد للمرسوم البابوي قد أجاز له العمل بحرية، لكنـه رفـض إعطاء أي رأي حول حق البابا في خلع الأمراء، وهذا كان كافيـاً للقاضـي وهيئة المحلفين لإدانته بوصفه مذنباً، وفي موضع التنفيذ عرض عليه العفـو مرة ثانية شريطة ان ينكر الحق البابوي في قضـية الخلـع والتنحيـة أو أن يستمع إلى موعظة بروتستانتية، ورغم ذلك تمنى كامبيون بان تعيش الملكـة حياة طويلة مليئة بالازدهار، وقلما كان يذكر ذلك، وفي فترة ليست بالطويلة:

"سال دم بتدفق على ملابس شـــاب يـــدعى هنـــري وايبـــول H.Waipole، ومباشرة كان كامبيون قد قُتل بالطريقة نفسها".

وجاء تعليق السيد فرود على ذلك قائلاً: "إذا كان الأمر قانونياً للـــدفاع عن الاستقلال الوطني في قتل الأعداء المكشوفين خلال الحرب، فانه سيكون اكثر قانونية لاعدام المتآمر السري الذي يسعى الى خراب بـــلاده باســـم الله، وهذا بالتأكيد لا يستحق الاّ الموت"، وذلك سيكون كافياً لتبرير ذلـــك الفكـــر الوحشي وللأعمال المأساوية في الثورة الفرنســـية فيمـــا بعـــد، وان هـــولام Hallam وماكولاي Macaulay أدانا ذلك العمل الوحشي والتعصب الديني المتهجم.

كانت هناك وحشية في القانون الانجليزي -بقي لمدة طويلة- والذي لم يخول بانتزاع الاعترافات بسطوة التعذيب والتنكيل، وقد قيل ان الآت التعذيب والخلع في البرج، قد وجدت فـــي عهـــد ادوارد الرابـــع (١٤٤٢-١٤٨٣)، وتطورت خلال الحكومات المستبدة المتعاقبة، ويبدو انها كانت قليلة الاستخدام قبل عهد إليزابيث، إذ كان هناك مقدمات مألوفـــة لمحاكمـــات سياســـية، وان المسؤول الرئيس عن هذه الوحشية هو سيسل (بيرغهلي)، وقد تختلف الآراء في مكانته بوصفه رجل دولة، لكن لا يختلف اثنان على انه ذو مواهب سامية بوصفه وزيراً للأمن، وفي زمن سابق كان لديه إحســـاس بالعـــار لإعـــلان بيكسنيفيان Pecksniffian اعتذاره عن تشغيله لآلات التعذيب، ويقـــول (لا أحد): "من أولئك الذين وضعوا في أي وقت من الأوقات داخل آلة التعذيب قد سئلوا -أثناء تعذيبهم- حول النقاط المذهبية، لكن بقدر تعلق الأمر بمؤامراتهم، ومع الأشخاص الذين تعاملوا معهم، كان رأيهم جميعاً ان من حـــق البابـــا ان

يحرم الملكة من اعتلاء عرشها وارتداء تاجها". لكن الضحية المسكينة التي باعتقاد واعٍ (كما هي جميع المسيحية)، تتمنى تدارك الأمر بالصمت، وأن تنساق إما للاعتراف أو للتعرض إلى الأغلال والتعذيب.

وبعد ثلاث سنوات كان رئيس الأساقفة البروتستانتي في دبلن قد تحير كثيراً كيف يتم تعذيب رئيس الأساقفة الكاثوليكي في كاسيل Cashel بسبب انه لم يكن هناك "الآت تعذيب أو أية وسائل أخرى" في دبلن، وقد أشار والسينغهام بان أقدامه ربما ستشوى بالنار، وان البعض من الأساقفة الانجليكانيين -كما قد يتوقع المتعصبون- كانوا متجاسرين صوب النصح بالتعذيب، لكن سيسل كان أقل تعصباً من سيدته، وكلاهما اهتموا بذلك ليس من معتقد مذهبي معين، إذ كانا متوافقين مع البابوية في قضية الملكة ماري، لكن كان لادعاء الملكية في تحديد المعتقد الديني -أو بالأحرى المهنة الدينية- من أثارهم لإحباط مشروع المبشرين، ومما لا شك فيه كان ذلك أمراً تحريضياً.

كان الهجوم البابوي اليسوعي على انجلترا فاشلاً تماماً، وان القليل من أصحاب الرتب ممن كانوا على المذهب كاثوليكي من قبل، قد سوت خلافاتهم مع البابا، ويدّعي السفير الاسباني مندوزا بان من بينهم ست نبلاء كانوا يخفون أسماءهم، فهؤلاء كما يعتقد كانوا قد قرروا بان يجمدوا تحركاتهم ما لم يدخل جيش أجنبي إلى انجلترا أولاً، الا ان مندوزا كان بعيداً جداً عن الملك فيليب لكي يعلمه بالكيفية التي من خلالها يهاجم انجلترا في ذلك الوقت، وقبل حوالي سنة أي في تشرين الأول عام ١٥٨٠ عاد دريك من رحلته البحرية المشهورة حول العالم، إذ لم تكن تلك الرحلة سوى بعثة قراصنة، لذا فانها

كانت سيئة الصيت وكانت قد مولت من قبل الملكة إليزابيث وليستر (دودلي)، وعلى الأرض والبحر كان قد استحوذ دريك على ذهب وفضة وأحجار كريمة تقدر بـــ ٧٥٠٠٠٠ ليبرة Libra–على أقل تقدير– جميعها عائد لفيليب، وراح مندوزا يطالب بالتعويض، ويتحدث عن حرب وشيكة لكن من دون جـــدوى. وأبقت إليزابيث على الغنيمة، وعبّرت عن امتنانها وثقتها للفارس دريك بشكل علني وصريح، وعندما أخبرها مندوزا بانها إذا لـــم تســـتمع لحديثـــه، فانـــه سيضطر إلى إطلاق صوت المدافع ليرى هل هـــي صـــماء أم لا ؟ فأجابتـــه إليزابيث بكل هدوء، بانه إذا ما أستمر في استخدام لهجـــات التهديـــد فانهـــا ستضطر إلى ان ترميه في السجن، وقد أوضحت المراسلات التي كانت بـــين مندوزا وسيده فيليب فشلهم بسبب علاقات إليزابيث العميقة مع فرنســـا، وقـــد استطاعت ان تبعد نفسها بملء إرادتها من أي تحالف هجومي مـــع هنـــري الثالث ملك فرنسا، لكن مع صوت أول إطلاقة مدفع إسبانية ستلجأ اليزابيـــث إلى عقد مثل هكذا حلف مع فرنسا، وانه لمن المحتمل ان لا يعرض التـــاريخ حالة اخرى من الدبلوماسية المثالية في مثل هكذا توازن معقد للقوى والـــذي عُولج على نحو متقن من جانب الملكة اليزابيث.

كانت اسكتلندا في حالة من الفوضى، بحيث لا يمكن إنقاذها من هكـــذا وضع إلا من خلال ملك محنك وشجاع، فالنبلاء بدلاً من ان يصبحوا ضعافاً، اكتسبوا قوة واستقلالاً في مناطقهم أكثر مما كان يتمتع بها أبائهم، فقبل ثلاثين سنة مضت امتلكت الكنيسة نصف أراضي البلاد، ودعمـــت التـــاج بثبـــات، وتقريباً أصبحت جميع هذه الثروات بشكل أو بآخر تحت تصـــرف النـــبلاء، رغم ذلك، فهم لا يملكون شيئاً إذا ما قورنوا بما يملكوه النبلاء الانجليز، فهم

كثر –اي نبلاء اسكتلندا- بالنسبة إلى أموالهم التي بحوزتهم. كانــت ســلطة التاج كافية وواسعة في الجانب النظري، ومن يرغب في ان يكون ملكاً عليه ان يسعى الى تحويل ملكه وتاجه الى حقيقة، فذلك التاج كان كبيراً جداً علــى جميع الأوصياء الذين عملوا تحت رايته –التاج الاسكتلندي-، حتى ان موراي لم يوفق في ذلك. كان بيت دوغلاس من أقوى البيوتات فــي اســكتلندا، وان مورتن – الذي بدا انه سيتزعمه من خلال قصور ايرل انجس The Earl of Angus- كان رجلاً جريئاً وقادراً، لكنه كان يفتقد إلى العمل بروح الجماعة، وإلى سعة الأفق، أو إلى نزاهة موراي، فكان مكروهاً من قبل العديــد، فهــو بوصفه رئيساً لحزب بسيط، فان لا أحد يمكنه ان يكون أفضل منه مقدرة في إدارة ملكه، اما على صعيد تمثيله للتاج، فان جميع الرجال سيقفون ضده، إذ ان دعم مثل هكذا رجل كان لا جدوى منه، وإذا ما جعلت إليزابيث قضــيته قضيتها، فانه يتوجب عليها غزوا اسكتلندا بالحال.

ان جوهر التفاهم ما بين فرنسا وانجلترا يكمن في ان يبعد كلا الطرفين يديه عن اسكتلندا، وقد أدركت إليزابيث بانه إذا ما صادفها عقبــات خطــرة، فبإمكانها ان تكون مع فرنسا وانها لطالما ادركت واحترمت ذلك، أمــا مــن جانب فرنسا فانها كانت تدرك جيداً بان لانجلترا افضلية التدخل في اســكتلندا بسبب قربها الجغرافي منها، وحتى انه عندما كانت تواقة إلى التحــالف مــع انجلترا، لم تتخل فرنسا عن الدسائس تماماً في اسكتلندا، كانت هذه توجهــات البلاط الفرنسي، وسواء اكان ذلك موجهاً من قبل الملك أو من دوق جــويس Guise.

كان اليسوعيون ينظرون إلى جويس على انه مقاتلهم والمدافع عـنهم، فهم لا يستطيعون السيطرة على الزعماء المتوجين لأجل نيل تعهدات مـنهم، فجيمس السادس الذي له من العمر آنذاك ثلاثة عشر عاماً أصـبح مصـرّحاً بعمره، وان الوقت متأخر للتفكير في خلعه، وإذا كانت شخصيته ضعيفة، فان إدراكه واكتسابه للخبرات كان كبيراً في السنوات اللاحقة، وان مهاراته كانت قوية بما فيه الكفاية ليحسب لها حساب في السياسة الاسكتلندية. ان حقه فـي التاج كان مُعترضاً عليه بشكل واضح من جانب أمه، لكن اليسوعيين سـعوا إلى إقناعه بان موقعه لن يكون آمنا ما لم يتوصل معها إلى تسوية كأن يقبلـه منها كهدية ويقر بسيادتها المشتركة على البلاد الاسكتلندية، ذلك ان حدث فانه سيرميه كليا في أحضان النبلاء الكاثوليك، وسيكون إعلاناً واقعياً للحرب على إليزابيث كونه يجب ان يعلن نفسه كاثوليكياً ويتصل بالفرنسيين، وانه تمنـى بان الملك فيليب –الذي كان يغتاظ من التدخل الفرنسي- سوف لن يعتـرض على البعثة المرسلة اليه والتي ضمت اليسوعيين تحت أمرة جويس. والـذي كان أكثر فأكثر يغرق داخل فلك إسبانيا وروما. ان أي دمـج لجـيش مـن الاسكتلنديين والفرنسيين سيركز على ضرورة اجتياز الحدود، وسينظم إليـه الكاثوليك الانجليز، فإليزابيث يمكن ان تخلع، وتحل محلها ماري.

كان هذا مخططاً جميلاً وسهلاً على الورق، لكن بالتأكيد كـان هنـاك تردداً كبيراً خلال مراحل تنفيذه، فجيمس ربما يساوم أمه؛ ورغم صغر سـنه أدرك جيداً بانها قصدت تخطيه، وسيكون مسروراً جداً بما فيه الكافية عنـدما يتخلص من الوصي مورتن، ولم يشأ ان يكون مجرد دميـة فـي أيـدي آل ماريان، ولم يكن يرغب بالاستماع إلى مواعظ البرسبيتاريين Presbyterian

أو المشيخيين –المذهب البروتستانتي في اسكتلندا–، وان الشاب قيم نفسه على ما يملكه من مهارة في دحض حجج المدافعين عن البابوية، وامتعض من مواعظ إليزابيث؛ لكنه عرف بان وراثته للتاج الانجليزي يعتمد على نيتها الحسنة إزاءه، إذ كان يرمي من وراء ذلك البقاء على علاقات طيبة معها، وإذا ما كان هناك جيش فرنسي في اسكتلندا، فسيعدّ ذلك وجوداً لجميع الأجانب في تلك البلاد، وأخيراً إذا ما دخلت الجيوش الاسكتلندية والفرنسية – وهذا متعذر– انجلترا، فانه من الممكن ان يجعل هناك ثورة عارمة تضم جميع أطياف الشعب الانجليزي، لم يشهدها لها مثيل من قبل.

فالمؤرخون الذين يجعلوننا نعتقد بان إليزابيث كانت ستضع انجلترا على حافة الانهيار بسبب بخلها وعنفها، يصورون الأمور بتهويل عظيم غير دقيق، إذ يتطلب الأمر حذراً شديداً؛ لكن هناك أمراً واحداً يجعل من الأوضاع تزداد خطورة وهو التوظيف غير الصحيح وغير المسؤول للقوة وللسلطة في انجلترا، وهذا الأمر ليس له وجود في فكر بيرغهلي ولكنه موجود داخل المجلس باكمله، ويبدو ان إليزابيث وقفت لوحدها من خلال آرائها، لكنها سمحت لوزرائها بالتعبير عن أفكارهم بمطلق الحرية، فهي لم تكن تخشى التصرف بحكمها الخاص دون الاخذ بنصائحهم.

ارسل جويس واليسوعيون إيسم ستيوارت Esme (١٥٤٢-١٥٨٣) أبن أخ لينيكس (الوصي السابق)، إلى اسكتلندا، الذي كان في فرنسا ويحمل لقب كونت دي اوبجني d'Aubigny في أيلول ١٥٧٩، وبسرعة كسب قلب الملك، الذي جعله ايرلاً، وبعد ذلك دوق لينيكس، وحصلت إليزابيث بالحال على برهان قوي يثبت مخططاته الملتوية، فحضت مورتن على مقاومتهم بكل

ما أوتي من قوة، لكن المتحيزين ممن كانوا يخشون التحول إلى البروتستانتية، جندوا الوعّاظ لجانب إيسم، وبهذا الائتلاف غير الطبيعي، قدم مورتن إلى المقصلة في حزيران عام ١٥٨١، وخلال الفترة التي بين توقيفه وإعدامه، كان المجلس مصراً مع إليزابيث على ضرورة غزو اسكتلندا، لإنقاذ القائد المحبوب لانجلترا، ولسحق لينيكس، فهي ذهبت لجميع الامتدادات في طريق التهديدات. حتى ان اللورد هانسدون Hunsdon كان جاهزاً لتحشيد جيش على الحدود، لكن الخطوة الأخيرة ولدت احتجاجاً كبيراً لدى السفير الفرنسي. لم تقصد إليزابيث ان تجعل تهديداتها مؤكدة، وتركت مورتن يلاقي مصيره المحتم، فهي تماماً لم تكن تقصد غزوا اسكتلندا، ولم يجب عليها ان تدفع مورتن صوب الخيانة من خلال التعهد بحمايته، فليس هناك رجل دولة يرضى بان تلوث سمعته بقاذورة الخيانة.

مثّل اعدام الوصي مورتن الدعامة الأساسية لحركة الإصلاح الديني والسيف في وجه آل ماريان، قد أستقبل بغبطة واسعة بين كاثوليك أوربا، وقد رأى اليسوعيون في تخيلاتهم العميقة، ان كيرك Kirk قهره وربح موقعاً ممتازاً للهجوم على انجلترا. ان بعض المؤرخين الحديثين -رغم ان النتيجة أمام أعينهم- وقعوا بالخطأ الفادح نفسه، فالحدث كان نفسه بدرجة كبيرة، فمورتن كان يكن الكراهية للنبلاء الاسكتلنديين، ولرجال الدين في جميع صورهم.

قوبل النمو الآخر للمخطط اليسوعي بصعوبات جمة على الجوانب المختلفة، فأغلب اللوردات الكاثوليك انزعجوا كثيراً من المشروع الذي يجعل من جيمس يقبل التاج بوصفه هدية من أمه، كون ذلك سيشير ضمناً إلى انه

لن يصبح ملكاً قانونياً؛ وهذا ما سيبطل ألقابهم على جميع الأراضـــي التـــي حصلوا عليها من الكنيسة وسيضعف من سلطتهم التي جنوها خلال الأربعـــة عشر سنة الماضية. ان اليســوعيين كريتشـــتون Crichton وهولـــت Holt أرسلا متنكرين إلى اسكتلندا، ووجدوا ان لينيكس يائساً، والذي أجبر للإقـــرار بانه لا يستطيع تحريك انشاً واحداً في آرائه الدينية. وعلى النقيض من ذلـــك، تصور جيمس السادس بان مهاراته الجدلية انتقلت إلى لينيكس، وكان كثيراً ما يفخر بالعمل البطولي إلى أبعد الحدود، وبقي إجراء واحد للاستيلاء عليه –أي جيمس– وإرساله إما إلى إسبانيا أو فرنسا، ويدير لينيكس الحكومة في هـــذه الأثناء باسم ماري، متمثل في إمتلاك جيش أجنبي، ونظراً للحماس والغيـــرة المتبادلة بين فرنسا وإسبانيا أقترح بانه إذا جهز فيليب المال سراً، فان البابـــا سيرسل جيشاً ايطاليا صوب اسكتلندا عن طريق الممرات المائية لجبل طارق Gibraltar، ولترتيب هذا المخطط الثمين رحل كريتشتون إلى روما، وهولت كان يروم الذهاب إلى مدريد، لكن فيليب منعه من المجيء، وســـيكون أمـــراً جيداً إذا ما تمكن لينيكس من إرسال جيمس إلى إسبانيا. كانت هناك توقعـــات بان الملك فيليب سوف لن يقدم له المساعدة، وانه لم يكن متفائلاً بفرنسا، وقد ناشدت ماري جويس لأجل التعهد بمخطط طويل الأمد، لكن لا يخاطر به من دون موافقة ملكه فيليب الثاني، وبينما كان متردداً، أصلح المحبون لانجلتـــرا خلافاتهم واستولى أحد الأشخاص على الملك، في ما يعرف بهجوم روثفـــين

Raid of Ruthven[1] وذلك في آب عام ١٥٨٢، إذ كانت دموعه -اي جويس- غير مجدية، وفر المنحازون إلى فرنسا، أما هو فقد مات في السنة التالية أي عام ١٥٨٣، ومرة أخرى فإذا ما قام المحبون لانجلترا بجل أعمالهم بالاعتماد على أنفسهم، فانهم حقاً سينجحون في مسعاهم في حماية المصالح الانجليزية، وكان هناك حزب ديني كان من الأهمية بمكان أن آمنت به إليزابيث، فكانت متيقنة ومتأكدة مع من تتعامل، إذ لم يكن هذه الحزب سامياً على الدوام في كل مساعيه، فكان يتعامل مع النبلاء الاسكتلنديين بأنانية مطلقة، وبحذر عميق، وكان يهتم بالأمور الفوضوية أكثر من أي استقرار آخر، لكن حتماً سيكون مهماً لخدمة المصالح الانجليزية سواء أكان في الحكم أم في الجانب المُعارض، كان هناك طريقاً واحداً فقط بإمكانه ان يكون الحل لإيقاف جميع ذلك، وهو طريق القوة وهذا ما توارثه أعضاء مجلس إليزابيث من الملك هنري الثامن والحامي سومرست.

كان المخطط البابوي واليسوعي خطراً على انجلترا وقد عولج بطريقة غير ملائمة من جانب إليزابيث، التي لم تظهر الكثير من القلق إزاء احترامها وشرفها، وكان لبرودة أعصابها، وجراءتها، وتقديرها الصحيح للضغوطات التي لابد ان تتعامل معها بحكمة ودبلوماسية، وثقتها العالية بحكمها ان أبعدت

---

(١) هجوم روثفين: مؤامرة سياسية أُحيكت في اسكتلندا عام ١٥٨٢. قام بها مجموعة من النبلاء تحت قيادة وليام روثفين (١٥٤١-١٥٨٤) الذي قام باختطاف العاهل الاسكتلندي جيمس السادس، وطالبوا بضرورة اصلاح حكومة اسكتلندا، وللحيلولة دون عودة ماري من انجلترا.

انجلترا عن الانهيار وانهار الدم بينما كان بالامكان ان يقع فيها مستشـــاروها فيما لو ترك الامر لهم.

كانت السياسة التي تبنتها إليزابيث إزاء اسكتلندا متعمدة، وكان المحبون لانجلترا يصرون على ضرورة الحصول على رواتب مالية، وراح وزراؤها يسعون لاجل ارضائهم، إذ كانت اليزابيث راغبة في منح جيمس راتباً معتدلاً، لكنها لم تكن تتصور نفسها في يوماً ما بان تعطي النبلاء بنساً واحداً، وفيمـــا يتعلق بأشيائها المفضلة" كما تذكر إليزابيث: من ان الينكون أعلن حبـــه لهـــا لأجل جمالها، واعلن الاسكتلنديون ذلك لأجل تاجهـــا؛ لكـــن جمـــيعهم أرادوا الشيء ذاته في نهاية المطاف، الا وهو المال الذي بحوزتهـــا، ويجـــب ان لا يكون كذلك"، وقد ادرك جيمس بان أمه تنافسه على التاج في كلتا المملكتـــين، ومهما قد يدّعي أحياناً، فان تحقيق أمنيته الحقيقية تكمن في ابقاء والدته حبيسة السجون ورهينة القفل والمفتاح، وقد أقنعت إليزابيـــث نفســـها بـــان النـــبلاء الاسكتلنديين – مع بعض الاستثناءات– يرومون وضع العراقيل في طريـــق عودة ماري، لأجل حسابات خاصة بهم، وهذه النقطة الوحيدة التـــي تجعلهـــا تتعامل مع النبلاء الاسكتلنديين، وهكذا أطمأنت إليزابيث، إذ من خلال اتصالها بماري بالإمكان ان تعرض لها فشل ويأس دسائسها في اسكتلندا.

وفي كانون الأول عـــام ١٥٨٣ اســـتعطف الايـــرل آران(١)، الملكـــة اليزابيث وتوسل إليها لقبول سيده الشاب –يقصد جيمس–، مثلما تقبل المحبين لانجلترا الحقيقيين. لكن كان لدى إليزابيث سبباً مقنعاً في ان تكون راضية عن سياستها إزاء التخلي عن النبلاء الاسكتلنديين لتكون بمعزل عن مشاكلهم.

---

(١) مُنح اران من قبل جيمس لقب وعقارات آل هاملتون المبعدين.

الفصل الثامن

المحمية الهولندية ١٥٨٤-١٥٨٦

وقعت الاراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) تحت سيطرة امراء برجنديا (اقليم فرنسي) في القرن الخامس عشر، وبمقتل شارل الجسور عام ١٤٧٧ انتقلت الى ابنته ماري التي تزوجت الامبراطور مكسميليان الاول (١٤٥٩-١٥١٩) امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة، ولما توفيت ماري عام ١٤٨١ ورثها ابنها فيليب، وأعقبه عام ١٥٠٦ ابنه شارل -والد الملك فيليب الثاني- اميراً على الاراضي المنخفضة، غير ان شارل هذا اصبح ملكا على اسبانيا، وامبراطوراً على الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٥١٩ بعد وفاة جده من ابيه.

يعتقد المؤرخون الانجليز الى حد كبير بان الكفاح الهولندي الكبير الموجه ضد إسبانيا هو ازمة عظيمة خيمت على أحداث القرن السادس عشر، ولولا تدخل الملكة اليزابيث لكان من الممكن ان تصل هذه الازمة إلى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، فانجلترا آنذاك كانت غير مسلحة ومثقلة بالديون ومرت بعهود مليئة بالنزاعات، والشعب مازال على المذهب الكاثوليكي بشكل رئيس، وكان قسم كبير من النبلاء يتنازعون على التاج، وآخرين عملوا الكثير لتأكيد مراكزهم القديمة داخل ما استجد من أوضاع، وكانت التجارة والصناعة تضعفان تدريجياً، وكانت الطبقات الفقيرة تعاني كثيراً ومستاءة جداً، ولمّا رأى العديد بانه ليس هناك أفضل من إليزابيث لتجلس على العرش الانجليزي، وقفت اسكتلندا في أيدي أكثر الأعداء

خطورة. لم يبالِ فيليب الثاني بالثورة، وبدا تقريباً انه سحب انجلترا لتدور ضمن المدار الواسع لإمبراطوريته.

وتقريباً مر جيل كامل منذ اعتلاء إليزابيث العرش. وفي كل سنة تمضي، كان هناك تنقيح لأوضاع البلاد. كانت جميع الديون الانجليزية تدفع بانتظام منذ عهد الملك هنري الثامن، وفي حين لا يستطيع مالك مناجم الذهب الأمريكية وأغنى المراكز التجارية في أوربا، أن يطرح قرضاً من دون اية قيود، وبإمكان إليزابيث ان تقترض متى ما وافقت بدفع خمسة بالمائة من قيمة القرض، الا انها توقفت عن ذلك، إذ كان لديها فائض بسيط في خزانتها، فالإدارة المالية كانت تحت إشرافها الشخصي. إذ كان بالامكان تجنيد وتدريب قوات شعبية بشكل لا بأس به، وكانت المخازن الكبيرة مكدسة بالاسلحة، ولم يكن أي أسطول بحري تم صنعه في ذلك الوقت، كبيراً كفاية، إذ انه ليس بحاجة إلى ان يكون كذلك، بالنسبة لسفينة حربية في تلك الأيام التي لم تختلف عن سفينة تجارية عادية، وإذا ما تتطلبت الحاجة فان الأسطول الملكي سيكون في تزايد ونمو بشكل غير محدود، وان جنرالات فيليب العظام، ألفا وبارما، توصلا إلى استنتاج مفاده: ((ان غزوا انجلترا هو المشروع الأكثر صعوبة على الاطلاق، إذا ما اخذ سيدهم على عاتقه التطلع صوب ذلك))، وكانت ثروة أصحاب العقارات والتجار في تزايد مستمر، وبدأت الصناعات الجديدة تنمو شيئاً فشيئاً، وكانت الفروع الجديدة للتجارة الأجنبية قد فتحت، ووظف العديد من الفقراء واطمئنوا لذلك، وكانت جميع القيادات المحنكة والآمنة قد نمت جراء دعم إليزابيث لها.

اعتقد وزراء الملكة اليزابيث خاصة واليسنغهام وسيسل بانه من خلال السياسة البارعة، ستتمكن انجلترا من جعل اسكتلندا حليفاً مطيعاً لها، وكانت إليزابيث الوحيدة التي أدركت بان هذا الأمر مستحيل، واستنتجت، بان اسكتلندا اذا ضُمت لانجلترا فان هولندا ستنضم إلى إسبانيا والتي طالما شكلت في عقليتها ما يعرف بـ(القرحة او المعضلة الإسبانية)، إذ كانت كإعصار قاتل بقوته وشراسته، وكان كافياً لإليزابيث إذا ما الملكة الشمالية -تقصد ماري- عولج أمرها من دون أية أضرار، وفي حقيقة الأمر كان الحاكم الاسكتلندي الوحيد (ماري) الذي يشكل خطراً حقيقياً قد انتهى أمره في انجلترا.

شلت الثورة الهولندية تحركات الملك فيليب، وان مشروع غزو انجلترا قد تم تأجيله حتى تُقمع الثورة، وهناك سؤال يطرح نفسه، لماذا لا تدعم إليزابيث الثورة الهولندية بقوة أكثر؟. إذا ما عملت الملكة اليزابيث على دعم الثورة فانه سيدفع فيليب الى ان يحول انظاره صوب غزو انجلترا، وهذا يبرهن بان اليزابيث ارتبطت بالاحداث التي تدور حولها، والتي ألزمت نفسها بالظروف الجديدة للتدخل بقوة أكثر في هولندا، والنتيجة كانت حرب الارمادا، ولو ان الهجوم الاسباني جاء قبل عشرة أو خمسة عشر سنة من عهد اليزابيث لربما أختلفت النتيجة عما هو عليه عام ١٥٨٨.

حكم النقاد على سياسة إليزابيث الخارجية على نحو غير مناسب، إذ أخفقوا في وجهات نظرهم إزاء انفتاحها في علاقاتها مع فرنسا، مع ذلك فان مصالحها مع الملك الفرنسي هنري الثالث لا يمكن ان ندعوها بانها مماثلة، فهم تزامنوا كفايةً لجعل هناك تواصل لفهم جيد يمكن ان يشكل منفعة متميزة

لكلا البلدين، ولإبقاء مثل هكذا فهم كان يحتاج إلى أعصاب باردة من جانب الحكام بالنسبة لبلدين كانا خصمين لدودين على مر التاريخ، فهم كانوا مثل ديكين في قفص واحد-فرنسا وانجلترا-، وان جميع الطبقات الانجليزية تعرضت لالآم الصراع مع فرنسا، بخلاف الاسبان الذي كان الشعب الانجليزي يكّن لهم الاحترام الى حد بعيد.

لم يكن هنري الثالث عاجزاً وخرفاً كما صوره العديد من المؤرخين، بل كان ذا قدرات عالية، ويمتلك شجاعة بالفطرة، ولديه فهم شامل لما يدور حوله، وقد كانت أهدافه وخططه مبتكرة الى حد بعيد، الا انه كان منغمساً في الملذات. ان العزائم المختصرة للعمل الدؤوب والنشيط نجحت في فترات الكسل التافه والاستسلام الجبان، وكان بامكان كلٍ منه ومن نافار ان يكونا سعداء من خلال التخلي عن المحاربين المتعصبين أو المثيرين لاشعال الانشقاق والتمرد.

كان وزراء إليزابيث يدعمونها في جميع سنوات عهدها من اجل تقديم الدعم الكافي للهيجونت، لكن كان لدى اليزابيث وجهة نظر أوسع من هذا الموقف وبقية المواقف الاخرى، ففضلت التعامل مع الحكومة الشرعية الفرنسية، والاعتراف بالأغلبية الساحقة فيها، ولم يكن هنري الثالث -كما ادركت إليزابيث- ينوي أو يرغب في إبادة الهيجونت، الاّ إذا ما حرصت تلك العصبة بشكل علني في ادعائها التمرد من خلال دعم المناصرين الانجليز لهم، عندها سيصبح هنري أداة مجردة بيد اسوء أعداء إليزابيث، جويس والاتحاد المقدس.

كانت فرنسا ستتوقف عند أي حد يجعلها في ثقل مـوازي لإسـبانيا، وكانت الملكة الانجليزية اليزابيث ماهرة جداً للعب اللعبـة الأكثـر صـعوبة والأكثر حساسية، وذلك بان هنري نافار كان لديـه القـدرة للتغلـب علـى مصاعبه؛ وكان جويس يسعى في التقصي والمراقبة، وبما ان السلطة الملكية كانت نوعاً ما ضعيفة، فقد سيطر الأخير على السياسة الخارجية لفرنسا منـذ عام ١٥٧٢ مما أعطى لانجلترا حليف قوي ومفيد في الوقت نفسه، وطالمـا بقيت الحالة متوازنة فبالإمكان ان تبقى انجلترا في ألامان الذي تريد.

ما زال هناك متسع من الوقت بالنسبة لانجلترا، وعندما تكـدر هـذه الموازنة اللطيفة بالأحداث المضطربة، عندها لا إليزابيث ولا أي شخص آخر يمكن ان يفعل شيئاً، فالينكون -آخر الفالويس- كان يصارع الموت، والوريث القادم صوب العرش الفرنسي قد يكون هنري بوربون، وكثيراً ما تمنى هنري الثالث الاعتراف بحقه، لكن ذلك كان مستحيلاً من قبل جويس أو فيليـب، أو حتى من الأمة الفرنسية نفسها، لكنه تمسك بهذا الأمل. رغبت إليزابيث علـى الدوام في الابتعاد عن الحروب الدينية بعناية فائقة، لذا فقد شـكّل التحـالف الفرنسي، حجر الزاوية في سياستها، الذي بدا انه على وشك الانهيار، برفقـة سلطة الملك الفرنسي، التي كانت إليزابيث تعول عليها كثيراً، كونه سـيُخير بين أمرين فإما ان يكون أداة مجردة بيد الحزب البابوي، أو الانضمام بشـكل علني إلى زعيم الهيجونت -الملك الفرنسي القادم-، وإذا كان جويس هو من سيكون الملك الفعلي، فان تحالف إليزابيث سوف لن يكون مع حكومة فرنسية بل مع زمرة فرنسية، وهكذا فانها ستكون مضطرة حتى تلك اللحظة لـرفض هذا الأمر من حماة البروتستانت هولندا وفرنسا. ما زالت اليزابيث تلعب حتى

تلك اللحظة الدور الرئيس لأجل صنع الامجاد للأجيال القادمة وهذا هو الجزء الأكثر قيمة في عهدها، وان مجدها يستحق الذكر، ولم يفلح الاستخفاف بسياسة اليزابيث في ابعادها او انتشالها من تلك الامجاد، وبالرغم من سمعتها الجليلة بوصفها سياسية محنكة تمتلك قاعدة رزينة من الحزم والمهارات، الا انها لم تكن تلجأ إلى حسم الأمور بشكل كبير.

ورغم اكتشاف مؤامرة ثروجمورتن في تشرين الثاني ١٥٨٣ وما تبعه من طرد السفير الإسباني مندوزا، لم يتل ذلك حرباً مفتوحة بين انجلترا وإسبانيا، مع ذلك سارت الأحداث فيما بعد صوب ذلك المصير المحتم (حرب الارمادا)، لذا نجد إليزابيث تقدم اقتراحاً إلى الولايات الهولندية لأجل تشكيل تحالف بحري ضد إسبانيا، ولأجل تقرير الإجراءات الأخرى للدفاع المتبادل بين الجانبين. وقد قابل اورنج هذا العرض بغبطة كبيرة، وضغط على إليزابيث لقبول السيادة على هولندا وزيلاند وأُترخت Utrecht، ولم يكن هناك حاكم سابق لانجلترا تهيأت له فرصة عظيمة كتلك التي تهيأت لاليزابيث لإحكام السيطرة على هذه المناطق الإقليمية، إذ لم يكن ذلك يشكل سحراً بالنسبة للملكة الانجليزية. ان كل شخص عاقل سيهتف لاليزابيث على رزانة ونبل غايتها، وهكذا فقد رفضت الالتماس المُقدم من قبل اورنج.

وفي ٣٠ حزيران وحتى ١٠ تموز عام ١٥٨٤، وبينما كانت المحادثات جارية، قتل وليام اورنج. وقبل أشهر مضت توفي الينكون وهذا ما جعل كرسي السيادة في هولندا الثائرة شاغراً، لذا فقد نصحت إليزابيث بان تكون هولندا محمية مشتركة ما بين فرنسا وانجلترا، لكن الهولنديين لم يثقوا كثيراً بالمحميات التي تحكم بصورة مشتركة، إذ كانوا يرغبون في ان يكون عليهم

ملكاً واحداً، وأثناء شتاء عام ١٥٨٤-١٥٨٥ تم أُعيد تنظيم الإتحاد المقدس – خاصة بعد اعتراف الملك هنري الثالث بالملك نافار وريثا له–، ووعد فيليب بتقديم الدعم الكافي له، واصبح مندوزا سفيراً في باريس التي كانت بمثابة حياته وروحه.

وفي اواخر آذار ١٥٨٥ أعلن بيان الإتحاد المقدس، واظهر هنري نافار بوصفه بروتستانتياً عجزه من الوصول إلى التاج، وقد دعا هنري الثالث الى استئصال الهرطقة، وفرض مطالب اعضاء الإتحاد الذين أقدموا على تسليح جميع أنحاء فرنسا. كان بامكان الملك هنري الثالث ان يكون رجلاً روحانياً، وهذا سيجعله على رأس الكاثوليك المخلصين، لكن في ميثاق نيمورس Nemours – شمال فرنسا– المعقود من ٢٨ حزيران وحتى ٧ تموز عام ١٥٨٥، نزل هنري الثالث عند رغبات الإتحاد، وهكذا فان الحرب القادمة ستكون حرباً دينية، والتي دامت حتى ارتقاء هنري نافار عرش فرنسا.

هكذا فقدت إليزابيث التحالف الفرنسي، الذي كان يشكل المرساة الآمنة لسياستها منذ عام ١٥٧٢، وأصبحت الآن مستعدة للنضال الكبير الذي لا يمكن تفاديه في تلك اللحظة، فعلى إليزابيث ان تعمل بشكل أفضل لاجل اقامة تحالفاً هولندياً، وانها تسر لنفسها بانها ستعمل بجد من أجل الكفاح والنضال، وقررت أيضاً بان تدفع الهولنديين صوب الاجتهاد لأجل أنفسهم، وخاصة بعد ان قطعوا أمل المساعدة من الجانب الفرنسي، وتمنوا الانضمام إلى التاج الانجليزي، كون التضامن بين البلدين سيمنحهم إدعاءً مطلقاً على الموارد الانجليزية، لكن أولاً وأخيراً، فقد اخبرتهم إليزابيث بان لا شيء سيقنعها

بالموافقة على هذا الاقتراح، ووعدتهم بتقديم مساعدة أكيدة في المال والرجال، وبعد ان تضع الحرب أوزارها، عليهم ان يعيدوا كل ربع بنس إلى الخزينة الانجليزية، وفي هذه الأثناء توجب عليها ان تأخذ فلوشنج Flushing وبريل Brill كرهينة لأجل ضمان دفع المبالغ المقترضة، ويجب عليهم ان يلزموا أنفسهم بالجهود الحثيثة والملائمة لأجل الدفاع عن قضيتهم، وقد حذرها مندوبها جيلبين Gilpin في زيلاند من انها إذا ما اندفعت أكثر من اللازم في تولي قيادة الهولنديين فان ثقل الحرب سيقع على عاتقها. ومن المستحسن النضال في الولايات المنفصلة المحاصرة، لكن كانت هناك منذ البداية أنانية ولا مبالاة فيما يتعلق بإجراءات الدفاع المشترك، فكان عدد المقاتلين في الولايات لا يتجاوز ٦٠٠٠ مقاتل في الميدان، نصفهم من المتطوعين الانجليز، وفي الوقت نفسه طمأنوا إليزابيث، أن بإمكانهم تجهيز ١٥٠٠٠ مقاتل إذا ما توجهت إليزابيث لمساعدتهم، لكنها كانت مرتابة كثيراً من وعودهم الرنانة حتى تلك اللحظة.

وبينما المحادثات قائمة، كانت قد فُقدت انتويرب، وإذا كانت هناك لائمة لتأخير الإعدادات الدفاعية الضرورية، فانها ستقع بشكل متساو على كاهل المتساومين والمتفاوضين، والحقيقة لم تكن القوة الانجليزية تابعة لأي طرف من الأطراف، فالجميع كان يفكر في أي شيء باستثناء ذلك. رفضت الملكة إليزابيث بشكل قاطع العرض الملكي للتسيد على المحافظات المتحدة، لكنهم كانوا يصرون باستمرار لإجبارها على قبول عرضهم، من ناحية أخرى، لم تقطع أملهم من ان تدخلها الحاسم والمؤثر سيقود الملك فيليب لتقديم التنازلات لرعاياه الثوار والتي حضتهم إليزابيث للتمرد عليه، وفي نظرها ان سيادة

الملك فيليب عليهم كانت أمراً من الصعب تجاهله، وبذلك يبررون إصرارهم على حقوقهم الدستورية القديمة، لكن إذا كان الأمر مضموناً ومكفولاً، فان استمرار الثورة والتمرد سيعد أمراً إجرامياً، علاوة على ذلك، فقد احتجزت إليزابيث النواب -فلوشنج وبريل- اللذين كانا مجرد رجال دولة، ومن الأفضل ان تترك السياسة الجلية إلى الأمراء لأجل تسوية الخلافات، وفي ذات مرة أخبرت الملكة اليزابيث وفداً هولندياً بان: "الأمراء لن يتهموا بخرق قوانين الإيمان والمعتقد، إذا ما أصغوا أحياناً إلى كلا الجانبين، لينجزوا عملهم على نحو أميري لائق، ومع فهم أميري سخي، فمثل هكذا أشخاص مميزين لا يمكن احتجازهم". ان وعدها المتعلق بعدم وجود فرصة سلام من وراء ظهور الهولنديين لم يكن مترجماً بشكل حرفي على ارض الواقع، لذا فانها لم تكن تسعى لسلام من دون حماية مصالحهم، بمعنى أدق، ليكون سلاماً من أجل مصالحهم الحقيقية.

انه لمن المتعذر متابعة محادثات السلام التي استمرت بين إليزابيث والقائد بارما بشكل موسع ومفصل، ولم تكن الشروط التي أعدتها الملكة لأجل السلام متنوعة بصورة ملحوظة، إذ كانت إليزابيث تطالب على الدوام بحقوق البروتستانت الهولنديين (الذين كانوا أقلية حتى في المحافظات الثائرة)، وتماماً وبالدرجة ذاتها كان الأمر بالنسبة إلى الكاثوليك من أتباعها، فالدستور القديم -قبل ألفا- تم إحياءه، والذي سيتضمن ضرورة مغادرة القوات الأجنبية، لم تكن هذه الشروط لترضي طموح الولايات الهولندية، وإذا رغب الملك فيليب في منحهم إياها، فان إليزابيث والولايات لا يجب ان يلتقيان ابداً، فما دام فيليب لا يقدم أية تنازلات فان التحالف الهولندي- الانجليزي سيستمر، وقد

حذرت إليزابيث الولايات الهولندية بان لا تقدم ولاء الطاعة والاستسلام لأي أحد، ما لم يعيدوا دفع نفقاتها لأجل الذين احتجزوا لديها أولا، وان النضال في هولندا سيدفع صوب الانتهاء حسب الشروط التي وافقت عليها، ففي حقيقة الأمر لم يكن هناك أية نية للاستسلام لفيليب وسعوا بجد لأجل البقاء تحت حكم إليزابيث حتى وفاتها.

كان هناك لوم شديد على إليزابيث لاختيارها ليستر بوصفه قائداً للجيش الانجليزي في هولندا علماً ان ليستر كان قد أُختير من خلال استفتاء عام بوصفه الشخص الملائم لهذه المهمة، وان اختيار الملكة صودق عليه بكل احترام من قبل جميع وزرائها، وخصوصاً والسينغهام، الذي كان على اتصالات سرية مع ليستر، وقدم له الدعم الكافي في الأمور كافة، وكالعادة فان الجيش الانجليزي يجب ان يستلم أوامره من جانب نبيل عظيم، وليس من قبل جندي محترف –ليستر–، وان هناك بضعة نبلاء من بين أقرانهم ناضلوا بشكل متميز في اسكتلندا وايرلندا، لكن لا أحد منهم بإمكانه الادعاء من انه جنرال محترف، ولو ان إليزابيث أقدمت إلى تعيين قائداً أقل خبرة من ليستر في هذه المهمة لكان قد فقدت نصف أهمية الخطوة المهمة التي وضعتها في أوربا، علاوة على ذلك، فان من الضروري جداً بان النبيل المختار لمثل هكذا مهمة يجب ان يكون قادراً وراغباً في إنفاق المال من موارده الخاصة، من خلال العرف التقليدي، المستمد من العهود الإقطاعية، فالنبلاء ممن وظفوا على الخدمات المؤقتة، لم يقبضوا أي راتب، لكنهم كانوا يعتمدون على نفقاتهم الخاصة، ودفعهم للأموال كان مناسباً الى حد كبير، وليس هناك نبيل انجليزي ظهر بروح عالية في هذه المجال مثل ليستر، الذي كان مُعيلاً بكل بنس يملكه

من خلال قروض عقاراته، ولم يقتصر الأمر فقط على النفقات الخاصة، ولكن في تقديم مبالغ كبيرة لأجل أغراض عسكرية، ولم تفكر سيدته بـان تكافئـه، ومهما كانت انجازاته صغيرة وقليلة بوصفه جنرالاً، فذلك كونه لم يكن مجهزاً بالمواد الضرورية، والأخطاء واردة جداً في عمله لأنه لم يكن من الطـراز العسكري.

كان ليستر يبلغ من العمر خلال تلك الاحداث أربعة وخمسين عاماً، إذ كان ذا وجه أحمر ولحية بيضاء وأصلع، لكنه مازال مهتماً بشكله وبعربتـه وملابسه، وكان عزيزاً على إليزابيث بوصفه صديق شبابها، وهـو الوحيـد الذي اقتنعت بانه أحبها لأجل نفسها فقط لا غير قبل ثلاثين عامـاً، ومـازال خادمها الوفي والجدير بالثقة، وفضلت إليزابيث وائتمنت لبيرغهلي، لاسـيما عندما أصبح أكثر سلاسة وأسهل انقياداً في إطار سياستها، اما والسـينغهام فكان فطناً متميزاً وذا شخصية أكثر استقلالية، إذ لم يكن بوسع إليزابيـث إلا ان تقدم له الاحترام، رغم ذلك كان شخصاً نافذ الصبر، ضيق الصدر تحـت ارتيابه الثاقب، واستهجانه الثابت. كان ليسـتر صـديقاً حميمـاً لإليزابيـث، والرفيق المتردد عليها حتى في ساعات راحتها، ولا شيء مفضل في شـبابها يمكن ان يبعده عن احترامها وتقديرها له، وأدرك من خلال الألفة الطويلـة، متى الأشياء تقال من دون إساءة في حضرتها، والتي لم تكن مقبولة وملائمة داخل لجنة المجلس، وكان الوزراء مسرورين لاستخدامه في هذا الأمر، إذاً لا يمكن ان يكون هناك تساؤلٌ حول تعيينه بوصفه قائداً للجيش الانجليزي فـي هولندا، وهذا يدل على علامة حاسمة قادمة من تخطيط إليزابيث في مواجهة

حربٍ مفتوحة مع فيليب بدلاً من السماح له بتأسيس حكومة مستبدة في تلك البلاد.

كان الملك فيليب الثاني قد اعلن منذ عام ١٥٨١ ان اورنج خائن وخارج عن القانون، ووضع مكافأة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، وكان رد اورنج ان فند ذلك وراح يجمع ممثلي الولايات الشمالية في لاهاي، وهناك قرروا الانفصال عن التاج الاسباني، واعلنوا انه ليس للملك اية سلطة عليهم، وتعد وثيقة لاهاي ١٥٨١ بمثابة الاستقلال الهولندي، رغم ذلك لم تنتهِ الحرب، إذ استمرت بصورة متقطعة حتى عام ١٦٠٩، لكن الاعتراف بهولندا بوصفها دولة مستقلة تأجل حتى عام ١٦٤٨.

كانت المحافظات المتحدة الهولندية من دون حاكم، منذ وفاة الينكون وليم اورنج، وكانت الحكومة مؤلفة بشكل وقتي من قبل الولايات، أو نواب عن كل محافظة، وقد قدم ليستر الى هناك من دون لقب باستثناء رتبته العسكرية بوصفه جنرالاً في قوات الملكة، لكن ما تحبذه الولايات الهولندية حاكماً ذا سيادة وليس زعيماً عسكرياً، لذا فقد طلبوا من ليستر ان يقبل منصب الحاكم العام، الذي كان من الممكن ان يستغل من جانب ممثلي فيليب، من هذا يمكن ان نفهم، بان إليزابيث وقفت بنفسها في مكان فيليب، بكلمة أخرى، بانها تعهدت بالسيادة التي طالما رفضتها بشكل قاطع.

قبِل ليستر العرض المقدم اليه فور وصوله تقريباً في الفترة من ١٤- ٢٤ كانون الثاني عام ١٥٨٦، ويمكن ان يكون هناك ارتياب في الاتفاق المسبق بين الولايات الهولندية ووزراء إليزابيث، ممن كان لديهم دعماً واضحاً للاقتراحات الهولندية، إذ يمكن ادراك ما كان يفكر به ليستر قبل

مغادرته انجلترا. وان دافيسون Davison الذي كان متواجداً في هولندا تعهد بحمل الأخبار إلى إليزابيث، وأيد كل من بيرغهلي ووالسينغهام هذه الخطـــوة وعدّوها ضرورية، وناشدوا إليزابيث بعدم إلغائها، لكن الأخيرة ارتابت بعض الشيء كأن تكون خطوة صوب العزل، ونبهت ليستر بصرامة للعدول عـــن مثل هكذا لقب، فالقضية ليست في انها كانـــت تطمـــع فـــي ســلطاته، او ان سلطاتها الخاصة يمكن ان تكون متأثرة بذلك، بل على النقيض من ذلك، فقـــد رغبت إليزابيث بانه يجب ان يكون سلطانه كبيراً ومطلقاً، إذ ان اعتراضــــها كان على اللقب، مع جميع ما يتضمنه من نتائج وعواقب، وما أغضبها مـــن ذلك كله محاولة اتباعها التصرف من وراء ظهرها، وجعلها عندئذ أمام أمـــر الواقع، كطريقة للحصول عل موافقتها، وقد أنزلت جام غضبها على وزرائها وعلى الولايات الهولندية وليستر، وأرسلت إلى الأخير رسالة خاصة بيد السيد توماس هينيج T.Heneage، جاء فيها: إلى اللورد ليستر من الملكة اليزابيث: ((نحن نتصور هذه الحالة بازدراء، وستفهم أكثر من خلال حامـــل الرســـالة، الذي أرسلناه إليك بطريقة معبرة، وزد على ذلك فاننا نضـــعك فـــي دائـــرة الاتهام، إذ لم نكن نتصور أبداً في ان تفشل في الاختبار. ان رجلاً يقفز على أكتافنا لا يمكن ان نعدّه الا صغيراً ووضيعاً...)).

وقد تمعن ليستر كثيراً في الرسالة التوبيخية، ووبخت من خلالها ايضاً الولايات الهولندية بشدة لتشجيع (صنيعتها) -تقصد ليستر- علـــى عصـــيان أوامرها، وطالبت بان يستقيل من المنصب الذي قبله، تعويضـــاً منـــه ومـــن الولايات في إصلاح ما أفسدوه، لكن النتيجة كانت مؤســـفة بالنســـبة للبعثـــة المرسلة، فقد منحت الولايات سلطة (مطلقة) لليستر، وفكرت بانها ستدفع ثمناً

ضئيلاً إذا ما –بواسطة دهائهم الحاذق– نجحوا في إجبار إليزابيث، لكنهم لم يهتموا بالائتمان في منح سلطات مطلقة لجنرال مجرد من لقبه، وبعد مناقشات مطولة، اقتنعت إليزابيث بان تمنحه لقباً، في حزيران عام ١٥٨٦، لكن في هذه الأثناء ندموا على تهورهم في جعل السلطة تخرج من بين أيديهم، لذا كانت محاولاتهم القادمة مركزة لتوضيح وتحديد مصطلح (المطلق)، إذ كان للاستياء الكبير للملكة قد حطم القدر العظيم لليستر في نظر الولايات الهولندية، والذي تعرض بعد مدة قصيرة لبغضهم وكراهيتهم له، إذ انه لا يستطيع ان يواجه أية معارضة، كشخص متهور ومستبد، وان كل رجل لا يتفق مع خططه يكون عدواً حقوداً، وخائناً، يجب ان يقدم لحبل المشنقة، وكان يتمتع بثقة الحزب الكالفني الديمقراطي والمتزمت، خاصة في اترخت، وحاول ان يجعلهم يتحركون في غير صالح الولايات الهولندية، فعمل على ترويج بروز فئات معينة لأجل صرف انتباه المحافظات عنه لمدة طويلة من الزمن، وقد أخذ استياء الملكة شكلاً بعدم إرسال المال إليه، إذ ان قواته كانت في ضيق عظيم وغير قادرة على الحراك.

أرسلت إليزابيث جيشها إلى خارج الحدود كرسالة تحذير إلى الملك فيليب، مع إجراء عمليات فعلية، ولم يكن الاستيلاء على أراضي فتحها القائد بارما من ضمن خطتها، إذ كانت تدرك بان غالبية سكانها من الكاثوليك والملكيين، وأدركت أيضاً بان جيش القائد بارما لديه نقص حاد في المال والغذاء. لم تكن الولايات في مزاج حسن لأجل الإصغاء إلى اية تسوية، باستثناء التي ترغب فيها إليزابيث، لذا فانها لم ترغب في ان تكون قواتها

حبيسة الرقابة، بل يجب ان يظهر تدخلها العلني الذي سيقتلع المبـادرة من فيليب وسيكون ذلك معقولاً الى حد كبير.

كان ليستر متلهفاً للحصول على مهمة عسكرية، إذ كان مدفوعاً بحماس من قبل والسينغهام، وكان سلوك بيرغهلي أقل أمانة واستقامة، فهو وجد منذ مدة طويلة بانه من المستحسن تطوير العلاقات الودية مع المنحازين، كونه من المحتمل ان يلتقي مع خطتهم لجعله حاكماً عاماً للمحافظات المتحدة، وحتى تلك اللحظة كان يصرح لأخذ دوره في ذلك، ونوعاً ما كان ينظر بعين العطف تجاه الهولنديين، لكنه أهتم أكثر لأجل شل تحركات منافسيه، لذا فانه في مفاوضاته الغامضة للسلام كانت مخفية بعناية شديدة عن كل من ليستر ووالسينغهام، وفي حقيقة الأمر ان إبقاء والسينغهام في العتمة والتضليل لمدة طويلة أمراً مستحيلاً، سواء في هذه القضية أو في غيرها، لذا فقد وجد أخيراً انه من الضروري السماح له بالحضور في مقابلة مع الأوصياء (الوكلاء) التي قام بها بيرغهلي وبارما، وقد أحضرت دبلوماسيتهم إلى خاتمة غير ملائمة ومن دون اي تقدم جدي.

ان المشكلة التي واجهتها إليزابيث في إرغام فيليب للإصغاء إلى تسوية، هي عدم مقدرتها في الوقت نفسه منع الهولنديين من إعطاء أذن صاغية لفيليب، لذا فقد فضلت بان تسلط ضغطاً على نواحٍ أخرى، فقُبيل نهاية عام ١٥٨٥ ظهر دريك على السواحل الإسبانية نفسها، وقام بعمليات سلب ضد فيجو Vigo، واجتاز الأطلنطي، ونهب وأحرق مناطق وكنائس القديس دومينغو Domingo والقديس كارثاجينا Carthagena –جنوب شرق اسبانيا–. وفي عام ١٥٨٧ عاد مرة أخرى ليشق طريقه بالقوة صوب ميناء

قادس Cadiz[1]، وأحرق كل سفينة ومخزن للارمادا (الأسطول)، ولشـــهرين سعى لحرق وتحطيم كل مركب يلتقيه في الساحل الاسباني والبرتغالي علـــى حد سواء.

كان فيليب متأثراً بالإصابات التي أنزلتها إليزابيث فوق رأسه، وانـــه لمن الصائب إذا ما اعتقدت إليزابيث بامكانية فيليب في الانتقـــام، فمشـــروع غزو انجلترا كان مطروحاً دائماً على جدول أعماله، وذلك سيكون قيد التنفيذ متى ما أخمد التمرد الهولندي، وحُيِّد الجانب الفرنسي. كون تدخل إليزابيـــث المفتوح في الشؤون الهولندية، دفع فيليب إلى تغيير خطته، فقرر ان يتعامـــل مع انجلترا أولاً، ففي هذه الأثناء كانت عمليات القائد بارما في هولنـــدا قـــد عانت كثيراً بقدر معاناة القائد ليستر، فهناك اثنان أو ثلاثة مناوشات مســـلحة بين الجانبين لا تستحق حتى ان يطلق عليها أسم معركة، ونصف دزينة مـــن المدن الصغيرة قد نهبت، وهذا هو السجل العسكري منذ تدخل إليزابيث فـــي هولندا وصولاً إلى حرب الارمادا عام ١٥٨٨، وقد كان لدى القائـــد بارمـــا أفضل من هذا العمل بعض الشيء، مثلما هو متعود على ذلك، لكن الحـــرب في هولندا كانت راكدة عملياً.

وفي نهاية السنة الأولى من حكومة ليستر، ألزمته الأحـــداث المهمـــة لأجل القيام بزيارة إلى انجلترا في تشرين الثاني عام ١٥٨٦. وكانـــت ملكـــة الاسكتلنديين ماري ستيوارت قد ثبتت عليها تهمة التآمر لاغتيـــال إليزابيـــث، وكان قد أُستدعي البرلمان لتقرير مصيرها.

---

(١) قادس: احدى المقاطعات الثمانية في الجزء الجنوبي من منطقة اندلسيا فـــي اســـبانيا، وهي غير قادش المنطقة الاثرية في مدينة حمص السورية.

الفصل التاسع

إعدام الملكة ماري ستيورات ١٥٨٤-١٥٨٧

تنبأ أسلاف ماري ستيوارت بنهاية عنيفة ومأساوية ستصيبها في الأيام القادمة. وكانت بإجماع الآراء الوريثة الشرعية للتاج الانجليزي إذا ما توفيت الملكة إليزابيث من دون ان تترك وريثاً شرعياً، وفي رأي هؤلاء ممن عدّوا إليزابيث ابنة غير شرعية ومن ثم غير مؤهلة للملك أمثال الكاثوليك وهنري الثامن في وقت ما، كان لابد لماري ستيوارت ان تعتلي عرش انجلترا منذ عام ١٥٥٨ وليست إليزابيث، وكانت ماري قد أباحت عندما أصبحت ملكة فرنسا عام ١٥٥٩ ان يلقبوها ملكة انجلترا، فثمة إدعاء ساد منذ أمد بعيد بان يكون ملوك فرنسا ملوكاً على انجلترا أيضاً، ويكون ملوك انجلترا بدورهم ملوكاً على فرنسا، وهذا ما دفع الملكة إليزابيث إلى الخشية على تاجها ما بقيت ماري على قيد الحياة، وما كان ينقذ الموقف إلا النيات الطيبة، أو النظرات الصائبة صوب الأمور من جانب الملكة اليزابيث، ولكن قليلاً من الملوك من يطلق لنفسه العنان صوب مواقف التنازل فيما بينهم.

عرضت الممالك على ماري بعد عام من ولادتها، فبعد موت أبيها بأسبوع أصبحت ملكة على اسكتلندا، واقترح الملك هنري الثامن ان تخطب الملكة الطفلة لأبنه ادوارد كخطوة أولى صوب وحدة متكاملة تجمع انجلترا واسكتلندا تحت سقف وعرش واحد، وان ترسل إلى انجلترا لتعيش فيها، وتكون على المذهب البروتستانتي، لكن أي شيء من ذلك لم يحدث.

وبعد ان وصلت ماري ستيوارت إلى ما وصلت إليه من ملك وجـاه، تعرضت إلى تهم خطيرة على رأسها التآمر ضد الملكة إليزابيـث، وتعالـت الصيحات للمطالبة بإعدامها، لكن الملكة إليزابيث رفضت ذلك، وزُجت ماري في غيابات السجون والأسر قرابة تسعة عشر عاماً، وقد سمح لها بتسلم راتبها الفرنسي البالغ ١٢٠٠ جنيه سنوياً، ومنحتها الحكومة الانجليزية مبلغاً لا بأس به لأجل الطعام والعلاج والخدم ووسائل الترفيه، وسمح لها بحضور القـداس وغيره من الصلوات الكاثوليكية، وقد حاولت ماري ان تملأ فراغها بالتطريز والقراءة وفلاحة البستان، واللعب مع كلابها، وعندما شعرت بان باب الحرية سوف لن يفتح لها مرة أخرى، حرصت على العناية بنفسها، لاسيما بعـد ان أصبحت بدينة مصابة بالروماتيزم إلى حد لا تستطيع معه المشي، وفي عـام ١٥٧٧ كانت تغطي شعرها الأبيض بشعر مستعار وهي ابنة الخمسة والثلاثين عاماً.

وفي حزيران عام ١٥٨٣ تنازلت ماري عن أي حق لها فـي التـاج الانجليزي، شريطة إطلاق سراحها، وتتعهد بان لا تدبر أية مـؤامرات، وان تعيش في أي مكان في انجلترا تختاره لها الملكة إليزابيث، من دون ان تبتعد عن مقر إقامتها بأكثر من عشرة أميال، وان تخضع لرقابة مـن تجـاورهم، رغم ذلك فقد أشير على الملكة إليزابيث بان لا تثق فيها قط.

وقد حاولت ماري الهرب، وبعد عدة محـاولات يائسـة سـعت إلـى الاتصال بسفيري فرنسا وإسبانيا وحكومتيهما، وبأنصـارها فـي اسـكتلندا، وبممثلي البابا، وكانت الرسائل تهرب منها وإليها داخل ثياب الغسيل، وفـي الكتب والعصي، وفي الشعر المستعار وبطانة الأحذية، لكن جواسيس سيسـل

ووالسينغهام تمكنوا من اكتشاف أمرها، لقد كان للهالة الرومانسية التي أحاطت بماري المحتجزة، الأثر البالغ في إيقاد حماسة الشبان الكاثوليك، ففي عام ١٥٨٣ دبر فرانسيس ثروجمورتن الكاثوليكي مؤامرة لإطلاق سراح ماري، لكن سرعان ما كشف أمره، وعذب حتى الموت.

وفي عام ١٥٨٤ أقنع وليام باري W.Parry (تُوفي عام ١٥٨٥) وهو أحد الجواسيس ممن يعملون في خدمة سيسل، الممثل الرسولي في باريس بان يقدم إلى البابا جريجوري الثالث عشر طلباً بالغفران التام على أساس انه سوف يقدم على محاولة خطيرة لإطلاق سراح ماري، وإعادة انجلترا إلى حظيرة الكاثوليكية، ورد ممثل البابا في ٣٠ كانون الثاني عام ١٥٨٤ بان قداسته أطلع على التماس باري وازداد غبطة بما يقوم به، وانه سيرسل إليه الغفران المطلوب ويكافئه على جهوده، وحمل باري هذا الرد إلى سيسل، وأتهم باري من قبل جاسوس انجليزي آخر يدعى ادموند نفيل، بتحريضه على قتل الملكة إليزابيث، وقبض على باري، ومُزقت أوصاله وهو ما يزال حياً.

ولما اشتد غضب مجلس الملكة إليزابيث جراء المؤامرات المتتالية وقعوا على تعهد جاء فيه: ((ان من يقوم باية مؤامرة، أو من تثبت عليه مثل هكذا تهمة فان مصيره الموت لا محالة))، ووقع على هذا التعهد جميع أعضاء المجلس، ومعظم أعضاء البرلمان، ووقّعه وجهاء انجلترا في طولها وعرضها، وبعد عام أسبغ البرلمان على هذا التعهد صفة القانون النافذ، لكن ذلك لم ينهِ سلسلة المؤامرات، ففي عام ١٥٨٦ أغرى قسيس كاثوليكي روماني يدعى بلارد أحد الشبان الأثرياء (أنطوني بابجنتون) بتدبير مؤامرة لقتل اليزابيث وغزو إنجلترا بجيوش من فرنسا وأسبانيا والأراضي

المنخفضة، وتنصيب ماري ملكة على العرش الإنجليزي، وكتب بابجنتون إلى ماري يبلغها أن ستة من النبلاء الكاثوليك اتفقوا على التخلص من الملكة اليزابيث مغتصبة العرش، وطالب ماري إقراراً للخطة، وفي خطاب مؤرخ في ١٧ تموز عام ١٥٨٦ قبلت ماري بما قدمه بابجنتون من مقترحات تآمرية، لكنها لم توافق موافقة صريحة على قتل اليزابيث إلا أنها وعدت بالمكافأة عند نجاح المشروع.

كانت هذه المؤامرة الأخيرة في سلسلة المؤامرات المدبرة من أجل تنحية الملكة اليزابيث، وتنصيب ماري ستيوارت محلها، إذ كشف أمرها في ١٤ آب ١٥٨٦ وقبض على بابجنتون وبلارد، وأودع في السجن ما يقارب الثلاثمائة من أبرز الشخصيات الكاثوليكية وأعدم ما يقارب الثلاثة عشر من المتآمرين، وبمناسبة ذلك أطلقت الألعاب النارية في سماء لندن ودقت النواقيس، وأنشد الأطفال الأناشيد شكراً لله على نجاة الملكة اليزابيث، ودوت الصيحات في إنجلترا البروتستانتية مطالبة بإعدام ماري.

وقد فتشت حجرات ماري، وجمعت أوراقها وفي تشرين الأول ١٥٨٦ نقلت إلى قلعة فوثيرينجاي Fotheringay في انجلترا وهناك جرت محاكمتها أمام لجنة مؤلفة من ثلاثمائة وأربعين من النبلاء، ولم يسمح لها بندب من يدافع عنها، ولكنها دافعت عن نفسها في عزم وإصرار وأقرت باشتراكها في مؤامرة بابجنتون، ولكنها أنكرت إقرارها في التآمر لقتل الملكة اليزابيث، واحتجت بأنها سجنت ظلماً لمدة تسعة عشر عاماً، وأنه لمن حقها تخليص نفسها بأية وسيلة تراها مناسبة.

قامت اللجنة بإدانتها بالإجماع، وطلب البرلمان من الملكة اليزابيث أن تصدر حكماً من أجل إعدام ماري، لكن ملك فرنسا هنري الثالث قدم التماساً للرأفة بماري، الا أن الملكة اليزابيث رأت أن هكذا التماساً لا يحرك ساكناً كونه جاء من حكومة ذبحت الآلاف من البروتستانت من دون محاكمة –تقصد مذبحة بارثيلمو–، ودافع معظم الاسكتلنديين عن ملكتهم، وقام ابنها بوساطة ينقصها الحماسة، وارتاب في أنها أنكرته وبرأت منه في وصيتها كونه بروتستانتياً، وأوعز ممثله في لندن إلى والسينغهام بأن ابنها (جيمس السادس) وإن كان حريصاً على أن لا تموت أمه، الا انه سوف يعد الموضوع منتهياً، إذ أنه قليلاً ما كان يهتم لما يحصل لأمه، وأنه قانع بأن البرلمان الإنجليزي سيثبت حقه في أن يخلف الملكة اليزابيث على العرش، وفي ان تزيد الأخيرة من مبلغ راتبه الذي ترسله إليه، وهذا ما أضعف شعبيته في اسكتلندا، ولم يبق بين ماري والموت إلا تردد اليزابيث.

انقضت قرابة الثلاثة أشهر واليزابيث قد ملّت حياة الخوف والحذر من أنصار امرأة تدعي حقاً في عرشها، ووضعت نصب عينيها خطر غزو انجلترا من الجانب الفرنسي والأسباني وحتى الاسكتلندي احتجاجاً على إعدام الملكة ماري، وقد حثها سيسل على توقيع التصديق على حكم الإعدام، ووعد بأنه يتحمل المسؤولية كاملة، وفكرت في أن تتفادى أمر إعدامها فأرسلت أمراً شفهياً إلى السير امياس بولت Amias Paulet (١٥٣٢-١٥٨٨)[١] بإعدام ماري، لكن بولت رفض الأمر من دون أمر كتابي من الملكة اليزابيث، وهذا

(١) امياس بولت: دبلوماسي انجليزي، وحاكم جيرسي Jersey، وسجّان الملكة ماري.

ما دفع الأخيرة إلى التوقيع على وثيقة إعدام ماري، وحملها سكرتيرها وليام دافيسون إلى المجلس الذي بدوره أرسلها إلى بولت قبل أن تغير الملكة اليزابيث رأيها في ذلك.

أما ماري فلم تصدق الخبر في بداية الأمر، ثم واجهته بشجاعة وكتبت إلى اليزابيث رسالة مؤثرة سألتها فيها أن تسمح لخدمها البؤساء الذين باتوا من دون معين أن ينقلوا جثمانها إلى أرض مقدسة لتدفن مع سائر ملكات فرنسا، وذُكر أنها في صباح اليوم الذي أعدمت فيه نظمت قصيدة قصيرة باللغة اللاتينية تشيع فيها الحماسة التي تتسم بها العصور الوسطى:

يا إلهي لقد وضعت كل أملي فيك

أنقذني الآن يا يسوع العظيم

إني لصيقة الأغلال وأعاني أشد الآلام وإني أتضرع إليك

وإني متلهفة باكية راكعة أسبح بحمدك وأتوسل إليك أن تخلصني

وقد طالبت ماري بأن يسمح لها بالاعتراف أمام كاهنها الكاثوليكي الخاص، لكن طلبها قوبل بالرفض، وأحضر سجانوها كاهناً إنجليكانياً فرفضته وارتدت الملابس الملكية لتقابل موتها، وصففت شعرها المستعار بعناية، وغطت وجهها بخمار أبيض وتدلى من عنقها صليب ذهبي، وكان في معصمها صليب من العاج، وتساءلت لماذا منعت وصيفاتها من حضور وقائع الإعدام، فقيل لها إنهن قد يحدثن اضطراباً، فوعدت بأنهن لن يفعلن شيئاً، فسمح لها أن تصحب اثنتين وأربعة رجال، وسمح لنحو ثلاثمائة من الإنجليز أن يشهدوا تنفيذ الإعدام في القاعة الكبرى في حصن فوثيرنجاي في ٨ شباط ١٥٨٧ وقد سألها اثنان من الجلادين المقنعين مغفرتها، ولما بدأت وصيفاتها

في الصراخ والعويل منعتهما قائلة: ((لقد تعهدت بالنيابة عنكما))، ثم ركعت وصلت ووضعت رأسها على المقصلة، وسقط شعرها المستعار عن رأسها المفصول وكُشف عن رأسها الأشيب، وكانت قد بلغت من العمر الرابعة والأربعين.

يذكر المؤرخ إدوارد سبنسر في كتابه ((الملكة اليزابيث)) بأن إعدام الملكة ماري شكل ضربة حكيمة ومناسبة في السياسة، إذ تم تشتيت شمل الكاثوليك في إنجلترا في الوقت الذي كانوا تواقين لظهور أسطول الارمادا الاسباني.

الفصل العاشر

الحرب مع الأسبان١٥٨٧ - ١٥٨٨

لا ترى الملكة اليزابيث أية فضيلة في الحرب، فهي لا ترمي بنفسها بسهولة صوب التضحيات، لتخوفها من تبعثر الأموال التي جنتها خلال الأعوام الطويلة او ان ترميها في حفرة لا قعر لها قاصدة في ذلك الإنفاق العسكري المكلف، وعندما رجع ليستر أوقفت الملكة جميع المساعدات المالية (الحوالات) إلى الهولنديين تأكيداً منها بعدم إرسال جنودها من أجل الحرب وخاصة وأنها رأت بأن القائد بارما لم يعد يشكل أي تهديد، ورغم الإشاعات التي أطلقت حول الاستعدادات الهائلة في إسبانيا، تمنت الملكة اليزابيث بأن تدخلاتها في هولندا سوف تجبر الملك فيليب الثاني على تقديم التنازلات، في وقت أن القائد بارما كان ينفذ خطط سيده بثبات من أجل الاحتلال وكان جيشه الصغير قد تضاعفت أعداده بالإمدادات الأساسية القادمة من إيطاليا.

كان الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا قد احتقن الحقد في صدره جراء إعدام ماري ستيوارت، فقد تصور أن حملة على إنجلترا يصاحبها تشجيع رسمي من الفاتيكان، سوف لن تسمح له بالانتقام من المهرطقين فحسب، بل من القراصنة ممن اشتطوا في تجاوزاتهم على إمبراطوريته الاستعمارية، وكان على رأس هؤلاء القراصنة القبطان فرانسيس دريك الذي لم يكتف بتدمير سواحل البيرو، وسان دومينغ، وقرطاجة، بل اندفع صوب مهاجمة لشبونة وقادس، إذ قضى على أسطول من السفن التجارية وأحرق مخازن البضائع على طول أرصفة هذين الميناءين واختطف العديد من السكان.

لم يكن فيليب الثاني يفتقر إلى الموارد المالية، فقد كان ملكاً على أسبانيا والبرتغال، ونابولي وصقلية ودوقية ميلانو، ومقاطعة فرانش كونتيه شرقي فرنسا، ونصف القارة الأمريكية، هذا واستولى على إقليم أفريقية وعاصمته تونس ووهران وجزر الرأس الأخضر وجزر الخالدات (الكناري).

تمكن الملك الاسباني من بذل جهودٍ استثنائية كلفته الكثير من المبالغ النقدية، واستنزفت شطراً كبيراً من ميزانية خزينته، وأثار حركة في العديد من الموانئ، واستطاع أن يبني أسطولاً عملاقاً مؤلفاً من ١٢٩ سفينة حربية مجهزة بـ(٢٦٤٠) مدفعاً ومزودة بذخائر هائلة، وكان على متن هذا الأسطول (١٠٠٠٠) بحار و١٨٠٠٠ محارب من قوات الإنزال الموضوعة تحت إمرة دون دييغو دوبوباديللا، وكان من بينهم أفواج من صقلية ونابولي ومن الهند، والأندلس والبرتغال وسرايا خاصة من قشتالة القديمة.

فكان اسطول البرتغال بقيادة الونسو بيريز دي كوزمان Alonso Perez de Guzman (١٥٥٠-١٦١٥) دوق سيدونيا Sidonia، ويضم ١٠ من السفن الخاصة بالشحن، وسفينتين حربيتين، ١٣٠٠ بحاراً و٣٣٠٠ جندياً و٣٠٠ مدفع، وكانت قشتالة بقيادة الأميرال دون دييغو فلورس ويتشكل أسطولها من ١٤ سفينة شحن وخافرتين، و ١٧٠٠ بحاراً، و ٢٤٠٠ جندي ٣٨٠ مدفعاً.

وكان على رأس القوات الاسبانية أسبانيا الأميرال دون بيدور دو فالدس، وتحوي ١٠ سفن شحن و٨٠٠ بحار ٢٤٠٠ جندياً، ٢٨٠ مدفعاً، وكان على رأس القوات الإيطالية الأميرال مارتان دو برتندونا وتضم ١٠ سفن حربية و٨٠٠ بحار و٢٠٠٠ جندي و٣١٠ مدفعاً، فضلاً عن قوات أخرى

كبيسكاي الذي كان يقود قواتها دون جوان روسكالد وتتألف مـن ١٠ سـفن شحن و٤ من السفن الخافرة و٧٠٠ بحـار و٢٠٠٠ جنـدي، و٣٥٠ مـدفع، وكانت غيبيزكوا بقيادة الأميرال دون فيغل، وتتألف قواتها من ١٠ سفن شحن وخافرتين ومركبين خفيفين، و٧٠٠ بحـار و٢٠٠٠ جنـدي و٣٥٠ مـدفع، وغيرها من السفن والذخائر التي كانت تحت قيادة العديد من القادة البـارزين ممن يوالون الملك فيليب الثاني.

كانت جميع هذه السفن مصفحة بدروع خشبية فوق خط العوم، يظهر للعيان أن أخطر الأوقات وأحرجها التي مرت على سفن أسـطول الأرمـادا تكمن في اجتياز مضيق كاليه الذي كان تحت أبصار الإنجليـز ومسـامعهم، والذين أحيطوا علماً سلفاً بأنباء هذه الاستعدادات العظيمة.

وكان على هذا الأسطول الذي أُنيطت به مهمة معاقبـة الإنجليـز أن يجتاز فعلاً المضيق المذكور كي يبلغ إقليم الفلاندرز ليضم إلى قواته ٢٥٠٠٠ جندي بقيادة ألكسندر فارنيز دوق بارما، والذي كان يحكم هذه البلاد بعد وفاة دون جوان النمساوي، وقد احتشدت هذه الحملة المكلفة باحتلال لنـدن، فـي منطقة غرافيلين ودنكرك ونيوبور، وهي على أهبة الاستعداد للتقـدم صـوب إنجلترا.

كان مخطط فارنيز يذهب إلى أنه: ((إذا قبلت الملكة اليزابيث الحرب على سطح البحر فإن النصر آتٍ لا محالة، أما إذا فضلت الحرب فوق البـر والبحر في آن واحد فإن الحرب ستكون أكثر خطورة على إنجلترا، إذ سيكون عليها تقسيم قواتها. أما إذا انتظرت قدوم قواتنا فوق البر فلـن يكـون أمـام الأسطول المنطلق من أسبانيا إلا تدمير السفن الإنجليزية، وسأجتاز المضـيق

بسفني المسطحة، وسأنزل في ميناء مارغات (إقليم كنت في جنوب إنجلتــرا) وكل ما أرجوه فيما بعد هو تأمين عدد كافٍ من السفن تنقل الإمدادات والمؤن من بلاد الفلاندرز ومن إسبانيا، من دون أن أهتم بالأعداء أكثر مما يجب)).

وقد اختار الملك فيليب الثاني لقيادة الأسطول الذي لم يسبق له مثيــل والذي عُرف بـــ((الأرمادا الذي لا يقهر)) القائد العام للأساطيل الأسبانية دون الفارز دي بازان de Bazan (١٥٢٦-١٥٨٨)، ماركيز سانتا كروز، والذي نالت مبادرته في معركة ليبانتو ضد العثمانيين تقديراً عظيماً، وكان ينظر إليه على أنه أفضل قادة البحر في عصره، وقد قبل سانتا كروز هــذا المنصــب بحماسة عالية، ورسم مخططات مشجعة للغاية، لكن لم تجر الأمور كما يريد الملك فيليب الثاني، إذ توفي سانتا كروز بغتة أثناء الاستعداد للمعركة فــي ٩ شباط ١٥٨٨.

وعلى أثر ذلك أُنيطت القيادة بدوق سيدونيا، الــذي كــان عمــره لا يتجاوز الثانية والثلاثين عاماً، وهو بحار سقيم يشكو من دوار البحر، وهــو أكثر خبرة في مجال الحفلات الصاخبة التي كانت تقام بين جدران البلاط، لقد أهمل سيدونيا منذ بداية الأمر الخطة التي وضعها سلفه سانتا كــروز والتــي كانت كافية لإنقاذه فيما بعد، وهي جعل أحد موانئ الفلانــدرز حــراً تحــت التصرف لتلافي أي انسحاب اضطراري، أو على أثر عاصفة مباغتة أو أي حادث طارئ، وقد نصحه دوق بارما باحتلال ميناء فليسنغ الهولنــدي لكــن سيدونيا لم يعره أي اهتمام.

وفي ١٩ آيار عام ١٥٨٨ استعرض فيليب الثاني ((الأرمادا التــي لا تقهر)) وهي رافعة مراسيها مغادرة لشبونة، وكان سيدونيا قائــداً للأســطول

البرتغالي ينصب رايته فوق سارية (سان مارتن) وهي سفينة حربية مجهزة بـ٤٨ مدفعاً ويعمل فوقها ١١٧ بحاراً و٣٠٠ جندي، وهكذا التحق قسم كبير من النبلاء الأسبان بالمراكب الحربية المصحوبة بعدد كبير من سفن النقل، فضلاً عن كتيبة مؤلفة من ١٧٠ كاهناً من الجزويت، والذي كان الغرض من إرسالهم إرشاد الهراطقة، وردهم إلى ممارسة المذهب الكاثوليكي بحرية تامة.

ويذكر روبير شوسوا في كتابه ((المعارك البحرية الكبرى في التاريخ)) أن الأسبان أخذوا معهم سفينة خاصة مشحونة بالحبال لشد وثاق الهراطقة العتاة، وسفينة أخرى مليئة بالسياط لجلد النساء الإنجليزيات العاصيات.

لم تكن إنجلترا غافلة عما يدور حولها، فبعد أن استخفت الملكة اليزابيث بالتهديد أخذت تعير هذه القضية ما تستحق من اهتمام جاد وراحت تشجع شعبها على المقاومة، فاستطاعت أن تقنعه بضرورة ذلك لأجل حريتهم وتاريخهم.

كانت سفن التاج الإنجليزي تحت قيادة الأدميرال اللورد هوارد ايفنغهام، أما الأسطول المساعد فكان تحت قيادة اللواء البحري دريك والمغامر والترلي وروبرت سيسل وغيرهم، وقد جهز هذا الأسطول وجرى تسليحه على نفقة الموانئ الكبرى، وكانت تقع مهمة مراقبة موانئ ساحل الفلاندرز وتحييدها على كاهل أسطول خفر السواحل بقيادة هنري سيمور.

وهكذا كان الإنجليز يتنافسون في بذل التضحيات لصنع الأسلحة لرد الغزاة وصدهم، وتكفلت لندن لوحدها بتحويل ٣٠ سفينة عادية إلى سفن حربية على نفقتها الخاصة.

ونصب دريك رايته على السفينة تريومن، وهي سفينة حربية مجهزة بـ٣٤ مدفعاً وعلى متنها ٩٠٠ رجل، وكان تحت أمرته ٢٠ سفينة تتراوح حمولتها بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ طنة [١]، وأفضلها تسليحاً كانت مجهزة بـ٣١ مدفعاً وأقلها تسليحاً كانت مجهزة بـ١١ مدفعاً، وكان يتبع هذه السفن ثلاث سفن نقل كبيرة وتسعة مراكب خفيفة وسريعة الحركة، وما يقارب ١٥٠ قارباً مسلحاً، وهكذا كان الإنجليز يستعيضون عن ضعفهم العددي، من حيث الحمولة الإجمالية، بسرعة المناورة والرمي، ولم يكن لديهم الكثير من البارود والأقوات ولكن حماستهم الوطنية عوضت النقص المادي.

وما أن أقلع الأرمادا من لشبونة حتى واجهته أول المصاعب عندما تعرض لعاصفة قوية شتتت شمل السفن فلم يجرؤ سيدونيا على مواصلة سيره باتجاه إنجلترا خشية فقدان بعض وحداته، وقرر التجمع في ميناء كورونيا الأسباني، إذ وجد فيه ملجأ آمناً لقسم من قطع الأسطول، في حين احتمت بعض السفن بميناءي فيغو وفيرول على ساحل غاليسيا، وتطلب الأمر قضاء ثلاثة أسابيع لإصلاح الأضرار، وهكذا ضاع وقت ثمين كان بالغ الضرر على الروح القتالية لدى البحارة، وكانت الحالة المعنوية ستتدهور كثيراً لو علموا بأن قوات فارنيز محاصرة وعاجزة عملياً بفعل قوات سيمور الإنجليزي، رغم ذلك بقي الأسطول على درجة من القوة بحيث تسمح له بأن يحرز النصر على الأسطول الإنجليزي الصغير الذي كان مغامروه وقراصنته أكثر قدرة على نهب المدن الضعيفة والصمود أمام أول قوة بحرية في العالم.

---

(١) الطنة tonne: مقياس بحري يعادل حجمه ٢،٨٣ م٣.

وفي ١٢ تموز ١٥٨٨ استأنف سيدونيا حملته، في الوقت الذي بلغ فيه مسامع الملكة اليزابيث أن البحر يخلو من أية قطعة مـن قطـع الأرمـادا، فاعتقدت بأن التهديد تلاشى ولجأت إلى نزع التسليح عن نصف سـفنها فـي حين خفضت مخصصات أفراد الجيش إلى النصف، ومنذ مدة طويلة كانـت تدابير الاقتصاد قد دفعت إلى استبدال حصص البحارة من لحم العجل بالسمك والزيت، لكن ما أن ظهر الأرمادا حتى أدى الاستعداد للقتال إلى عودة الجميع للتأهب لمواصلة الحرب.

وقد أقلع الأسطول الأسباني في عرض البحر تدفعه رياح خلفية علـى شكل ثلاث مجموعات متراصة على خط الجبهة، وكان الأميرال سيدونيا في القلب، وفي ٢٩ تموز عام ١٥٨٨ كان باستطاعته القيـام بمنـاورة خاطفـة يكتسح فيها ميناء بلايموت ليصبح الطريق إلى لندن مفتوحاً أمامه، غير أنـه كان منشغلاً في تجميع البعض من المراكب الضالة، فأهمل فرصة لا تعوض، وفي الجهة المقابلة اشتغلت الحماسة في نفوس البحارة الإنجليز فخرجوا عشية ٣١ تموز من العام نفسه والتفوا حول السفن الأسبانية الراسية وظلـوا علـى مسافة قريبة منها وقذفوها ببعض الرشقات من مدفعيتهم التي لم تكـن قاتلـة بقدر ما كانت تصدر ضجيجاً، وكان جراء هذه الحركة أن خسر الأسبان ثلاثاً من سفنهم في معركة عرفت بـ(جرافلين) Gravelines، وهذا ما رفع مـن معنويات الإنجليز في الوقت الذي أصيب فيه الأسبان بالدهشة.

وفي ٦ آب عام ١٥٨٨ ألقت الأرمادا بمراسيها أمـام مينـاء كاليـه الفرنسي بعد أن أصابها الإرهاق والإعياء، وقد استغل شارل هـوارد خطـأ الأرمادا الذي ظل ينتظر من دون أن يندفع لمقابلة البحرية الإنجليزية، فـراح

هوارد أولاً لأجل التزود بالبارود وللاستعداد للهجوم لأن الحامية الفرنسية كانت تقف موقف المتفرج من أعالي أسوار مدينة كاليه، فقد عمد إلى تشكيل أسطول صغير في ليلة السابع من آب مؤلف من ٨ سفن للتضحية بها، وانطلق مع سفنه إضافة إلى حراقات مشحونة بالبارود وبالحديد الخردة، وفي ليلة ظلماء وبينما كان يحرس أسطول الأرمادا الغافل القليل من الرجال، انطلقت ثماني سفن مفخخة ذات وميض كبير آتية من وسط البحر.

وكان الذعر قد سيطر على بحارة الأسطول الأسباني، فصدرت الأوامر بالإقلاع وسط الفوضى العارمة، لكن الوقت لم يكن كافياً لفعل ذلك فقد تعرضت العديد من سفن الأرمادا إلى أضرار مضنية، ورمى البحارة والمجدفون بأنفسهم في البحر بغية الوصول إلى البر سباحة، وقام السينيور دوغوردان حاكم مدينة كاليه بالتقاطهم، وقامت المدفعية الساحلية الفرنسية الرابضة في الميناء بطرد البحارة الإنجليز الذين راحوا ينهبون السفينة (سان لورنزو) بعد أن قتلوا هوغودو منكادو مع قلة من ضباطه.

وتعرض الأرمادا إلى ريح عاتية قادمة من الشمال الغربي مما دفع سفنه الى الجنوح على رمال دنكرك الساحلية في حالة من الذعر والفوضى، وابتداء من تلك الفترة قضي الأمر لصالح الإنجليز وتخلصت إنجلترا من تهديد خطير.

وهكذا أصبحت سفن الأرمادا متناثرة في عرض البحر واستطاعت سفينتا شحن أن تفلتا من الحصار وتنطلقا إلى عرض البحر هما: (سان فيليب)، (والريال).

وفي ١٠ آب ١٥٨٨ عاد الإنجليز لموانئهم تاركين الأميرال سيدونيا يكافح ضد العاصفة التي راحت تنخر أسطوله، وكانت العودة فوق متن بحر هائج أشبه بالانتحار، فقد استمرت العاصفة أحد عشر يوماً وكان الجرحى يتساقطون صرعى بالمئات، ولم يكن لديهم ماء للشرب سوى ما يجمعونه من ماء المطر.

وفي ٨ من أيلول عام ١٥٨٨ اتخذ الضباط الإنجليز موقفاً حاسماً، فهم لم يكونوا يرغبون في الأسرى، عندها صدرت الأوامر بقطع رؤوس الجميع، وبعد أن بلغ ذلك مسامع السير بكنغهام حاكم مدينة كونوت في أولستر، شمالي ايرلندا أنباء الإعدام الجماعي، كتب في مذكراته: ((وهكذا بعد أن أفنيناهم قاطبة خصصنا يوماً كاملاً، هو يوم الأحد، لتقديم فرض الشكر لله العلي القدير ويا لهم من أناس طيبين)).

ومما يجدر ذكره أن الإنجليز كانوا يجردون الأسرى الأسبان من ملابسهم قبل إعدامهم حرصاً عليها من التلف والتلوث بالدماء لأجل الاستفادة منها فيما بعد، وجاء من بعدهم أناس في تاريخ متأخر تبنوا الفكرة نفسها في عدد من معسكرات القتال.

وفي نهاية المطاف بلغت الخسارة الاسبانية ثمانين سفينة حربية، عشرة منها فقط أغرقها الإنجليز، أما البقية فقد غرقت أو جنحت بتأثير الريح العاتية، ووصلت إلى أسبانيا ست وأربعون سفينة، أو ثلاث وخمسون كما يزعم البعض، الواحدة تلو الأخرى في حالة يرثى لها، وقد عدت هزيمة الأرمادا كارثة قومية، إذ هلك في هذه الحملة الفاشلة ستة عشر ألف رجلٍ،

ولم يلقِ الملك فيليب الثاني مسؤولية الكارثة على عاتق سيدونيا الذي التــزم الصمت.

أما الملكة اليزابيث فبعد أن نسبت إلى نفسها أحقية هذا الظفر ضربت أول ميدالية تحمل عبارة ((امرأة تمسك بزمام الأمور)).

لكن الملك فيليب الثاني لم يقبل بأن تظهر عليه ملامح القنــوط فكــان يقول: ((لقد أرسلت سيدونيا ضد الرجال، وليس ضد البحر والريــاح، ففيمــا يصنعه الله ليس فيه من مكسب أو خسارة في الشهرة، والأجدر ألا نخــوض في هذا الحديث إطلاقاً)).

جاءت هزيمة الارمادا نهاية لمؤامرة تهدف إلــى الاقتصــاص مــن الهراطقة ممن اعتنقوا البروتستانتية، وإعادتهم إلى حضن الكاثوليكيــة، لكــن القدر حال دون ذلك، إذ انتعشت البروتستانتية بعــد أن أدرك أصــحابها أن المحنة العصيبة قد ولت أدراج البحار والرياح، وهكذا عاد الاسطول الاسباني الى بلاده خالي الوفاض.

أن فيليب واليزابيث يشبه أحدهما الآخر في كونهما لم يخوضا تجربة شخصية من الحرب في البر أو البحر، وبالنسبة لاليزابيث فإن الأمــر يبــدو طبيعياً لكن بالنسبة لفيليب يبدو الأمر غير ذلك ولا سيما وأنه ملك طمــوح، وبسبب ذلك كان هناك سوء إدارة من كلا الجانبين لأمور هذه الحرب.

ومن الطريف ان يُذكر ان انجلترا قامت بعملية بناء مدرسة من حطام الارمادا، وهذا امر جليل، فمجرد التفكير في هذا الامر من جانب الانجليز يعد نصراً يضاف الى باقي الانتصارات التي كانوا قد حققوها.

الفصل الحادي عشر

إنجلترا ما بعد الأرمادا

إن الوقوف بوجه الأرمادا والانتصار عليه قد جعل الروح الوطنية في داخل الملكة اليزابيث تصل إلى أعلى مستوياتها، وفي الوقت نفسه دعت إنجلترا إلى ضرورة التمركز في موقعها الحقيقي بين باقي الأمم بعد أن كانت مثقلة بالمخاوف والشكوك، فالنزاعات الداخلية والاختلاف في الآراء قد تلاشت في وجه الخطر الداهم القادم من البحر، فقد شعر الإنجليز بمصالحهم المشتركة، وأن كراهية الأسبان أصبحت متجذرة في العقل الإنجليزي، وعندما انصهرت الحماسة الدينية بحب المغامرة ولدت روح الشجاعة والتهور في أرواح الإنجليز خاصة في زمن المحنة (الارمادا).

علاوة على ذلك فقد أصبحت إنجلترا في عهد الملكة اليزابيث أكثر ثراءً وازدهاراً، فكانت إنجلترا خالية من الحروب في حين كانت أوربا قد انشغلت بالحروب والمشاكل فيما بينها، فالملكة قد وفرت الكثير من الأموال من خلال سياسة التدبر والاقتصاد، حتى أن الصناعة لم يثقل كاهلها بالضرائب الكبيرة، وأن المشاكل في هولندا قد رمت فوائدها في أحضان الإنجليز، وقد رافق الازدهار الاقتصادي تنامي الروح الوطنية، وقطعت إنجلترا شوطاً كبيراً في ذلك خلال الخمس والأربعين عاماً من حكم الملكة اليزابيث.

إن زيادة الثروة قد جعل هناك رغبة عظيمة من أجل الرفاهية، وأن عهد الملكة اليزابيث قد شهد تقدماً كبيراً في جميع أعمال الكياسة والجهوزية

في الحياة اليومية، وأن الإحساس بالأمان والسلام بين النبلاء قادهم إلى أن يغيروا طراز مساكنهم، فالقلعة المحصنة تحولت إلى قصر مع المحافظة على تراثها، كقلعة كينيلورث Kenilworth –وسط انجلترا– ذات الداخل البائس لتنتقل إلى قصر رائع فيه جميع متطلبات الترف.

انتشرت القصور الرائعة في جميع أنحاء إنجلترا، وكثيراً ما تمنت طبقة النبلاء العيش بطريقة تتناسب مع كرامتهم، وسموهم، إذ ليس هناك عصرٌ ترك أثراً معمارياً متميزاً كالذي تركه آل تيودور، فالهندسة المعمارية القوطية للعصور الوسطى قد فسحت المجال أمام إحياء البناء الكلاسيكي القادم من إيطاليا. إن مزيج الهندسة القوطية والكلاسيكية قد نتج عنها قصور اليزابيثية فخمة أمثال قصر هاتفيلد Hatfield وأودلي Audley وغيرها، أما البيوت الريفية فقد بنيت من الطابوق أو الحجارة بدلاً من الخشب، واستبدلت المشابك الحديدية بالزجاج، في حين أن البيوت الريفية الإنجليزية في عهد الملكة ماري تيودور كانت قد وصفت من قبل الأسبان على أنها بيوت مبنية من العيدان والأوساخ، وجميع ذلك تلاشى في زمن الملكة اليزابيث.

إن فخامة الأثاث والغرف المزينة في بيوت النبلاء قد تغنى بها الشاعر الانجليزي وليام شكسبير Shakespeare (١٥٦٤-١٦١٦) قائلاً:

((مخادعها مطرزة بالفضة والحرير... وسقوفها تقطر ذهباً ومساند الحطب فيها كأنها رموش من فضة بيضاء)).

كان الإنجليز يسرفون بالطعام وفي كرم الضيافة، فالطعام المقدم إلى رجل محترم يصل إلى ستة صحون، وقد كان الأشراف يأكلون على مناضد

عالية، أما الأدنى منهم مرتبة فكانوا يأكلون طعامهم على مناضد أوطأ، وما يتبقى من طعام فيعطى للفقراء، ويعد الزجاج الفينيسي تحفة نادرة قادمة من سفنهم العائمة فوق البحار، وكانت إنجلترا تستورد ستة وخمسين نوعاً من النبيذ الفرنسي، وثلاثين نوعاً من إيطالياً واليونان وأسبانيا وجزر الكناري، وكان شرب الخمر والنبيذ من أهم مميزات الشعب الإنجليزي، أما الصحون الصينية فكانت معروفة آنذاك، وفي عام ١٥٦٣ حلت السكاكين لأغراض الأكل بدل الأصابع، أما الشوكات فلم تستخدم قبل عام ١٦١١، وبالنسبة الى الملابس فكانت رائعة وجميلة خلال قرن الملكة اليزابيث، التي كانت ملابسها تصل إلى العالمية وهذا ما كان يثير حفيظة البيورتان، إذ كانت الألبسة في المناسبات الكبيرة خليط غريب من الأزياء الفرنسية والألمانية، وألبسة أسبانية مع أردية مغاربية واكمام بربرية، وقد لبس البعض من الرجال أنواعاً من الأقراط، ومن الجدير ان يذكر أن اليزابيث عند موتها تركت في خزانتها ثلاثة آلاف رداء مصنوعة من أغنى الأقمشة.

كانت جميع الألقاب في إنجلترا مقصودة وذات معنى في عصر اليزابيث، وأهم الأعياد في البلاد هي أعياد ميلاد رأس السنة، وغيرها من الأعياد التي احتفل بها بمواكب عظيمة ترافقها الأفراح على طراز العادات والتقاليد القديمة، وكان يوم الأحد عطلة الأسبوع، وكان الرقص والرماية ومصارعة الدببة من أهم أعمال اللهو في لندن، ومن الملاحظات العامة في عصر اليزابيث، أن المتأنق يمكن أن ينال بفضل تأنقه الاحترام من قبل الآخرين، وكان أحدهم قبل العشاء يرتدي زياً متأنقاً، وبعد العشاء يرتدي غيره، وكانوا غالباً ما يزورون المكتبات، وحتى بائع التبغ الذي جُلب إلى

إنجلترا لأول مرة عام ١٥٨٦ من قبل السير والتر رالي Walter Raleigh (١٥٥٤-١٦١٨)[١]، كان يفعل مايفعلوه.

وشكّلت المسارح أهمية كبرى في ليالي الإنجليز -كما سنذكر-، إذ أصبحت أكثر شعبية زمن الملكة اليزابيث، التي كان يعرض من خلالها النشاط المثير، وقوة الحياة الإنسانية، وروح المغامرة وفي التأمل والكفاح ضد الأقدار وبيئته المحيطة به، ففِرق الممثلين أبقيت من قبل الملكة والنبلاء لأداء التمثيليات والمواكب الفخمة في أعيادهم الخاصة، وقد رغب الناس في أداء تمثيليات تدور أحداثها حول المعجزات القديمة والغابرة التي كانت قد توقفت زمن الإصلاح الديني.

أما المسارح العامة فقد ازدادت أعدادها بسرعة كبيرة، ولم يكن هناك نساء ممثلات وكانت أدوارهن تعطى للفتيان من أجل أدائها، لكن المشاهدين كانوا غالباً ما يحتاجون إلى معالجات إنسانية وعاطفية على خشبة المسارح التي تعرض أمام قاماتهم.

وبالنسبة إلى الأعمال الطبيعية للإنجليز، فقد ارتفعت معدلات التجارة والمغامرات البحرية، وهذا الأمر أدى إلى ارتفاع معدلات الفقر في البلدان المعدمة، فالشحاذون الأقوياء كانوا قد أزعجوا البلاد خلال العقود الثلاثة الأخيرة بوصفهم قاطعي طرق، وكانت الخطوة الأولى لمعالجة هذا الأمر بإنصاف توافر تدابير إيجابية للمحرومين الفقراء وللمرضى، فجُعلت هناك

---

(١) والتر رالي: كان مستكشفاً وشاعراً ومؤرخاً. وكان في وقت من الاوقات من رجال الحاشية المقربين الى الملكة اليزابيث، وحرص على تشجيع البحرية الانجليزية لاقامة المستعمرات، وكان عدواً لدوداً لاسبانيا.

مساعدات مالية أسبوعية في جميع كنائس الأبرشية خصصت لفقرائها، وبـــدأ العمل في بناء الملاجئ والمستشفيات بشكل تدريجي، وأخيراً وضـــع نظـــام الإغاثة الأبرشية لأجل الفقراء ممن دخلوا ضمن القانون التي مـــررت عـــام ١٦٠١، والتي شرّعت بنشر المؤسسات في كل مقاطعة، لتكون جاهزة لتقديم المعونة اللازمة للفقراء، وهذا ما جعل أعداد المشـــردين والفقـــراء يتنـــاقص تدريجياً، لكن هذا لم يمنع من استخدام الصرامة ضـــدهم، إذ ان أكثـــر مـــن ثلاثمائة من هؤلاء المزعجين يعدمون شنقاً سنوياً، وكانت أعدادهم ما يقارب العشرة آلاف متشرد داخل إنجلترا، ممن كانوا يستجدون بشتى الطرائق لإثارة الشفقة، قد تصل أحياناً إلى اللصوصية، واستخدام العنف ضد عابري السبيل، ولم يكن من السهل توظيف هؤلاء، ولا يمكن لأي أحد أن يزاول حرفة ما من دون أن يكون عضواً في النقابات المهنية، فقد كان الصُنّاع يشكلون مجموعات وهيئات قوية في لندن، فهم كانوا دائماً على اســـتعداد لخلـــق الاضـــطرابات والعويل في نواديهم الخاصة، وقد بيَّن شكسبير مهـــام الأشـــراف أصـــحاب الطموح بقوله: أصحاب المراكز المتواضعة دفعوا أبناءهم لأجل الارتقاء في الخارج، والبعض الآخر أرسلوا إلى الحروب لجمع ثرواتهم هناك، والـــبعض سيكتشف جزراً بعيدة، وغيرهم سيرسل إلى الجامعات من أجـــل الدراســـة، ويمكن أن نضيف طرائق أخرى صعبة وخطرة في جمع الثروة وباستحســـان البلاط، ممن لم تسعفهم مراكزهم لنيل مثل هكذا فرصة كالعمل فـــي هولنـــدا وفرنسا، أو في الحملات البحرية الموجهة ضد أســـبانيا، وهنـــاك آخـــرون بإمكانهم متابعة رحلات المستكشفين في المناطق القطبية أو في البحار الهندية، وهناك من يفضل الدراسة في باريس وألمانيا وفـــي إيطاليـــا، لا ســـيما وأن

الأخيرة تمارس تأثيراً قوياً على الفلاسفة الأخلاقيين الإنجليز، ويذكر أحـــدهم بأن إيطاليا أفسدت سلوكيات الرجال الإنجليز من خلال أمثلة السير المريضة.

الفصل الثاني عشر

الأدب والمسرح الاليزابيثي

كانت الحياة الانجليزية في اواخر القرن السادس عشر متأثرة بقوتين نشطتين هما: حركة الاصلاح الديني، وحركة الاحياء في الادب، وبدأت كل من هاتين الحركتين بدورها توقظ عقول الناس من سباتها اكثر من نصف قرن من الزمان خلال القرن المذكور.

وسط النشاطات المختلفة في عصر اليزابيث، انفجر الأدب الإنجليزي الذي يهتم بتعبير الفكر الحر والمستقل، ويدفع الفرد لزرع القوة داخل لغته التي يكتب فيها. رأينا كيف أن عصر اليزابيث غرس في إنجلترا وعي عظمتها الوطنية، وأيقظ الشعور بالقوة في عقول الإنجليز، فقد أحس الرجال بعظمة العالم من حولهم وأشعرهم بأهمية القضايا وبروح المغامرة، فقد كان طموحهم غير محدود بعد أن أدركوا سر قوتهم الخاصة، فضلاً عن أن لديهم الوقت الكافي للرفاهية وللحراثة، وأن إحياء التراث الذي بدا في إيطاليا في القرن المنصرم كان بطيئاً في إنجلترا، أما فرنسا وألمانيا فقد تقدمتا على إنجلترا كثيراً في هذا المضمار، ففي عهد الملك هنري الثامن تأسست مدارس النحو، وفي عهد ابنه الملك إدوارد السادس أتت هذه المدارس أُكلها، لكن تحت حكم الملكة ماري تدهورت المؤسسات التعليمية، إذ وصلت إلى أدنى مستوياتها، ليحل محلها نار الاضطهاد الموجهة ضد حرية الفكر، أما خلال حكم الملكة اليزابيث فقد انتعشت الجامعات، فكانت الملكة تواقة جداً للتقدم العلمي الذي بدت عجلته تدور بانتظام على طريق تشجيعها الخاص.

وكانت هناك رغبة عارمة في الاطلاع وحفظ التاريخ الإنجليزي من الضياع، فعلى سبيل المثال اجتهد رئيس الأساقفة باركر Parker في حفظ السجلات والوثائق التاريخية التي كانت قد تبعثرت عندما حلت الأديرة -زمن الملك هنري الثامن-، وهناك من طاف إنجلترا مشياً على الأقدام، ويعاين من أجل تحقيق المخطوطات والتأكد من صحتها، وما زالت تلك المخطوطات مصدر معرفتنا للتاريخ المبكر لمدينة لندن، وفي عهد اليزابيث توسع الاهتمام بالتاريخ، وقد دوّن وليام كامدين W.Camden مدير مدرسة ويستمنستر تاريخ العهد الاليزابيثي بعد وفاتها والذي كان متقدماً على مؤرخي الحوليات المعاصرين في عرض وجهة النظر والبصيرة السياسية، وهناك دانيال Daniel في كتابه ((تاريخ إنجلترا)) والسير والتر رالي ((تاريخ العالم)) ونوليس Knolles ((تاريخ الأتراك))، إذ يقدمون طرازاً رفيعاً من الكتابة التاريخية، والتي شكلت مجموعة نيرة من حياة إنجلترا، فمن خلالها نهض التاريخ الإنجليزي، وأصبح بالإمكان تتبعه من دون ارتباك وانقطاع. إن الأشياء المثالية الإيطالية لم تكن مفيدة في العديد من المجالات، فالتقليد الذي يصاحبه التصنع والتحذلق يؤذي الجهود الواعية، ليحل الغموض مكان الوضوح، والبعض من الكتّاب كانوا قد اشتكوا من التصنع في بداية عهد الملكة اليزابيث، ونجد روجر آشام R.Ascham المعلم الخاص للملكة اليزابيث وللسيدة جين جري Grey يحاول عبثاً عرض القاعدة في أنه يدوّن بشكل حسن في أية لغة يتحدث بها عامة الشعب، فهو يعمل بوصفه رجلاً حكيماً، لذا يجب أن يفهمه الرجال، فآراء الحكماء يجب أن يؤخذ بها، فالعديد من الكتّاب الإنجليز لم يأخذوا بذلك، فأدخلوا كلمات غريبة كاللاتينية

والفرنسية والإيطالية. كان آشام رجلاً صاحب إحساس عالٍ، وشغل منصب السكرتير اللاتيني للملكة اليزابيث، وصاحب كتاب ((مدير المدرسة))، البحث الأول من أجل التعليم الكلاسيكي في اللغة الإنجليزية، كذلك توماس ولسون Wilson الذي حاول الحد من غموض التعبير في النصوص الأجنبية بشكل مركز، وفي عام ١٥٦١ نشر كتاب (Lyly) الذي يتحدث عن رجل محترم من أثينا يعيش في نابولي ثم ينتقل إلى إنجلترا، إذ ركَّز على قضايا الحب والتعليم والصداقة وغيرها من الأمور، ورغم ما يحتويه من تناقضات إلا أنه فيه الكثير من الدقة الفكرية، فهو كتب من أجل السيدات، فيوفيوسEuphues (مؤلف الكتاب) يفضل الكذب على أن يحبس داخل امرأة، وبأسلوب جديد من الأحاديث دعا الكاتب يفوسم Ephuism إلى أن يصبح عصرياً، وقد ساد هذا الأسلوب مدة طويلة بين حاشية البلاط، وقد هجا شكسبير يفوسم في أحد مسرحياته المعروفة بـ((الحب جهد مفقود)) في شخص دون أرمادو Don Armado، بينما يعرض لنا في مسرحية أخرى الميل صوب التحذلق الذي طالما سعى لإفساد اللسان الإنجليزي، وقد عزا يفوسم نجاحه إلى رعاية الملكة له، وقد أشار السيد فيليب سيدني Sidney إلى ضرورة التزام الأسلوب الصريح حديثاً وكتابة، ويجب أن لا ننسى أن عمق الشعور وقوة الفطنة والنبل وصرامة الروح من مكّن الرجال في زمن الملكة اليزابيث ان يصنعوا الأمور العظيمة في ميدان الحياة والأدب. إن كتابة النثر الإنجليزي استمرت خلال حكم الملكة أليزابيث، وأن فن بوتنهام Puttenhum الذي ظهر عام ١٥٨٩ كان محاولة جادة للنقد، فالكاتب يحاول التوفيق بين التصنع والتخلق لتوضيح كيف أن اللغة الإنجليزية يمكن أن تُغنى من دون أن يكون هناك ما

يوقفها. لكن فرانسيس بيكون الذي نشر مقالاته الأولى عام ١٥٩٧ أوضح المزيج ما بين الخيال والوضوح الذي كان جديداً في الأدب الإنجليزي، وقد حرر بيكون نفسه من جميع الأشكال المتصنعة في التعبير، فكان الوضوح والقوة والفكر يطغيان على لغته، ولم يكن أسلوبه سهلاً لكنه كان عظيماً.

كان عند بيكون مكانة أعظم في الأدب الإنجليزي الا ان طريقته فيها العديد من التناقضات، رغم ذلك مازال العلم الحديث يشير إلى أهميته العظيمة، ولم تنشر اعماله الفكرية الكبيرة حتى عام ١٦٢٠ وهذا يوضح الثمار اليانعة للمعرفة المتنامية للعالم في عهد الملكة اليزابيث التي كانت تتقدم إلى الأمام ببطء ولكن بخطط مدروسة.

إن المجد العظيم من الأدب الاليزابيثي (الشعراء والمسرحيين) كان قد أوجد روحاً جديدة لإنجلترا، وجميع التراكيب الشعرية راحت تتقدم صوب الازدهار، وكانت كتابة الأشعار إنجاز لا بد منه لكل رجل محترم، وبشكل جزئي فإن الأنماط الشعرية كانت قد أخذت من سوناتات[1] بترارك Petrarch (١٣٠٤-١٣٧٤)[2] الذي كرس جهوده لتغيير حالة الوهن في حبه للورا Laura لكن الأنماط العصرية ملأت تقريباً بلغة الشعور الحقيقي، فطبيعتهم الحماسية وأساليبهم العاطفية دفعت الشعراء الاليزابيثيين إلى أن يحيكون خيالاً جميلاً في قصائدهم، وغالباً ما كانوا يتغنون بعالم السلام والبساطة وأحياناً يلجأون إلى الحكايات الغرامية القديمة، ومن بين شعراء الحب نذكر فيليب سيدني الذي راح يتغزل بعشيقته، وتدريجياً راح يتحرر من قيوده وأدرك

---

(١) السونيتة: قصيدة تتألف من (٤١) بيتاً.

(٢) بترارك: عالم وشاعر ايطالي. يُعرف بابو الانسانية.

ضرورة أن يكون طبيعياً أكثر، إذ كانت قصائده وأغانيه مليئة بالحب والإحساس.

ان الكثير من القصائد ترجمت إلى الإنجليزية، وظهر في إنجلترا الشاعر أدموند سبنسر Edmund Spenser (١٥٥٢-١٥٩٩) صاحب قصيدة ((الملكة فايري)) وهي ملحمة عظيمة لإنجلترا الاليزابيثية، وقد درس في كامبردج وبدا حياته تحت رعاية ايرل ليستر وفي عام ١٥٨٠ غادر إلى إيرلندا بوصفه سكرتيراً لنائب الملك، وهناك قضى معظم حياته في كيلكولمان Kilcolman القريبة من كورك Corke، إذ منح ثلاثة آلاف هكتارٍ من الأراضي، ففي عام ١٥٩٨ فر إلى لندن حيث مات عام ١٥٩٩ بسبب تمرد تيرون Tyrone، فكان في ايرلندا قد تفرغ للشؤون الإنجليزية. كانت جميع قصائد سبنسر مفعمة بالروح الدينية، وقوة الشعور البروتستانتي، والولاء للملكة اليزابيث بوصفها رمز إنجلترا الأكثر نبلاً.

كانت ((الملكة فايري)) في الواقع قصيدة متميزة في الزمن الذي كتبت فيه، فقد أخذ سبنسر الأنماط القديمة وألبسها ثوباً من الحداثة والعصرية، فالفروسية مثلت في معناها القديم ماضياً رحل وغاب، لكن بالإمكان تجديد ذلك المعنى من ميول وبطولات وأبطال وحسناوات في أعياد بلاط الملكة اليزابيث. كان سبنسر يرمي من وراء أعماله إحياء التراث القديم بحياة اليوم، فروح العصر الجديد في الدين والسياسة قد تحولا إلى اشكال رمزية مأخوذة من الأساطير القديمة للفروسية.

كان الأديب في عهد الملكة اليزابيث – فيما خلا الدراما – متخلفاً جيلاً عن الأدب الفرنسي، فقد كان النثر قوياً مرناً، وفي غالـــب الأحيـــان يحـــرك المشاعر بجلاله الملكي.

اما المسرح فقد ظهرت روح العصر باجلى معانيهـــا مـــن خلالـــه، وازدياد اقبال الناس عليه لما فيه من قوة اداء، وانطلاق التعبير والاحســـاس، ولما تردد فيه من عبارات خلابة، ولما رأوا فيه من ملابس الممثلين الفـــاخرة التي سحرت الناظرين، ويذكر أحد البيورتان رغم شعوره بالمرارة عندما قال ما نصه: ((تعتمد موضوعات المآسي التراجيدية علـــى الغضـــب والغـــيظ، والقسوة وزواج المحارم والقتل، لذا فان اشخاصها وممثليها كانوا (آلهة) مـــن الذكور والاناث والجن والشياطين والعجائز والملوك والملكات والنبلاء، امـــا الكوميديات الهزلية فكانت مادتها وفحواها الحب والتـــآمر والتملـــق والزنـــا والفسق، وكان اشخاصها هم الملكات وصبيان المطابخ والبلطجيـــة والعهـــرة الفاسقون من الشيوخ والداعرون من الشباب)).

يبدو ان العيب الحقيقي في ذلك لم يكن مرجعه الى المسرح نفسه بل ما صاحب المسرح من وسائل واشخاص، إذ كان نوعاً من صمام الامان ينفس عن نزعات المجتمع المكبوتة ويمنحها مجالاً للتعبير.

كان المسرح مكاناً يتحرر فيه الانسان من القيود ويشبع فيه شهواته الى ابعد حد، وقد ذكر قسيس اخذته الدهشة عندما كان يرى مشهد الجماهير وهي تتدفق الى المسرح: ((انه خُيل اليّ كأن جهنم تفتحت ابوابها، ولعله من الخير ان تجتمع الشياطين في صعيد واحد لنرى ما يفعلون وتعرف مكانهم اذا دعت الحاجة)).

العمارة المسرحية

مما لا شك فيه ان الشكل المعماري الدقيق الذي اتخذه المسرح الاليزابيثي في غاية الاهمية، وذلك من اجل التعرف عليه وفهم اسلوب ونوايا هذا المسرح، في تلك الفترة الزمنية.

كانت خشبة المسرح في بعض المسارح الاليزابيثية تتوسط الجمهور المُشاهد، الا ان الخطوط العامة في تصميم المسرح الاليزابيثي متفق عليه عند اغلب المهتمين به آنذاك.

شكل البناء في المسرح الاليزابيثي

تأثر المسرح الاليزابيثي بالمسرح الاوربي وتفاعل معه، ومن المحتمل ان مواصفات تلك البناية قد تأثرت بما كان يعرف من التجارب المسرحية في ايطاليا وغيرها من الدول.

وبشكل عام كانت البناية مكشوفة السقف وتتألف من ارضية ليس فيها مقاعد معدة للمتفرجين الفقراء مادياً ، بينما كانت القاعات تؤمن اسباب الراحة للاغنياء.

كان الجزء الامامي عبارة عن منصة يعلوها سقف يستند الى اعمدة، ويعلو ذلك السقف غرفة عليها علم يرفرف، يُعلن منها البواق بداية العرض المسرحي، اما الخشبة فكانت مكشوفة من الخلف ذات باب او ابواب يستخدمها الممثلون للدخول والخروج.

وكان مسرحاً مفتوح السقف يعتمد على ضوء النهـار فـي الانـارة، والتمثيل يدور على منصة عالية يحيط بها المشاهدون مـن ثـلاث جهـات. وكان يوجد نوعان من البناء المسرحي :

- النوع العام:

كانت خشبة هذا النوع من المسارح تبرز صوب المتفرجين عدة امتار، ويبدو انه كانت هناك فتحة ذات ستارة في الخلف يمكن اسـتعمالها لـبعض المشاهد، وشرفة في الاعلى تستعمل للتمثيل عند الحاجة، كمـا فـي مشـهد الشرفة في (روميو وجوليت) على سبيل المثال، اما خلف خشـبة المسـرح فكانت غرفة ملابس الممثلين، وكان المخزن تحت خشبة المسرح مع باب في الارضية لخروج الاشباح والشياطين من الممثلين. وكان المشاهدون يجلسون في الشرفات او يقفون في الفضاء على الجوانب الثلاثة (إذ يدفعون اجور اقل من الميسورين)، ويعد المشاهد الذي يقف في الوسط قريباً من خشبة المسرح من ضمن اكثر المشاهدين صخباً والاقل ذكاءً بين الجمهور.

- النوع الخاص

(المسارح الخاصة المختلفة) كانت قاعات داخلية مسـتطيلة الشـكل وذات مقاعد ثابتة للمشاهدين كافة وكان عددهم اقل من عدد المتفرجين فـي المسرح العام. ان الشكل الدقيق لخشبة المسرح في المسارح الخاصـة اكثـر غموضاً منه في المسارح العامة.

وتعد وايت فرايزر وبلاك فرايزر من اهم المسارح الخاصة، وقد بيّن احد المختصين ان خشبة المسرح في بلاك فرايزر تقسم اقساماً ثلاثـة هـي

الايسر والاوسط والايمن، وكانت المشاهد التي تتطلبها المسرحية والتـــي لا تتفق مع هذا الترتيب تمثل بين الاقسام الثلاثة.

دور العرض في المسرح الاليزابيثي

بعد مضي سبع عشرة عاماً من ارتقاء الملكة الاليزابيث الاولى العرش اي عام ١٥٧٦ شُيدت اول دار للعرض في (شورتس) ويعد بداية مهمة فـــي التطور الدرامي العظيم الذي اطلق عليه اسم الملكة وهو المسرح الاليزابيثي، وقد اختيرت شورتس موضعاً لدار عرض دائمية، لأن الوصول اليهــا كــان ميسوراَ بالقياس الى الناس القاطنين في المدينة ولو انها كانت خــارج اطــار السلطات البلدية.

لقد استطاع القائمون على المسرح عرض مسرحياتهم بكل حرية فـــي شورتس وبعد ذلك شيدت الكثير من دور العرض وفي اماكن مختلفة خـــارج حدود المدينة، منها في الشرق وبعضها في الجنوب.

وعلى جانب نهر التايمس ،يمكن الوصول اليها بعبّارات نهرية خاصة، وقد اطلقت على هذه الدور تسميات عديدة مثل :الاوزة- الزهــرة- الحــظ- ومسرح جلوب. ان قبل ذلك التاريخ كانت فــرق الممثلــين الجوالـــة تقــدم عروضها اينما اتيح لها ذلك، في اقبيـــة الفنـــادق او الوكـــالات او قصـــور الاغنياء او قاعات الكليات او الساحات العامة صيفاً في الريـــف او قاعـــات البلديات.

التقنيات المسرحية في المسرح الاليزابيثي المنظر المسرحي:

كانت المناظر قليلة جداً تمثل غابة على نحو تقليدي او شجرة او غرفة العرش، وغير ذلك.

اما الازياء والاكسسوارات فيذكر جون رسل تايلر: ((ان الملابس كانت تتسم بالاتقان))، وفي المسرحيات التي تقدم في البلاط كان العرض يتميز بالملابس الفخمة، في حين يذكر هوايتج: ((كانت بعض الفرق تحصل على ما يستغني عنه النبلاء من ثياب وبهذا تتيح لممثليها ان يظهروا في اناقة وفخامة ما كانت لتتوافر لهم بغير ذلك وحتى في تلك الفترات كانت تبذل بعض المحاولات لملاءمة الثوب للشخصية وهكذا كان الخادم في زي الخدمة المعاصرة والاجير في دثاره المعاصر، وظلت عادة مراعاة المقتنيات التاريخية للعصر المسرحي في تفاصيل الملابس مجهولة تقريباً حتى عام ١٧٧٢)).

ولم تكن للاضاءة المسرحية دور يذكر يوم كانت المسارح من دون سقوف، وان المسرح كان مفتوحاَ ويعتمد على ضوء النهار وعلى خيال المشاهدين عند تقديم المناظر الليلية.

ويذكر تايلر: ((ان العروض كانت تقدم في الساعة الثانية بعد الظهر)).

غير ان المسرح قد تطور، إذ اصبح له سقف، فكان لزاماً على العاملين استعمال الاضاءة الصناعية وقد استعملت الشموع في اضاءة مسرح شكسبير والمسارح الشعبية الانجليزية الاخرى، وان في هذا العصر ظل استعمال الزيوت والشموع للاضاءة، فقد كان الضوء الاساسي للمسرح مركز في ثريا دائرية الشكل بها الكثير من الشموع وكانت تضئ كل من الصالة وخشبة

المسرح، ووضعت الاضاءة امام وخلف الاجنحة لتضـئ المنـاظر وفـوق الالواح لأضاءة الصالة، واستعملت الاضاءة الارضية لتضئ الممثلين، وفـي مشاهد الليل تخفض جزء من الاضاءة وتغطى بعض الشموع والمصابيح حتى يقترب الجو من الواقع المسرحي، وكان الممثلون يحملون في ايديهم الشموع. ليوهموا المتفرج بظلام الليل، ومن جملة هذه الآراء يدرك المرء ان الاضاءة المسرحية لم تكن موجودة في النصف الاول من هذا العصر بسبب فقدان دور العرض للسقوف، واصبحت ضرورة ملحة عند بناء السقوف لدور العـرض، فأستعملت الشمعة ومصابيح الزيـت فكانـت البدايـة لأسـتعمال الاضـاءة المسرحية.

وكان المتفرجون في العصر الاليزابيثي يحيطون بالممثلين الـى حـد الاقتراب اللصيق بالمسرحية المعروضة، وان الجمهور كان مدرباً على قبول المعالجات التقليدية للواقع .

كان المسرح الاليزابيثي مسرحاً للشعب بجميع طبقاته، يجتمع فيه أحط الافراد شأناً الى جانب الملكة اليزبيث نفسها.

ومن جانب آخر فقد كان المسرح من اهم ادوات الدعاية السياسية فـي ذلك الوقت، فالمدافعون عنه امام هجمات المتزمتين يبرزون دوره الـدعائي سبباً يدعوا الى التمسك بنقائه، اما القصر الملكي مع تشجيعه للمسرح نجـده يفرض رقابة صارمة على ما يعرض مـن مسـرحيات، امـا العديـد مـن الموظفين، فكانوا ينظرون نظرة استحسان الى المسـرح بـأي شـكل مـن الاشكال، وكانت السلطات البلدية في لندن تقف موقفاً مناوئاً للمسرح بحيـث

كانت اعتراضاته كثيرة وعديدة، منها الدينية و الطبية والاقتصادية، حتى انها كانت تعد التمثيل عملاً الحادياً.

في حين كان المتزمتون من رجال السلطة على استعداد لوصف دور العرض على انها دور الشياطين .

التمثيل

كان الممثل الاليزابيثي يقف وسط المنصة التقليدية، إذ يكاد يتوسط الجمهور، وكان الكلام الانفرادي يوجه مباشرة الى الجمهور من قبل الممثل، وكانت هناك رابطة تشد الممثل بالجمهور.

اما بالنسبة للفرق التمثيلية فأنه نتيجة لدعم ورعاية الملكة والنبلاء للممثلين فقد سمح لهم بتشكيل الفرق تحت عناوين معينة كرجال الملكة ورجال اللورد الفلاني، لأن هذه التسميات كانت تمنحهم الترخيص للانتقال من مكان لآخر، لأنهم لم يكونوا احراراً في هذا الانتقال دون ان يتعرضوا للتوقيف بصفتهم أناساً مشردين، لذا كانوا يجهزون بترخيص من اصحاب تلك الاسماء، تقنع الموظفين المحلين بتقديم المعونة لهم عند انتقالهم وتقديمهم لفعالياتهم المسرحية.

اما بالنسبة لنظام الفرق المسرحية فكانت تعمل بنظام الحصص. كانت الفرق المسرحية تعمل بنظام الشركة بين الفنانين، اذ يجتمع عدد منهم ويسهم كل منهم بخمسين جنيهاً في رأس مال الشركة ويوزعون الارباح كلٌّ حسب نصيبه.

لم يجن كتاب المسرح من الربح بقدر ما جنى الممثلون، ذلك أنهم باعوا رواياتهم من دون تحفظ إلى الفرق المسرحية لقاء مبلغ يتراوح بين ٤ و٨ جنيهات.

وفي عام ١٥٩٠ عاش المسرح الإنجليزي على روايات لها بعض القيمة، فقد زخرف جون ليلي ملهياته بأغانٍ شعبية ساحرة، إذ مهد السحر الرقيق في روايته Endymion لرواية ((حلم منتصف ليلة صيف))، وفي هذا المقام لا بد من أن نذكر كريستوفر مارلو (١٥٦٤- ١٥٩٣) الذي عُمِّد قبل وليام شكسبير[(١)] بشهرين اثنين، وهو ابن صانع أحذية في كنتربري، وأنه ما كان ليحظى بالتعليم الجامعي لولا أن رئيس الأساقفة باركر قدم له منحة دراسية، وبقي طوال سني دراسته بالكلية مكلفاً من قبل السير فرانسيس ولسنهام بوصفه جاسوساً من أجل التحري عن أية مؤامرات يمكن أن تحاك ضد الملكة، وقد زعزعت دراسته لآداب الإغريق والرومان من عقيدته الدينية. انتقل إلى لندن بعد حصوله على درجة الأستاذية عام ١٥٨٧. وفي ٣ حزيران عام ١٥٨٩ رفع بارنز أحد عمال الملكة اليزابيث تقريراً جاء فيه: إن مارلو قد أعلن أن أول أصل في الدين لم يكن إلا إبقاء الناس في رعب وفزع وأن المسيح كان (ابن زنا) وأن العهد الجديد (الإنجيل) لم يكن مكتوباً بشكل مثالي وأضاف بارنز بأن مارلو في كل اجتماع يحضره يحرض الناس على الإلحاد ويدافع عن اللواط.

---

(١) يتفق النقاد على ان الروائي شارل ديكنز (١٨١٢-١٨٧٠) هو الرجل الثاني بعد وليام شكسبير. ومن اشهر روايات ديكنز اوليفر تويست عام ١٨٣٧، ودافيد كوبرفيلد عام ١٨٥٠ والتي تعد سيرة ذاتية لحياته وتعد درة اعماله.

وقبل أن تصل هذه التقارير إلى الحكومة بوقت طويل، كان مارلو قد كتب وأخرج للمسرح روايات تشير إلى كفره وشكوكه في الكتب الدينية، ومن الجليل أنه ألف مسرحية Tamburlaine of the Great في الكلية وأخرجها في عام تخرجه، فكان تمجيدها للمعرفة والعلم والجمال والقوة دليلاً على مزاج الشاعر المصطبغ بمبادئ فاوست (فيلسوف يبيع نفسه للشيطان مقابل حصوله على العلم والمعرفة).

ويرى البعض أن نجاح مسرحياته في عصر اليزابيث يكمن في ما احتوته من عنف وسفك الدماء وما فيها من زندقة وهرطقة وقوة فصاحة وجرأة، وعبارات استخدمت بذكاء أكثر مما سمع أو عرف في المسرح الاليزابيثي من قبل. ومن اشهر رواياته ((التاريخ الفاجع للدكتور فاوست)) عام ١٥٨٨ و((يهودي مالطة)) عام ١٥٨٩، و((إدوارد الثاني)) عام ١٥٩٢.

فجأة أسدل الستار عن تاريخ مارلو الخاص، عندما اجتمع في ٣٠ أيار عام ١٥٩٣ مع ثلاثة من جواسيس الحكومة في حانة دتفورد القريبة من لندن، وهناك تراشق مارلو مع أحدهم ويدعى فريزر، وما كان من الأول إلا أن استل خنجراً من حزام فريزر وطعنه به فأصابه ببعض الجروح الطفيفة، فأمسك فريزر بيد مارلو وسدد الخنجر إليه فأصابه بجرح قاتل وصل عمقه بوصتين في عينه اليمنى، فسقط مارلو قتيلاً متأثراً بجرحه العميق، إذ وصل نصل الخنجر إلى مخه، ودفن في قبر غير معروف في الأول من حزيران عام ١٥٩٣.

لقد أنجز مارلو الشيء الكثير في العمر القصير، فقد جعل من الشعر المرسل كلاماً مرناً قوياً وأنقذ المسرح على أيام الملكة اليزابيث من دعاة

القديم ومن المتزمتين البيورتان، وترك بصماته على شكسبير في مســرحيتين تاجر البندقية، وريتشارد الثاني، فكان شكسبير منفذاً ومنجزاً لما بــدأ بــه الكثيرون أمثال مارلو.

كان المجتمع في عصر اليزابيث يتحلى بصفات كثيرة الــى جانــب الصفة الوطنية، ولعل في مقدمتها اقباله الشديد علــى متــاع الحيــاة الــدنيا والاستمتاع بملذاتها التي كان من بينها المسرح.

الفصل الثالث عشر

السنوات الأخيرة للملكة اليزابيث

توَّج عهد الملكة اليزابيث بالنصر الذي حققته على أسطول الارمادا، وأعادت إنجلترا إلى مركزها الحقيقي بين دول العالم، وفي الوقت نفسه تراجعت مكانة أسبانيا في كل مكان، وراحت فرنسا تعيد ترتيب صفوفها لتكون قوة موحدة ومتراصة، رغم ذلك كله فإن أسبانيا وقوتها ما زال يُنظر إليها بعين الاحترام، فهنري الرابع والملكة اليزابيث كلاهما يسعيان صوب إيجاد السلام مع الملك الأسباني فيليب الثاني، وكانوا سيمنحونه هولندا إذا ما تأكدوا من حسن نواياه تجاههم، إلا أن الملك فيليب كان قد هدد مرة أخرى باحتلال إنجلترا.

إن كفاح الملك فيليب الثاني والاتحاد ضد هنري الرابع، أصبح يوماً بعد آخر أكثر يأساً، فموقع هنري الرابع في فرنسا أصبح أكثر أمناً بعد تحوله في كانون الأول عام ١٥٩٥ صوب البابا كلمنت الثامن Clement VIII (١٥٣٦-١٦٠٥) وبذلك حصل على الغفران، خاصة وأن الكفاح الديني في فرنسا قد انتهى، والبروتستانتية قد قهرت، فعادت فرنسا إلى الإذعان للبابوية، لكنه إذعانٌ طوعي، وكان موقف فرنسا موقفاً محايداً مستقلاً، وقد سُر البابا لرؤية إعادة التوازن بين السلطتين الكاثوليكيتين الفرنسية والأسبانية، فبعد حصول هنري الرابع على الغفران أصبح من المتعذر على الملك فيليب الثاني أن يجر حرباً ضده، ورغم عظمة سلطان فيليب الثاني إلا أن خزينته كانت خاوية إلى درجة كبيرة، وذلك بسبب خسارة مصادره الهولندية، والنفقات

الكبيرة التي كانت تصرف في حروبه الكثيرة، لكن في عـــام ١٥٩٦ ســـيطر فيليب الثاني على كاليه، فكان هذا بمثابة جرس إنذار، موجهاً ضــد إنجلتــرا وهولندا وفرنسا على حد سواء، وقد جهزت حملة مشتركة ضد أسبانيا بزعامة الإنجليز، إذ أبحر اللورد الإدميرال هاورد Howard مع أسطول مؤلف مــن مائة وخمسين سفينة موجهة ضد قادس، وكان ايرل اسيكس على رأس قــوة إنزال، وفي ٢١ حزيران من العام نفسه هزم الأســطول الأســباني المكلــف بالدفاع عن البلدة بشكل كامل، فكانت قوات اسيكس أول من أجــرت عمليــة الإنزال من على السفن، وسيطرت القوات الإنجليزية على المدينة بكل سهولة، فقد تعامل الجنود الإنجليز مع السكان برحمة، على خلاف ما فعلــه الجنــود الأسبان في هولندا، فيذكر الأدميرال هاورد في هذا الخصوص قائلاً: ((لــيس هناك رجل ولا امرأة جرحا من دون سبب))، وبعد إنجــاز المهمــة، أصــر هاورد على الرجوع إلى الوطن.

كانت هذه آخر حملة بحرية موجهة ضد أسبانيا، إذ كانت هناك رغبة عارمة في إنجلترا لأجل السلام، فقد تقدمت الملكة في السن وشــعرت بأنهــا أنجزت عملها على أكمل وجه، بعد أن قادت إنجلترا وسط الصعاب واوصلتها الى مراكز مرموقة بين دول اوربا والعالم.

وقد ايقظ قائــد قــوات الإنــزال روبــرت ديفريــوكس Devereux (١٥٦٥-١٦٠١) ايرل اسيكس الرقة والعطف في داخل الملكة، ورغــم أنــه كان يصغرها بثلاثين عاماً إلا أنها كانت توده بوصفها عشيقة لا بوصفها أماً، وأثناء غيابه في حملة قادس، استغل سيسل عدم تواجده فطلب مــن الملكــة

تعيين ابنه روبرت سيسل وزيراً للخارجية وهذا ما سيساعد كثيراً على جلب السلام لإنجلترا، وفي الوقت نفسه لأجل الاستخفاف بمآثر اسيكس.

وفي عام ١٥٩٧ أقنع اسيكس الملكة اليزابيث لتشكيل حملة بحرية المعروفة بـ((الرحلة البحرية)) من أجل القضاء على الأسطول الأسباني لدى عودة سفنه من غرب الأنديز (الهند الغربية)، لكن هذه الحملة باءت بالفشل بعد أن تمكن الأسطول الأسباني من الهرب قبل المواجهة، وفي الوقت نفسه أرسل الملك فيليب الثاني أسطولاً موجّها صوب إنجلترا لكنه فشل في مهمته أيضاً بسبب تعرضه إلى عاصفة كبيرة قادمة من جانب جزر Scilly.

على أية حال، كانت هذه مجرد محاولات أخيرة لحرب واسعة النطاق، وفي عام ١٥٩٨ أبرم هنري الرابع معاهدة مع فيليب الثاني عرفت بمعاهدة فيرفنس Vervins لجعل الحكم الملكي الفرنسي يركن إلى قاعدته الكاثوليكية القديمة، ومن خلال مرسوم نانت منح البروتستانت في فرنسا حياة التسامح. كانت خطة الملك فيليب الثاني أن تمنح سيادة هولندا الأسبانية إلى ابنته ايزابيلا Isabella، وتُترك لزوجها ألبرت Albert أرشيدوق النمسا، وان تُخضع الولايات الهولندية الثائرة، ففي هذه الأثناء كانت إنجلترا مشغولة بحالة التمرد الحاصلة في أيرلندا، إذ اتحدت قبائل الستر تحت زعامة هيو اونيل Hugh ONeill (١٥٥٠-١٦١٦) ايرل تيرون، المدعوم من قبل الملك فيليب والبابا، ففي آب عام ١٥٩٨ فاجأ حصن بلاكووتر Blackwater وأوقع هزيمة ساحقة بالقوات الإنجليزية، لكن لم يستطع الملك فيليب أن يكمل مشاريعه، بسبب مرضٍ ألم به فمات في أيلول من العام نفسه، وكانت كلماته الأخيرة: ((أموت بوصفي كاثوليكياً متميز في الطاعة والإيمان للكنيسة

الرومانية المقدسة)) وكان له من العمر (٧١) عاماً وحكم أسبانيا لمدة أربعين عاماً، كان متعصباً مخلصاً، ورغم أن سياسته كانت بعيدة المدى، إلا أن مخططاته الكبيرة فشلت الواحدة تلو الأخرى، وهذا ما جعله مفلساً بشكل كبير، ففي عام ١٥٩٧ تبرأ الملك فيليب من جميع ديونه وهكذا أضر بالعديد من المؤسسات التجارية الرئيسة في أوربا، فسلطانه فرض الضرائب الباهضة لأجل تجهيز حملاته العظيمة، وعندها فشلت مخططاته ترك شعبه فقيراً، وإن انحطاط أسبانيا بشكل تدريجي داخل أوربا جاء بسبب المشاكل المالية التي ألمت بأسبانيا، وقد ترك فيليب الثاني لخلفه خزينة خاوية، ونظام حكم مدمر، مما تطلب العديد من السنوات لإعادة أسبانيا إلى مركزها الحقيقي.

في هذه الأثناء قضي على التمرد في ايرلندا على يد القائد مونتجوي Mountjoy وهُزمت القوات الأسبانية والايرلندية المشتركة، وأعلن زعيم التمرد تيرون استسلامه قبل وفاة الملكة اليزابيث بأربعة أيام.

كانت نهاية الملكة تقترب بسرعة، ويذكر السير جون هارينجتون J.Harrington. إن ضعفها الجسمي والعقلي راح يتملكها بسرعة. ففي آذار عام ١٦٠٣ أُخذت إلى سريرها وأمسكت بيد قريبها السير روبرت كاري R.Carey بقوة وقالت: ((لا، روبرت أنا لست على ما يرام)) ثم ناقشت حالتها الصحية المزرية معه، وكان مرضها يزداد سوءاً يوماً بعد آخر حتى وصل ذروته في ٢٣ آذار، وأشارت إلى أن وريثها على عرش إنجلترا هو ملك اسكتلندا (جيمس السادس)، وأوصت بأن يحضر إليها رئيس الأساقفة كونها اشتاقت كثيراً لصلواته، وعند وصوله جثا على ركبتيه وتلا الصلوات، وبعد انتهائه همَّ بالمغادرة فأشارت إليه بالاستمرار، وفي صباح اليوم التالي –

٢٤ آذار عام ١٦٠٣- توفيت الملكة اليزابيث عن عمر ناهز السبعين عامــاً من عمرها، والسادس والأربعين من عهدها.

وقد حُمل تابوت الملكة اليزابيث ليلاً الى الوايتهول، ودفنت في ديــر ويستمنستر الى جانب اختها الملكة ماري تيودور.

قائمة المصادر

اولاً: المصادر العربية والمعربة

- ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة فؤاد أندراوس ومحمد علي أبو درة، ج١، مج٧، (مصر، ٢٠٠١).
- شوسوا، روبير، المعارك البحرية الكبرى في التاريخ، ترجمة عبد الرحمن حميد، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، (دمشق، ١٩٨٨).
- صالح، محمد محمد، تاريخ اوربا من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩، مطبعة دار الجاحظ للطباعة والنشر، (بغداد، ١٩٨١).
- الحيدر، حيدر، المسرح الاليزابيثي وتطور الدراما في انجلترا ١٥٧٦-١٦٠٣، بحث منشور على الشبكة الدولية للمعلومات (الحوار المتمدن).
- هامرتن، جون، تاريخ العالم، مكتبة العصرية، مج٦، (القاهرة، د.ت).

ثانياً: المصادر الانجليزية

Spencer, Edward, Queen Elizabeth, (London,1892).-

-Archer,Jayne and others, The progresses pageants and Entertaiments of Queen ElizabethI ,(Oxford,2007).

-Gilberd,Shaua, leadership Secrets of ElizabethI, (Cambridge,2000).

- Bassnet, Susan, ElizabethI,(Oxford,1988).
- Tschudi, Clara, Elizabeth, (London,1901).
- Strachey, Lytton, Elizabeth and Essex, (London,1928).
- Creighton, The age of Elizabeth, (Boston, 1876).
- Jenkins, Elizabeth, Elizabeth, the Great, (London,1958).
- Froude, James, The reign of Elizabeth, (London, 1911).

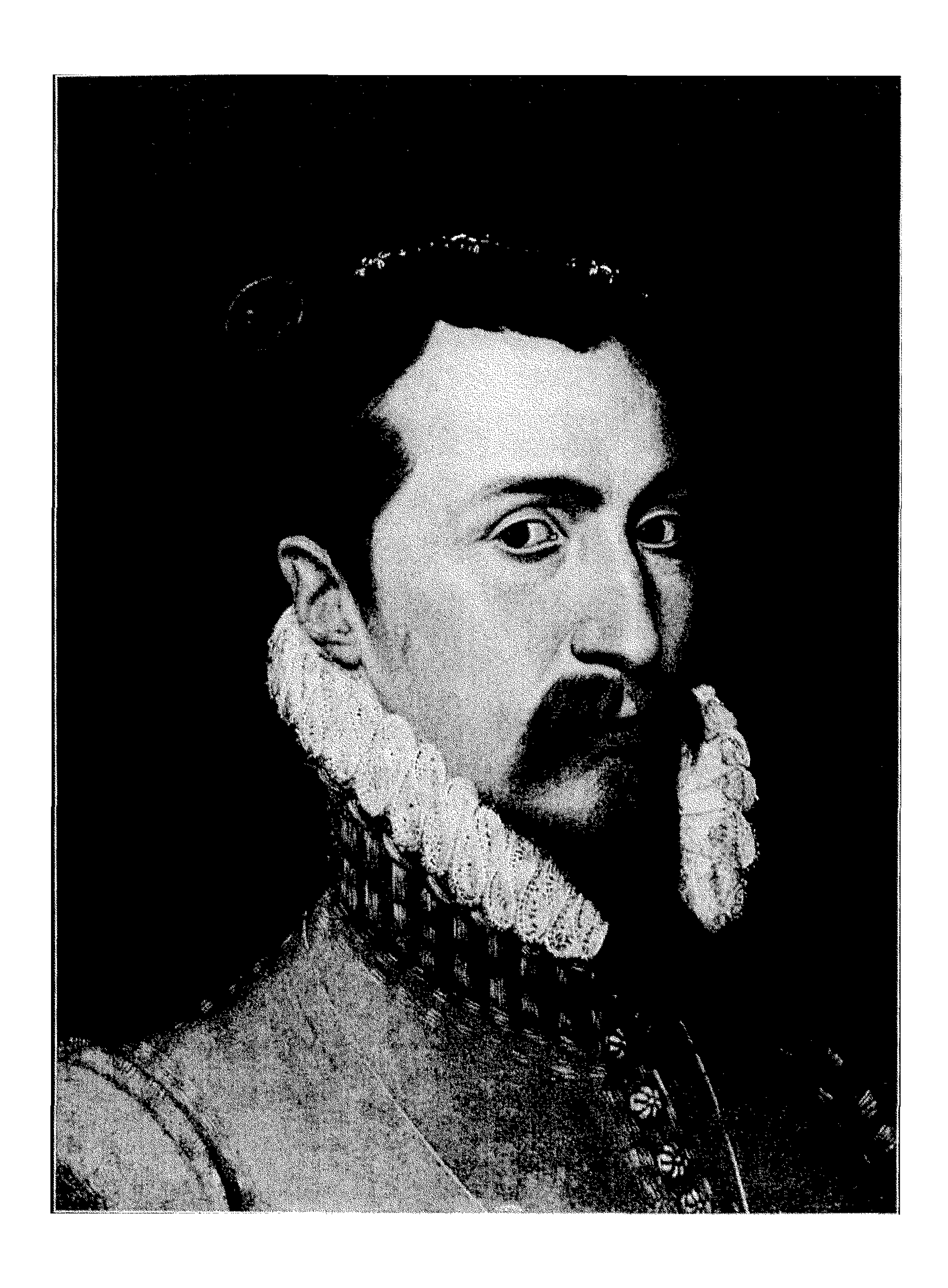
الملحق (١) الملكة اليزابيث الاولى



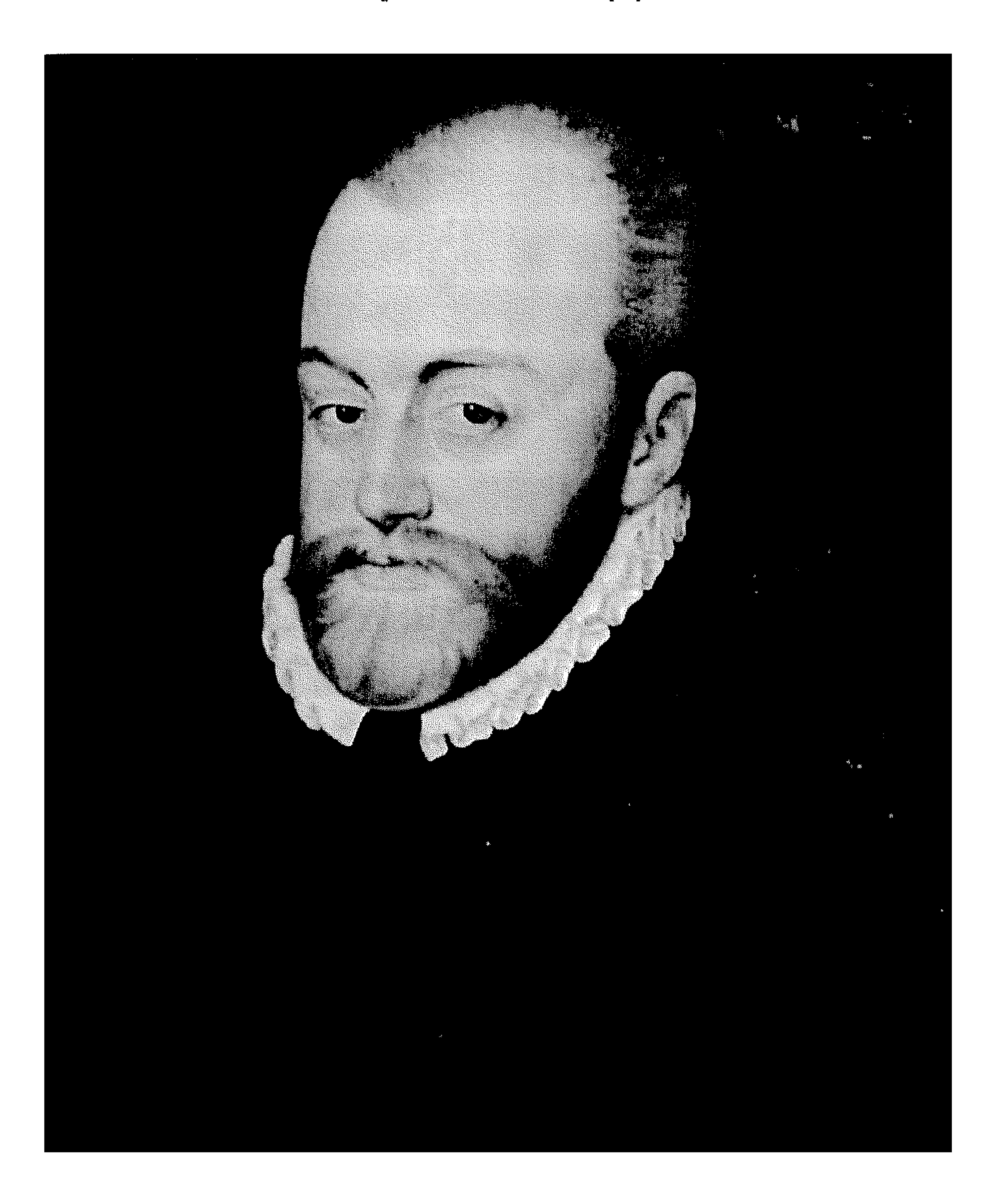
الملحق (٢) الملكة ماري ستيوارت



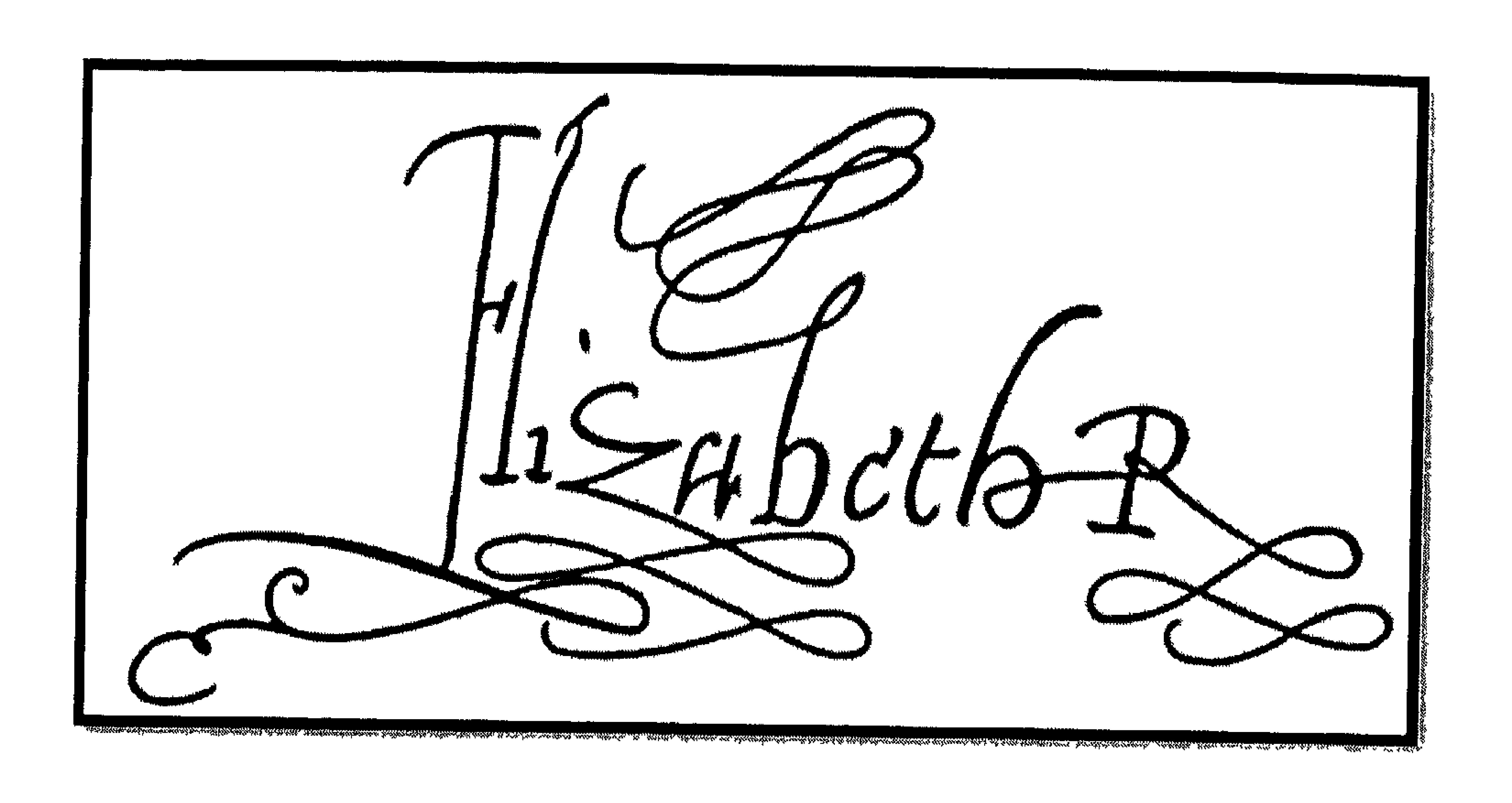
الملحق (٣) روبرت دودلي



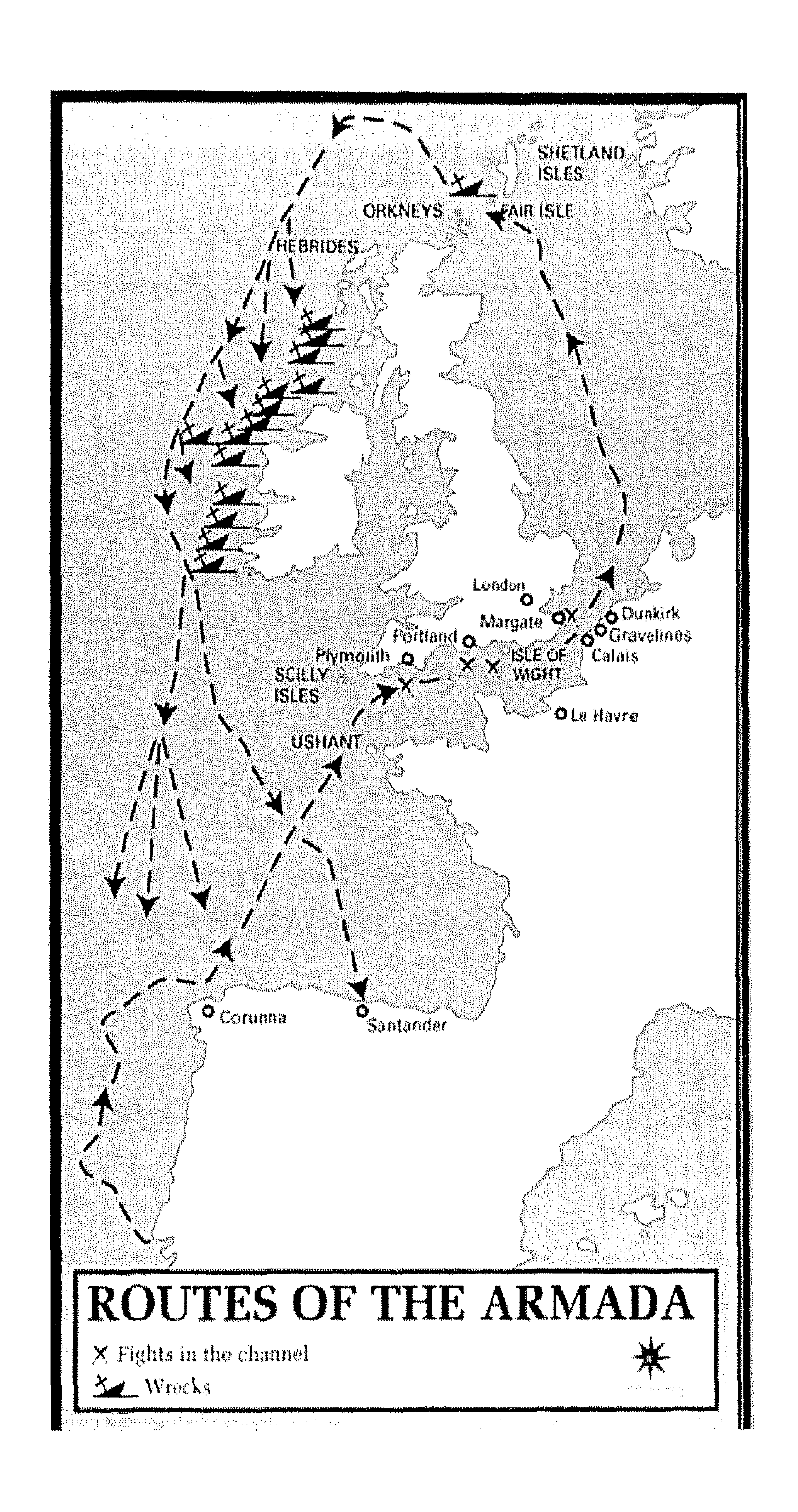
الملحق (٤) الملك فيليب الثاني ملك اسبانيا



الملحق (٥) توقيع الملكة اليزابيث الاولى



الملحق (٦) حملة الارمادا ١٥٨٨



هذا الكتاب

تعد الملكة إليزابيث من أشهر الملوك والحكام في أوربا خلال القرن السادس عشر، فقد استطاعت ان تصل ببلادها الى ذروة مجدها، وأعادت مركزها الطبيعي بين الدول الأوربية الاخرى أمثال إسبانيا وفرنسا.

تميزت سياسة إليزابيث بالهدوء إلى حدٍ بعيد رغم الأحداث الساخنة التي أحاطتها من كل حدب وصوب، فرغم كثرة المؤامرات الداخلية والخارجية الرامية الى خلعها والإطاحة بملكها، إلا أنها كانت تتعامل مع ما يدور من حولها ببرودة أعصاب منقطعة النظير وصلت إلى درجة النقد والاستغراب حتى من أقرب المقربين إليها، فرسخت بذلك أركان المذهب البروتستانتي الجديد، وأنعشت الاقتصاد الانجليزي، وأصدرت القوانين التي نظمت من خلالها الحياة العامة والخاصة، وهزمت أعتى الخصوم الذين تمثلوا بالأسبان في حرب ملحمية بحرية (الأرمادا) حامية الوطيس، عُدّت من أشهر المعارك البحرية في التاريخ الأوربي الحديث.

ولم تغفل إليزابيث الحياة الأدبية والمسرحية فاعتنت بها ودفعتها صوب التميز والازدهار، وشحذت الهمم ورفعت الروح الوطنية بين جميع طبقات المجتمع الانجليزي، إنه الهدوء السياسي الإليزابيثي أو بالأحرى إنها السياسة الهادئة الإليزابيثية التي رفعت الصديق إلى مقام الأقوياء الأمناء، وكسرت جبروت الأعداء حتى لم يعودوا يفرقون ما بين الكدر والنقاء.



